تفسير حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الرابع

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر:

أَخُو ٱلعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ موتِه　　وأَوْصَالُهُ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ رَمِيْمُ

شعر:

وعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ　　ولِكنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلمَسَاوِيَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

المناسبةُ

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لَمَّا ذكر اصطفاءَ طالوت على بني إسرائيل، وتفضيلَ داود عليهم بإيتائِه المُلْكَ والحكمة وتعليمِه، ثم خاطب نبيَّه محمداً ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين المرسلين.. بيّن بأنَّ المرسلين متفاضلون أيضاً، كما كان التفاضل بين غير المرسلين، كطالوت وبني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم...﴾ مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: هو أنه لما ذُكِرَ أن الله تعالى أراد الاختلاف إلى مؤمن وكافر، وأراد الامتثال، وأمر به المؤمنين، وكان الجهاد يحتاج صاحبه إلى الإعانة عليه.. أمر تعالى بالنفقة من بعض ما رَزَقَ، فشَمِلَ النفقةَ في الجهاد، وهي وإن لم ينص عليها مندرجةٌ في قوله: ﴿أَنفِقُوا۟﴾، وداخلة فيها دخولاً أَوَّلياً؛ إذ جاء الأمرُ بها عقب ذِكْر المؤمنِ والكافرِ، وَاقْتِتَالِهم. قال ابنُ جريج: والأكثرون على أن الآية عَامَّة في كل صدقة واجبة، أو تطوع.

التفسير وأوجه القراءة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: جماعةُ الرسل المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وأتى بإشارة البعيد إشعاراً ببُعْدِ مرتبتهم في الكمال. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الكمال؛ بأن خصصناه بمنقبةٍ لَيْستَ لغيره؛ أَيْ: لم نجعَلْهم سواءً في الفَضِيْلَة، وإنْ اسْتَوَوْا في القِيام بالرسالةِ؛ كالمؤمنين مُسْتوون في صفة الإيمان ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان. فإن قلتَ[1]: هذه الآيةُ يُعارضها ما ورد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «لا تفضّلوني على الأنبياء»، وفي لفظ آخر: «لا تُفَضّلوا بينَ الأنبياءِ» وفي لفظ: «لا تخيَّروا بين الأنبياء»؟

قلتُ: لا تعارض بين القرآن والسُّنّة بوجهٍ من الوجوه؛ فالقرآنُ: فيه الإخبارُ من الله بأنه فضَّل بعضَ أنبيائه على بعضٍ، والسنةُ: فيها النهيُ لعباده أن يُفضّلوا بين أنبيائه، فمَنْ تعرَّض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان فقد غَلِطَ غلطاً بَيِّناً.

ثُمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾. قرأ الجمهور: ﴿كلّم﴾ بالتشديدِ، ورفعِ الجلالة، والعائدُ على: ﴿مَن﴾ محذوفٌ؛ تقديره: مَنْ كلّمه الله، وقُرىء بنصب الجلالة، والفاعل مستترٌ، يعود على ﴿مَن﴾، وقرأ أبو المتوكل، وأبو نَهْشَلٍ، وابن السُّمَيْفِع شذوذاً: ﴿كالم اللّهُ﴾ بالألف، ونَصْبِ الجلالة مِنَ المُكالمة، وهي: حُدُوْثُ الكلامِ من اثنين، ومنه قيل: كَلِيْمُ الله؛ أَيْ: مُكالِمُهُ؛ فعيل بمعنى مُفاعل؛ أي: منهم من كَلَّمهم الله سبحانه وتعالى بلا واسطةٍ، كموسىٰ؛ حيث كَلَّمه ليلةَ الحَيْرَةِ؛ وهي تحيُّره في معرفة طريقِه في مسيره من مَدْينَ إلى مصر، وفي الطور، ومحمدٌ ﷺ؛ حيث كلَّمه ليلة المعراج.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على بعض ﴿دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: في الدرجات، والفضائِل؛ كما ثبت[2] في حديث الإسراء حين رَأىٰ النَّبِيُّ ﷺ الأنبياءَ في السموات بحسبِ

---

(١) الشوكاني.
(٢) ابن كثير.

تفاوت منازلهم عند الله عزّ وجلّ. وقال بعضُ المفسرين: أي رَفَع بعضَ الأنبياء والمرسلين على بعضهم الآخر في الدرجات والمنازل كإبراهيم؛ لأنه تعالىٰ اتخذه خليلاً، ولم يُؤْتِ أحداً مِثْلَه هذه الفضيلةَ، وإدريسَ فإنه تعالىٰ رَفَعَهُ مكاناً علياً، وداودَ فإنه تعالىٰ جَمَعَ له المُلْكَ والنُّبوةَ، ولم يَحْصُل هذا لغيره، وسليمانَ فإنه تعالىٰ سخَّر له الإنسَ والجنَّ والطيرَ والرِّيحَ، ولم يكنْ هذا حاصلاً لأبيه داود، ومحمداً ﷺ؛ فإنه تعالى خَصَّه بعُموم رسالته، وبأنَّ شرعه ناسخ لجميع الشرائع، ولكن هذا تفسيرٌ بالرَّأْيِ لا بالنَّقْلِ، والأَوْلَىٰ تَرْكهُ مُبْهماً كما أَبْهمَه سبحانه وتعالى، كما ذَكَره الشوكانيُّ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: أعطيناه الآياتِ الباهرة، والمعجزاتِ الظاهرة الدالة علىٰ صدقه ونبوَّته، كإحياءِ الموتىٰ، وإبراءِ الأكمه، والأبرص، والإخبار بالمغيبات. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾؛ أي: قوَّيْناه. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، أي: بالروحِ المقدَّس، وأعَنَّاهُ بجبريل عليه السلام في أولِ أمره، وفي وَسطِه، وفي آخره؛ وهو نَفْخُ جبريل الروحَ في عِيْسىٰ، وتعليمهُ العلومَ، وحفظُه من الأعداء، وإعانتُه ورفعُه إلىٰ السماء حين أرادت اليهود قتله، فكان يسيرُ معه حيثُ سار.

فإن قلتَ[1]: لِمَ خُصَّ موسىٰ وعيسىٰ بالذِّكر من بين سائر الأنبياء؟

قلتُ: لَمَّا أوتيا من الآياتِ العظيمة، والمعجزاتِ الباهرة.. خُصَّا بالذكر في باب التفضيل. فعلىٰ هذا: كل مَنْ كان من الأنبياء أعظمَ آياتٍ، وأكثرَ معجزاتٍ.. كانَ أفضلَ؛ ولهذا أَحْرزَ نبيُّنا ﷺ قَصَباتِ السبق في الفَضْل؛ لأنه أعظم الأنبياءِ آياتٍ، وأكثرهم معجزاتٍ، فهو أفضلُهم ﷺ وعليهم أجمعين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عَدَمَ[2] اقْتِتالِهم، أو هُدىٰ[3] الناس جميعاً؛ أي: ولو أرادَ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) البيضاوي.

اللّهُ ذلك ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾؛ أي: ما اختلَف الذين من بعدِ مجيءِ الرسل مِنَ الأممِ المختلفةِ اختلافاً مؤدِّياً إلىٰ الاقْتتالِ. فعَبَّرَ بالمُسَبَّبِ الذي هو الاقتتالُ عن السببِ الذي هو الاختلافُ. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: مِنْ بعد ما جاءَتْهم المعجزاتُ الواضحة، والبراهينُ الساطعة التي جاءَتْهم بها رُسلُهم؛ بأَنْ جعَلهم مُتَّفِقِينَ علىٰ اتباع الرسلِ المتفقةِ علىٰ كلمةِ الحق. ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدِّين. وهذا الاستدراكُ واضحٌ؛ لأنَّ ما قبلها ضِدٌّ لِمَا بعدها؛ لأن المعنىٰ: لو شاء الاتفاقَ لاتفقوا، ولكنْ شاء الاختلافَ فاختلفوا بمشيئته، ثم بَيَّنَ الاختلافَ فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسلُ مِنْ كلِّ كتابٍ، وعملوا به، وثَبَتُوا عليه، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك بإعراضِهِ عنه؛ لخذلانِ اللّهِ إيَّاه؛ كالنصارىٰ بعد المسيح اختلفوا فصاروا فِرَقاً، ثُمَّ تحاربوا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ قيل: هذه الجملةُ كُرِّرَتْ توكيداً للأُولىٰ، قاله الزمخشري. وقيل: لا توكيدَ، بل كُرِّر ذِكْرُ المشيئة باقتتالهم تكذيباً لِمَنْ زعم أنَّهم فَعَلوا ذلك من عند أنفسهم، ولم يوجبْه قضاءٌ مِنَ اللّهِ؛ أي: ولو شاء الله عدمَ اقتتالهم بعدَ هذا الاختلافِ ما اقتتلوا. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لا رادَّ لحُكْمه، ولا مُبدِّل لقضائه، فهو يفعلُ ما يشاءُ، ويحكم ما يريد، فيوفِّقُ مَنْ يشاء، ويَخذلُ مَنْ يشاء، لا اعتراضَ عليه في فعله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وصَدَّقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿أَنفِقُوا۟﴾؛ أي: اصرِفُوا وتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ أي: مما أعطيناكم من الأموال في الخيرات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ أي: من قبل أن يجيء ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ وهو: يوم القيامة؛ أي: لا يُؤْخذ فيه بَدَلٌ، ولا فِداءٌ يَفْتَدي به الإنسانُ نَفْسَه مِنْ عذابِ اللّهِ لو فُرِضَ، وإنما سمَّاه بيعاً؛ لأنَّ الفِداءَ شِراءُ النفس من الهلاك. والمعنىٰ: قَدِّموا لأنفسكم اليوم من أموالكم، من قبل أن يأتي يومٌ لا تجارةَ فيه؛ فيكسبَ الإنسانُ ما يفتدي به من عذاب الله. ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾؛ أي: ولا مَودَّةَ ولا صَداقةَ تنفعُ يومئذٍ. قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، وقال أيضاً؛ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ للكافرين؛ أي: ولا تنفعهم شفاعةُ الشافعين. وقَرَأ ابن كثير،

وأبو عَمْرو ويعقوب: بالفتحِ بلا تنوينٍ في: بيعَ وخلةَ وشفاعةَ. وقرأ الباقون جميعاً: بالرفع. ، وهما لغتان مشهورتان متواترتان، ووجهان معروفان عند النحاة.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني[1]: والتاركونَ للزكاةِ هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضَعُوا المالَ في غير مَوضِعِهِ، وصَرَفُوه علىٰ غير وجهه، فوُضِع الكافرون موضِعَهم تغليظاً عليهم، وتهديداً لهم، كقوله: و﴿مَنْ كفر﴾ مكانَ ومَنْ لم يَحُجَّ، وإيذاناً بأنَّ تَرْكَ الزكاةِ مِنْ صفاتِ الكُفَّارِ لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وأخرج[2] عبد بن حميد، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، عن قتادة في الآية قال: قد عَلِم اللّهُ أنَّ ناساً يتخاللون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأمَّا يوم القيامة: فلا خُلَّةٌ إلا خُلَّةُ المتقين. وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، عن عطاءٍ قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

الإعراب

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: بدل منه، أو عطفُ بيانٍ، أو صفةٌ له ﴿فَضَّلْنَا﴾: فعلٌ وفاعلٌ، والجملةُ خبرُ المبتدأ، والجملةُ الاسميةُ مستأنفةٌ. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعولٌ به، ومضافٌ إليه. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جارٌ ومجرورٌ متعلق بفَضَّلْنا.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾.

﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فعلٌ وفاعلٌ، والجملةُ صلة الموصول، والعائدُ محذوفٌ:

(١) البيضاوي.
(٢) الشوكاني.

تقديره: كَلَّمهُ الله، والجملةُ من المبتدأ والخبر مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، أو في محل الرفع خبر ثانٍ لتلك الرسل. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿رفع﴾: فعلٌ ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: منصوبٌ بنزع الخافض؛ تقديره: في درجات، وجملة ﴿وَرَفَعَ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفةٌ. ﴿آتينا﴾: فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا. ﴿عِيسَى﴾: مفعول أول ﴿ٱبْنَ﴾: صفةٌ له، وهو مضاف. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف: العلميةُ والتأنيث المعنوي. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ على كونها مستأنفةً. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفةٌ. ﴿أيدناه﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتيناه﴾، ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق بأيَّدْنا.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا ٱقْتَتَلَ﴾: ما: نافية. ﴿ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ هنا منفيٌ بما، فالفصيح أنْ لا يدخل عليه اللام كما في الآية، ويجوز في القليل أنْ تدخل عليه اللام فيقول: لو قام زيدٌ لَمَا قامَ عَمْرٌو، وجملة ﴿لو﴾ مِنْ فعلِ شرطها وجوابها مستأنفةٌ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلقٌ بمحذوف وجوباً لوقوعه صلة الموصول. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱقْتَتَلَ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية، و ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدرٍ مجرور بالإضافة تقديره: مِنْ بعدِ مجيء البينات إيَّاهم. ﴿وَلَٰكِنِ

﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: ﴿وَلَٰكِنِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿لو﴾.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿فَمِنۡهُم﴾: الفاء: عاطفةٌ تفصيليّة ﴿منهم﴾: جار ومجرور خبرٌ مقدَّمٌ. ﴿مَّنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ جملة الاستدراك. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنۡ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمِنۡهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخَّر، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾، ﴿كَفَرَۚ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَّن﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعل شرطها. ﴿مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ جوابها، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لو﴾ الأولى مؤكِّدةٌ لها. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكنَّ﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَفۡعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿لو﴾ الثانية. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ؛ تقديره: ما يريده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أيُّ﴾: منادىٰ نكرةٌ مَقْصُودَةٌ ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أيٌّ: من الإضافة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع، أو في محل النصب صفة لأي. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، وجملة النداء مستأنفةٌ. ﴿أَنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور

متعلق بأنفقوا. ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفةٌ لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ؛ تقديره: رزقناكموه. ﴿مِّن قَبْلِ﴾ جار ومجرور متعلق أيضاً بأنفقوا، وجاز تعلُّق حرفين بلفظٍ واحدٍ بفعلٍ واحدٍ لاختلافهما معنىً؛ فإنَّ الأُولىٰ: للتبعيض، والثانية: لابتداء الغاية. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ فعل وفاعل، منصوب بأن، والجملة في تأويل مصدر مجرور بالإضافة؛ تقديره: مِنْ قبل إتْيَانِ يومٍ. ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ﴿لا﴾: نافيةَ تعمل عمل ليس. ﴿بَيْعٌ﴾: اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾؛ تقديره: لا بيع موجوداً فيه، وجملة ﴿لَّا﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع صفة ليوم تقديره: من قبل أن يأتي يوم موصوفٌ بعدم البيع فيه، وكذلك جملة قوله: ولا خلةٌ فيه، ولا شفاعةٌ فيه، في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ علىٰ كونها صفة ليوم تقديره: موصوف بعدم الخلة وبعدم الشفاعة فيه. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فَصْلٍ، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبره والجملة مستأنفةٌ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا﴾ التضعيف فيه للتعدية. ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: جمع درجةٍ، وهي: المنزلة الرفيعة. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمع بَيِّنَة؛ وهي: المعجزة والحُجَّة. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: هو مِنَ التأييد بمعنى التَّقْوِيَةُ، يُقال: أيّد الحقَ ـ من باب فَعَّل المضعَّف ـ يؤيده تأييداً إذا نَصَره وأظهره. ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ البيع معروف: وهو مقابلة مال بمال علىٰ وجه التمليك، والفعل منه: باع يبيع، وهو من الأجوف اليائي. ومَنْ قال: أَباعَ في معنىٰ باع.. فقد أَخْطَأَ؛ لأنه لم يُسْمَع منهم.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾: الخُلَّة: الصداقة والمودة، سُمِّيتْ بذلك لأنها تتخلل الأعضاء؛ أي: تدخل خِلالَها ومنه الخليل. قال الشاعر:

وَكَانَ لَهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ خُلَّةٌ ... يُسَارِقُ بِالطَّرْفِ الخِبَاءَ المُسَتَّرَا

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: من الشَّفْع بمعنىٰ: الضم؛ لانضمام الشافع إلىٰ آخرَ ناصراً

له، وسائلاً عونه، والشفاعة في اصطلاحهم: طلب الخير للغير من الغير.

البلاغة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: وأشار بتلك التي للبعيد؛ لبُعْد ما بينهم من الأزمان، وبين النبي ﷺ، أو بُعْد مرتبتهم في الكمال، وأتىٰ بتلك التي للواحدة المؤنثة وإنْ كانَ المشار إليه جمعاً؛ لأنه جمع تكسير، وجمع التكسير حكمهُ حكمُ الواحدة المؤنثة في الوَصْفِ، وفي عود الضمير، وفي غير ذلك. وكان جمعَ تكسيرٍ هنا لاخْتِصَارِ اللفظِ، ولإزالةِ قلق التكرار؛ لأنه لو قال: أولئك المرسلون فضلنا.. كان في اللفظ طولٌ، وكان فيه التكرارُ.

﴿فَضَّلْنَا﴾: فيه التفات؛ لأنه خروج إلىٰ متكلِّم من غائب؛ إذ قبله ذُكِر لفظُ الله، وهو لفظٌ غائبٌ.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: هذا تفصيل لذلك التفضيل، ويسمىٰ هذا في البلاغة: التقسيم، وكذلك في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾. وبيْن لفظِ ﴿ءَامَنَ﴾ و ﴿كَفَرَ﴾ طِباقٌ، وفي قوله: ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أيضاً: التفات؛ إذ هو خروج إلىٰ ظاهرٍ غائبٍ منْ ضميرٍ متكلمٍ؛ لِمَا في ذِكْر هذا الاسم العظيم من التفخيم والتعظيم، ولزوالِ قلق تكرار ضمير المتكلم؛ إذ كان التركيب فضَّلْنا وكَلَّمنا ورَفَعْنَا وآتينا.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله، وإعلاء قدره ما لا يخفىٰ؛ لما فيه من الشهادة علىٰ أنه العَلَمُ الَّذي لا يَشْتَبه، والمتميِّز الذي لا يَلْتَبِسُ. وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: الإطنابُ حيث كَرَّر جملة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فيه قصرُ الصفة علىٰ الموصوف، وقد أُكِّدَتْ بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

المناسبة

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ...﴾ الآيات، مناسبةُ[1] هذه الآيات لِمَا قبلها: أنَّه تعالىٰ لَمَّا ذكر أنه فَضَّل بعض الأنبياء علىٰ بعضٍ، وأنَّ منهم من كلَّمه، وفسَّر بموسىٰ عليه السلام، وأنه رفع بعضهم درجاتٍ، وفسَّر بمحمدٍ ﷺ، ونصَّ علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وتفضيلُ المتبوعِ يُفهَمُ منه تفضيلُ التابعِ، وكانت اليهود والنصارىٰ قد أحدثوا بعد نبيهم بدعاً، وخرافاتٍ في أديانهم وعقائدهم، ونسبوا الله تعالىٰ إلىٰ ما لا يجوز عليه، وكان رسول الله ﷺ بُعثَ إلىٰ الناس كافَّةً، فكان منهم العرب، وكانوا قد اتخذوا من دون الله آلهةً، وأشركوا، فصار جميع الناس المبعوث إليهم ﷺ علىٰ غير استقامة في شَرائِعِهم وعقائدِهم، وذَكَر تعالىٰ أنَّ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم الواضعون الشيءَ في غير موضعه.. أتىٰ بهذه الآية العظيمة الدالة علىٰ إفراد الله بالوحدانية المتضمَّنة بصفاته العليا من الحياة، والاستبداد بالملك، واستحالة كونه مَحَلاً للحوادث، ومُلكِهِ لِمَا في السموات والأرض، وامتناع الشفاعة عنده إلا بإذنه، وسَعَة علمه، وعدم إحاطة أحد بشيءٍ من علمه، وباهر ما خلق من الكرسيِّ العظيم الاتساع، ووصفه

---

(١) البحر المحيط.

بالمبالغة في العلو والعظمة، إلىٰ سائر ما تَضَمَّنَتْهُ من أسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، نبههم بها علىٰ العقيدة الصحيحة التي هي محض التوحيد، وعلىٰ طرح ما سواها، وذَكَر أنه لا إكراه في الدين؛ فقد سطع نور الحق، وأشرق ضياؤه، فمَنَ تمسَّكَ به.. فقد أستمسك بالعروة الوثقىٰ، وذَكَر أنه وليُّ المؤمنين، وأن الكافرين لا وليّ لهم إلا الطاغوت.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾ روى أبو داود والنَّسائي وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تكون المرأة مقلاةً، فتجعل علىٰ نفسها إن عاش لها ولدٌ أنْ تُهوِّده، فلما أُجليتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندعُ أبناءنا، فَأَنْزَلَ اللّهُ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ...﴾.

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ في رجلٍ من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أَسْتَكْرِهُهُما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ أخرج ابن جرير، عن عبدة، عن أبي لبابة في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال: هم الذين كانوا آمنوا بعيسى، فلما جاءهم محمدٌ ﷺ.. آمنوا به، وأُنزلت فيهم هذه الآية، وأخرج عن مجاهد قال: كان قومٌ آمنوا بعيسىٰ، وقومٌ كفروا به، فلما بُعث محمدٌ ﷺ.. آمن به الذين كفروا بعيسىٰ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ ومما ورد في فضل هذه الآية الكريمة:

ما أخرجه مسلم عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ياأبا المنذر، أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فضرب في صدري، وقال: «ليَهْنِكَ العلم يا أبا المنذر».

وما أخرجه أبو داود عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أيّ آية في القرآن أعظم؟ فقال: رسول الله ﷺ: «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾».

وما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حين يصبح آية الكرسي، وآيتين من أول: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾.. حُفظ يومه ذلك حتىٰ يُمسي، ومن قرأها حين يمسي.. حُفظ ليلته تلك حتىٰ يُصبح». وقال: حديث غريب.

وما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شيءٍ سَنَام، وإن سَنَام القرآنِ البقرة، وفيها آيةٌ هي سيدة آيِ القرآن؛ آية الكرسي» والمراد منه: تعظيمُ هذه السورة. وقوله هي سيدة آي القرآن؛ أي: أفضله.

وقال العلماء[1]: إنما تميَّزت آيةُ الكرسيِّ؛ بكونها أعظمَ آية في القرآن؛ لِمَا جَمعتْ من أصول الأسماء والصفات، من الإلهية، والوحدانية، والحياة، والعلم، والقيومية، والملك، والقدرة، والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات؛ وذلك لأن الله تعالىٰ أعظم مذكور، فما كان ذاكراً له من توحيد وتعظيم.. كان أعظم الأذكار. وفي هذه الأحاديث حُجَّة لمن يقول: بجواز تفضيل بعض القرآن علىٰ بعض، وتفضيله علىٰ سائر كتب الله المنزلة.

وقالوا أيضاً: معنىٰ أن هذه الآية ـ أو هذه السورة ـ أعظمُ، أو أفضلُ هو: أنَّ الثواب المتعلق بها أكثر، وهذا هو المختار.

ومعنى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الإلٰه الذي يستحق منكم العبادة.. مُخبَرٌ عنه بكونه لا معبودَ بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى، فجملة ﴿لَآ﴾ في محل الرفع خبرُ المبتدأ؛ نفىٰ[2] الإلٰهية عن كل ما سواه، وأثبتَ الإلٰهية له

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

سبحانه وتعالى، فهو كقولك: لا كريم إلا زيدٌ، فإنه أبلغ من قولك: زيدٌ كريمٌ.

﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ أي: الباقي علىٰ الأبد، الدائم بلا زوال، الذي لاسبيل إليه للموت والفناء، والحيُّ في صفة الله تعالىٰ: هو الذي لم يزل موجوداً، وبالحياة موصوفاً، لم تحدثْ له الحياة بعد موتٍ، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواه يعتريهم الموت والعدم، فكل شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾؛ أي: القائم[1] علىٰ كُلِّ نفسٍ بما كسبت. وقيل: القائم بذاته، المقيم لغيره. وقال مجاهد[2]: القيوم: القائم علىٰ كلِّ شيءٍ؛ أي: القائم بتدبير خلقه في إيجادهم، وإرزاقهم، وجميع ما يحتاجون إليه. وقيل: هو القائم الدائم بلا زوال، الموجود الذي يمتنع عليه التغيير.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ علىٰ وزن فيعول، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وعلقمة والنُخَعِيُّ والأعمش شذوذاً ﴿القيَّام﴾ بالألف، ورُوي ذلك عن عمر، وقرأ علقمة شذوذاً أيضاً ﴿القيِّم﴾ كما تقول: دَيِّرْ ودَيَّار، ولا خلافَ بين أهل اللغة: أن القَيُّوم أعرف عند العرب، وأصحُّ بناءً، وأثبت عِلَّةً. وقال أمية:

لَـمْ تُـخْـلَـقِ ٱلـسَّـمَـاءُ وَٱلـنُّـجُـوْمُ　　وَٱلـشَّـمْـسُ مَـعْـهَـا قَـمَـرٌ يَـعُـوْمُ
قَـدَّرَهَـا ٱلْـمُـهَـيْـمِـنُ ٱلْـقَـيُّـوْمُ　　وَٱلْـحَـشْـرُ وَٱلْـجَـنَّـةُ وَٱلـنَّـعِـيْـمُ
إِلاَّ لأَمْـرٍ شَـأْنُـهُ عَـظِـيْـمُ

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾؛ أي: لا تعتريه. ﴿سِنَةٌ﴾؛ أي: نعاسٌ. ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ثقيلٌ فيشغلَه عن تدبير خلقه وأمره؛ أيْ: لا يأخذه نعاسٌ فضلاً عن أن يأخذه نوم؛ لأن النوم والسهو والغفلة محالٌ علىٰ الله تعالىٰ؛ لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم، وذلك نقص وآفة، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن النقص والآفات، وأنَّ ذلك تَغَيُّر، والله تعالىٰ مُنَزَّهٌ عن التغيُّر.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط مع الشوكاني.

وفي «الجمل»[1] قوله: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ رتَّبهما بترتيب وجودهما؛ إذ وجود السِّنَة سابق علىٰ وجود النوم، فهو علىٰ حدٍّ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها؛ قصداً إلى الإحاطة والإحصاء. والمعنىٰ: أنه تعالىٰ لا يغفل عن دقيق، ولا عن جليلٍ. عَبَّر بذلك عن الغفلة؛ لأنه سببها فأطلق اسم السبب علىٰ المسبِّب. والسِّنَةُ: ما يتقدَّم النومَ من الفتور مع بقاء الشعور، وهو المسمَّىٰ: بالنعاس. والنومُ: حالةٌ تعرض بسبب استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبة الأبخرة المتصاعدة، فتمنع الحواس الظاهرة من الإحساس رأساً، ويمكن إيقاظ صاحبه. وقيل: النوم مزيل للقوة والعقل، وأمَّا السِّنة: ففي الرأس، والنعاس: في العين. وقيل: السِّنةُ هي: النعاس. وقيل السِّنةُ: ريح النوم تبدو في الوجه، ثم تنبعث إلىٰ القلب، فينعس الإنسان فينام. انتهى.

وقال الشوكاني[2]: وإذا ورد علىٰ القلب والعين دفعةً واحدة، فإنه يقال له: نوم، ولا يقال له: سِنة، فلا يستلزم نفيُ السِّنة نفيَ النوم، وقد ورد عن العرب نفيُهما جميعاً، ومنه قول زهير:

لاَ سِنَــةٌ طِـوَالِ ٱلـلَّـيْـلِ تَـأْخُـذُهُ وَلاَ يَـنَـامُ وَلاَ فِـيْ أَمْـرِهِ فَـنَـدُ

فلم يكتفِ بنفي السِّنةِ.

وأيضاً فإن الإنسان يقدر علىٰ أن يدفع عن نفسه السِّنة، ولا يقدر علىٰ أن يدفع عن نفسه النوم؛ فقد يأخذه النومُ، ولا تأخذه السِّنة. فلو وقع الاقتصار في النظم القرآني علىٰ نفي السِّنة.. لم يُفِدْ ذلك نفيَ النوم، وهكذا لو وقع الاقتصار علىٰ نفي النوم.. لم يُفِدْ نفيَ السِّنة، فكم من ذي سِنة غير نائم، وكُرِّرَ حرف النفي للتنصيص علىٰ شمول النفي لكل واحد منهما. انتهىٰ.

وأخرج مسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بخمس كلماتٍ فقال: «إنَّ الله عزّ وجلّ لا ينام، ولا ينبغي

---

(1) جمل.
(2) فتح القدير.

له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية: النار ـ لو كشفه.. لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالىٰ، لا لغيره جميعُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع من الملائكة ﴿و﴾ جميع ﴿ما في الأرض﴾ من الخلق مَلِكاً ومُلْكاً. ذكر ما فيهما دونهما للردِّ علىٰ المشركين العابدين لبعض الكواكب التي في السماء، والأصنام التي في الأرض؛ أي: فلا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها مملوكةٌ لله، مخلوقةٌ له.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي؛ لا يشفع عنده أحدٌ من أهل السموات والأرض يومَ القيامة. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: إلا بأمره وإرادته تعالى، وهذا ردٌّ علىٰ المشركين؛ حيث زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فإنه تعالىٰ لا يأذن لأحدٍ في الشفاعة إلا للمطيعين، وهو ما استثناه بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يريد بذلك: شفاعة النبي ﷺ، وشفاعة بعض الأنبياء والملائكة، وشفاعة المؤمنين بعضهم بعضاً.

وفي هذا[1] الاستفهام من الإنكار علىٰ مَنْ يزعم: أنَّ أحداً من عباده يَقْدِر علىٰ أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها، ومن التقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدَّفْع في صدور عُبَّادِ القبور، والصَّدِّ في وجوهم، والفَتِّ في أعْضَادِهِم ما لا يرتاد قدرهُ، ولا يبلغ مَدَاه. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضميران لـ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بتغليب العقلاء علىٰ غيرهم؛ أي: يعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما هو حاضرٌ مشاهَدٌ لهم، وهو: الدنيا وما فيها. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: قُدَّامهم، وهو: الآخرة وما فيها. وقيل: بعكسه؛ لأنهم يُقْدِمون علىٰ الآخرة، ويُخَلِّفون الدنيا وراء ظهورهم. وقيل: يعلم ما كان قبلهم، وما كان بعدهم. وقيل: يعلم ما قَدَّموه بين أيديهم من خيرٍ أو شرٍّ، وما خَلْفَهم مما هم فاعلوه. والمقصود من هذا: أنه سبحانه وتعالىٰ عالمٌ بجميع المعلومات، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أحوال جميع خلقه، وكَنَّىٰ بهاتين الجهتين عن سائر

(١) فتح القدير.

جهات من أحاط علمه به. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾؛ أي: لا يعلمون شيئاً قليلاً من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ الله سبحانه وتعالىٰ أن يُعْلِمَهم بها؛ أي: إنَّ أحداً لا يحيط بمعلومات الله تعالىٰ إلا ما شاء هو أن يُعْلِمَهم، أو المعنى: إنهم لا يعلمون الغيب إلا عند إطلاع الله بعض أنبيائه علىٰ بعض المغيبات؛ ليكون ما يُطلِعهم عليه من علمِ غَيْبِهُ دليلاً علىٰ نبوتهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: أحاط كرسيُّه، واشتمل عليهما لعظمته. وأصل[1] الكرسيِّ في اللغة: مِنْ تركب الشيء بعضه علىٰ بعضٍ، ومنه: الكُرَّاسة؛ لتركُّب بعض أوراقها علىٰ بعضٍ، والكرسيُّ في العُرْف: اسم لما يُقعد عليه، سُمِّيَ به لتركُّب خشباته بعضها علىٰ بعض.

واختلفوا في المراد بالكرسيِّ هنا علىٰ أربعة أقوالٍ:

أحدها: أنَّ الكرسيَّ: هو العرش.

والقول الثاني: أن الكرسيَّ: غير العرش، وهو أمامه، وهو فوق السموات ودون العرش، فهو جسم عظيم تحت العرش، وفوق السماء السابعة، وهو أوسع من السموات والأرض. وقال ابن كثير: والصحيح: أن الكرسيَّ غيرُ العرش، والعرش أكبر منه، كما دلَّتْ علىٰ ذلك الآثار والأخبار.

والقول الثالث: أنَّ الكرسي: هو الاسم الأعظم؛ لأن العلم يعتمد عليه، كما أن الكرسيَّ يُعتمد عليه.

والقول الرابع: المراد بالكرسيِّ: المُلْك والسلطان والقدرة؛ لأن الكرسيَّ موضع السلطان، فلا يَبْعد أن يُكنىٰ عن الملك بالكرسيِّ على سبيل المجاز.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾؛ أي لا يُثقله، ولا يُجهده، ولا يُتعبه، ولا يَشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: حفظ السموات والأرض، فحَذَفَ الفاعلَ، وأضاف المصدرَ

---

(١) الخازن.

إلىٰ المفعول ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾؛ أي: الرفيع فوق خلقه، الذي ليس فوقه شيءٌ فيما يجب له أن يوصف به، من صفات الجلال والكمال، فهو العليّ بالإطلاق، المتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء، الذي لا شيء أعظم منه، أو الذي يستحقر كلَّ ما سواه بالنسبة إليه، فهو تعالىٰ أعلىٰ وأعظم من كلِّ شيء.

ومن فضائلها أيضاً: أنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما قُرِئتْ هذه الآيةُ في دارٍ.. إلَّا هَجرتها الشياطينُ ثلاثين يوماً، ولا يدخُلُها ساحرٌ ولا ساحرة أربعينَ ليلةً».

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ نبيَّكم علىٰ أعواد المنبر وهو يقول: «مَنْ قرأ آية الكرسي في دُبُر كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ.. لم يمنعْهُ من دخول الجنة إلا الموت»؛ أي: فإذا مات دخل الجنة، ولا يواظب عليها إلا صِدِّيقٌ أو عابدٌ، ومَنْ قرأها إذا أخذ مَضجِعه.. أُمِنَهُ علىٰ نفسه، وجاره، وجار جاره، والأبيات التي حوله. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لا إجبار علىٰ الدخول في دين الإسلام؛ إذ الإكراهُ في الحقيقة: إلْزَامُ الغيرِ فِعْلاً لا يَرىٰ فيه خيراً يَحْمِلُه عليه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾؛ أي؛ قد تَمَّيز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدىٰ من الضلالة؛ بكثرة الدلائل، والبراهين الساطعة. وقُرىء بسكون الشين، وبضمها، وبفتح الراء والشين، وكله عدا قراءة الجمهور شاذ، وقُرىء كذلك وبألف بعد الشين، وقُرىء بإدغام دال ﴿قَد﴾ في تاء ﴿تَّبَيَّنَ﴾ لجميع القراء في المتواتر، وقُرىء بإظهارها شاذاً.

وقال الشوكاني(١): وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوالٍ:

الأول: أنها منسوخةٌ؛ لأن رسول الله ﷺ قد أكره العرب علىٰ دين الإسلام، وقاتلهم، ولم يرضَ منهم إلا الإسلام، والناسخُ لها: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟

(١) فتح القدير.

﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾، وقد ذهب إلىٰ هذا كثيرٌ من المفسرين.

القول الثاني: أنها ليست بمنسوخةٍ، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصةً، وأنهم لا يُكْرَهُون علىٰ الإسلام إذا أَدَّوا الجِزْية، بل الذين يكرهون هم: أهلُ الأوثان، فلا يُقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف، وإلىٰ هذا ذهب الشعبي والحسن وقتادة والضحاكُ.

القول الثالث: أنَّ هذه الآية في الأنصار خاصةً، كما سبق لك بيان ما ورد في ذلك.

القول الرابع: أن معناها لِمَنْ أسلمَ تحت السيف؛ أنَّه مكرهٌ، فلا إكراه في الدين، إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

والذي ينبغي اعتماده، ويتعيَّن الوقوف عنده: أنها في السَّبَبِ الذي نَزَلَتْ لأجله، مُحْكَمةٌ غيرُ منسوخةٍ؛ وهو أن المرأة من الأنصار كانت مقلاةً، لا يكاد يعيش لها ولدٌ إلىٰ آخر ما سبق ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: بالشيطان، أو الأصنام، أو بكلِّ ما عُبد من دون الله ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ويُصدِّق بالله أنه ربُّه، ومعبودُه من دون كلِّ شيءٍ كان يعبده، وفيه: إشارةٌ إلىٰ أنه لا بد للكافر أن يتوب أولاً عن الكفر، ويستبرأ منه، ثُمَّ يؤمنَ بعد ذلك بالله، فمَنْ فعل ذلك.. صحَّ إيمانه، وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ الغيِّ، ولم يَكْتَفِ بالجملة الأُوْلَى؛ لأنها لا تستلزم الجملة الثانية؛ إذ قد يَرْفُض عبادتَها، ولا يؤمن بالله، لكنَّ الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت. ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾؛ أي: تَمَسَّكَ ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾؛ أي: بالعقدة ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ أي: المحكمة ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾؛ أي: لاانقطاع لتلك العروة حتىٰ تُوصله إلىٰ الجنة؛ أي: فقد أَخَذَ بالحبل الوثيق، الشديد المحكم المأمون، الذي لا انقطاع له؛ أي: فقد أَخَذ بالثقة بـ ﴿لا إله إلا الله﴾ التي لا انقطاع لصاحبها عن نعيم الجنة، ولا زوال عن الجنة، ولا هلاكَ بالبقاء في النار. وهذا تمثيلٌ للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتىٰ يَتَصَوَّره السامع كأنَّه ينظرُ إليه بعينه، فيُحْكِمُ اعتقاده. والمعنىٰ: فقد عَقَد لنفسه من الدين

عِقداً وثيقاً لا تَحُلُّه شُبْهةٌ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ قول من يتكلم بالشهادتين وقول من يتكلم بالكفر ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلب المؤمن من الاعتقاد الطاهر، وما في قلب الكافر من الاعتقاد الخبيث، أو يقال: والله سميعٌ لدعائك يا محمد، عليمٌ بحرصك علىٰ إسلام أهل الكتاب؛ وذلك لأن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة، وكان يسأل الله تعالىٰ ذلك سِرّاً وَعلَانِيَةً.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: الذين أرادوا أن يؤمنوا؛ أي: ناصِرُهم، ومعينُهم، ومحبُّهم، ومتولي أمورهم، وهِدَايتهم؛ كعبد الله بن سَلَام وأصحابه ﴿يُخْرِجُهُم﴾ بلطفه وتوفيقه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات الكفر والضلالة، واتباع الهوىٰ، وقبول الوساوس والشُّبه المؤدية إلىٰ الكفر. وجُمِعَتْ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لاختلاف أنواع الضلالات ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلىٰ نور الإيمان والهداية، ووُحِّد النور؛ لأن الإيمان واحدٌ لا يتنوع.

وقال الواقدي[1]: كلُّ شيءٍ في القرآن من الظلمات والنور.. فإنه أراد به: الكفر والإيمان، غير التي في الأنعام، وهو: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فإنه أراد به: الليل والنهار.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلىٰ آدابها؛ كالرضا والصدق والتوكل والمعرفة والمحبة.

وقال أبو عثمان: يُخرجهم من ظلمات الوَحْشة والفرقة إلىٰ نور الوصلة والإلفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ أي: والذين صَمَّموا علىٰ الكفر أمرَهُم، ككعب بن الأشرف وأصحابه. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾؛ أي: ولاة أمورهم. ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾؛ أي: الشياطين، وسائر المضلين عن طريق الحق. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿الطواغيت﴾ بالجمع. ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس وغيرِها من طرق الإضلال، وأتىٰ بضمير الجمع؛ لأن الطاغوت في معنىٰ الجمع. ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ الفطري؛ أي: الذي جُبل

(١) البحر المحيط.

عليه الناس كافةً، أو من نور البينات التي يشاهدونها من جهة النبي ﷺ. ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾؛ أي: إلىٰ ظلمات الكفر، والانهماك في الضلال والشهوات، أو إلىٰ ظلمات الشكوك والشبهات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الطَّاغوت والكفار ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ملابِسُوها ومُلازِمُوها. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها أبداً لا يموتون، ولا يخرجون بسبب مَا لَهُم من الجرائم.

الإعراب

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوفٌ جوازاً تقديره: موجودٌ. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغٌ. ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المُنَزَّه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر ﴿لَآ﴾ تقديره: لا إلٰه موجودٌ هو إلا هو، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مِنَ المبتدأ والخبر مستأنفةٌ استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلْحَيُّ﴾: صفةٌ أولىٰ للمبتدأ الذي هو الله، مرفوعٌ. ﴿ٱلْقَيُّومُۚ﴾: صفةٌ ثانية له، وقيل[1]: مرفوع علىٰ أنه خبر بعد خبر، أو علىٰ أنه بدل من ﴿هُوَ﴾، أو من ﴿ٱللَّهُ﴾، أو علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو، أو علىٰ أنه مبتدأ، والخبر: لا تأخذه. وأجود هذه الأوجه أولُها؛ أي: جعله صفة للمبتدأ، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿الحيَّ القيوم﴾ بالنصب، فقطع علىٰ إضمار أمدح، فلو لم يكن وصفاً.. ما جاز فيه القطع، ولا يقال في هٰذا الوجه: الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر؛ لأن ذلك جائز حسن، تقول: زيدٌ قائمٌ العاقلُ.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾.

﴿لَا﴾: نافيةٌ ﴿تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَلَا نَوْمٌۚ﴾ ﴿الواو﴾:

---

(١) البحر المحيط.

عاطفة. ﴿لا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿نَوْمٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿سِنَةٌ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ويجوز[١] أن تكون خبراً آخر للفظ الجلالة، أو خبراً لـ ﴿ٱلْحَىُّ﴾، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير المستتر في القيوم؛ أي: يقوم بأمر الخلق غير غافل.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو في محل الرفع خبر بعد خبر للفظ الجلالة. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿مَن ذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر له، والجملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿يَشْفَعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿عِندَهُۥٓ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْفَعُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْفَعُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به؛ لأن عَلِم هنا بمعنىٰ عَرَف. ﴿بَيْنَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، وهو مضاف. ﴿أيدي﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدَّرة، وهو مضاف، والضمير مضاف إليه ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: معطوف علىٰ ﴿مَا﴾ الأولىٰ. ﴿خَلْفَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿لا﴾: نافية

---

(١) العكبري.

﴿يُحِيطُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِشَيْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُحِيطُونَ﴾. ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لشيءٍ؛ أي: بشيء كائن من معلوماته. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُحِيطُونَ﴾، ولا يضر[1] تعلُّق هذين الحرفين المتحدين لفظاً ومعنىً بعامل واحد؛ لأن الثاني ومجرورَه بدل من ﴿شيءٍ﴾ بإعادة العامل بطريق الاستثناء؛ كقولك: ما مررت بأحد إلا بزيد. ﴿شَآءَ﴾ فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد ـ أو الرابط ـ محذوف تقديره: إلا بما شاء.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَـُٔودُهُۥ﴾: فعل ومفعول. ﴿حِفْظُهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿وَسِعَ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: خبر ثانٍ، أو صفة لـ ﴿العلي﴾، والجملة مستأنفة.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِكْرَاهَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: لا إكراه كائن في الدين، والجملة مستأنفة ﴿قَد﴾: حرف تحقيق. ﴿تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ﴾: فعل وفاعل ﴿مِنَ ٱلْغَىِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَّبَيَّنَ﴾؛ لأنه بمعنىٰ تميَّز، والجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة؛ لأن هذه الجملة[2] كالعلة لانتفاء الإكراه في الدين، ولا موضع لها من

---

(١) الكرخي.

(٢) النهر والبحر.

الإعراب. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ ﴿فمن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفتَ أنه لا إكراه في الدين، وأردت بيان حكم مَنْ كفر بالطاغوت.. فأقول لك: (من): اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل شرط مجزوم بـ ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ من. ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَكْفُرْ﴾ ﴿وَيُؤْمِنۢ﴾: معطوف علىٰ ﴿يَكْفُرْ﴾ مجزومٌ بـ ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يؤمن﴾.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿فَقَدِ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ وجوباً؛ لاقترانه بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ علىٰ كونه جواباً له، وفاعله: ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدَّرة مستأنفة. ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: صفة للعروة. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا: نافية. ﴿ٱنفِصَامَ﴾: في محل النصب اسمها ﴿لَهَاۗ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ تقديره: لا انفصام كائن لها، وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب حال من ﴿العروة﴾، والعامل فيها ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، أو حال[1] من الضمير المستتر في ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾، أو مستأنفة مُقرِّرةٌ لِمَا قبلها مِنْ وَثاقة العروة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿يُخْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر[2] بعد

---

(١) الجمل.

(٢) البيضاوي.

خبر، أو حال من المستكن في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبيِّن ومُقرِّرٌ للولاية. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: كلاهما متعلق بـ ﴿يُخْرِجُهُم﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه. ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، أو حال[1] من الطاغوت، والعامل فيه معنىٰ الطاغوت؛ لأنه بمعنىٰ المضلِّين، وهو نظير ما قاله أبو علي من نصب: ﴿نَزَّاعَةً﴾ علىٰ الحال، والعامل فيها ﴿لظى﴾. ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَيُّ﴾: عينه ولامه ياءان؛ لأنه من: حَيِيَ بياءين، يحيا ـ من باب رضي ـ فهو حيٌّ.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: علىٰ وزن فيعول؛ لأنه مِن قام بالأمر يقوم به إذا دَبَّره، وأصله: قيووم، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأُدغمت الياء فيها، فصار قيوماً.

﴿سِنَةٌ﴾: أصله وَسْنة؛ لأنه من: وسن يسن، من باب: وعد يعد، فلما حُذفت الواو في المضارع حذفت في المصدر.

---

(١) البحر المحيط.

﴿بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾: العلم هنا: مصدر بمعنىٰ اسم المفعول؛ أي: من معلوماته؛ كالخلق بمعنىٰ: المخلوق، واللفظ بمعنىٰ: الملفوظ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: في «المصباح»: آده يؤده أوداً من باب: قال، فـ: انآد بوزن انفعل؛ أي: ثقل به، وآده أوداً إذا عطفه وحَنَاه. ا هـ.

﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ هو فعيل؛ لأن أصله عليو؛ لأنه من: علا يعلو، اجتمعت الواو والياء وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، فأدغمت الياء فيها، فصار علياً.

﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ والطاغوت[1]: بناء مبالغة؛ كالجبروت و الملكوت، واختُلِفَ فيه فقيل: هو مصدر في الأصل، فلذلك يؤنث ويذكر كسائر المصادر الواقعة علىٰ الأعيان، وهذا مذهب الفارسي، وقيل: هو اسم جنس مفرد، فلذلك لزم الإفراد والتذكير، وهذا مذهب سيبويه، وقيل: هو جمع، وقد يؤنث بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾، واشتقاقه من: طغىٰ يطغىٰ، كسعىٰ يسعىٰ، أو من: طغا يطغو علىٰ حسب ما فيه من الخلاف: هل هو من ذوات الواو، أو من ذوات الياء؟ وعلىٰ كلا التقديرين فأصله: طَغْيُوتْ، أو طَغْوُوت؛ لقولهم: طغيان، فقلبت الكلمة: بأن قُدمت اللام وأُخرت العين، فتحرك حرف العلة، وانفتح ما قبله، فقلبت ألفاً، فوزنه الآن: فلعوت، وقيل: تاؤه ليست زائدة، وإنما هي بدل من لام الكلمة، فوزنه: فاعول.

﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: العروة في الأصل: موضع شد اليد، وأصل المادة تدل علىٰ التعلق، ومنه: عروته إذا ألممت به متعلقاً به، واعتراه الهمُّ إذا تعلق به. و ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: علىٰ وزن فعلىٰ للتفضيل، تأنيث الأوثق؛ كفضلىٰ تأنيث الأفضل، وجمعها علىٰ: وُثَق؛ ككبرىٰ وكُبَر، وأما وُثُق بضمتين: فجمع وثيق. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الولي: فعيل بمعنىٰ فاعل، وهو الناصر.

---

(١) سمين.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: وتقديم السنّة علىٰ النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفي السنّة يدل علىٰ نفي النوم، ففي ذكره ثانياً صريحاً إفادة المبالغة؛ أي: لا تأخذه سنَة فضلاً عن أن يأخذه نوم، وكُررت ﴿لَا﴾ تأكيداً، وفائدتها: انتفاء كل واحد منهما على حِدَتِه؛ إذ لو أُسقطت ﴿لَا﴾.. لاحْتُمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع. تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما.

﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: هذا الكلام: إما من[1] باب الاستعارة التمثيلية، مبني علىٰ تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم، وإما من باب الاستعارة المفردة؛ حيث استعيرتْ العروة الوثقى للاعتقاد الحق. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: فيه استعارة تصريحية؛ حيث شبَّه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور. قال في «تلخيص البيان»: وذلك من[2] أحسن التشبيهات؛ لأن الكفر كالظلمة يتسكع فيها الخابط، ويضل فيها القاصد، والإيمان كالنور الذي يَؤُمه الجائر، ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب.

وقال أبو حيان[3]: وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة، وعلم البيان:

منها: في آية الكرسي حسن الافتتاح؛ لأنها افْتُتِحتْ بأجلِّ أسماء الله تعالىٰ، وتكرار اسمه في ثمانية عشر موضعاً، وتكرير الصفات، والقطع للجمل بعضها عن بعض، ولم يصلها بحرف العطف.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فإن النوم

---

(١) الجمل.
(٢) تلخيص البيان.
(٣) البحر المحيط.

موت وغفلة، و ﴿ٱلۡحَیُّ ٱلۡقَیُّومُۚ﴾ يناقضه، وفي قوله: ﴿یَعۡلَمُ مَا بَیۡنَ أَیۡدِیهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا یُحِیطُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قراءة من قرأ شذوذاً: ﴿وسْعُ كرسيهِ السمواتُ والأرضُ﴾ بسكون السين وضم العين، والسموات والأرض بالرفع: مبتدأ وخبر؛ أي: كوسع كرسيه، فإن كان الكرسي جُرْماً: فتشبيه محسوس بمحسوس، أو معنىً: فتشبيه معقول بمحسوس.

ومنها: معدول الخطاب في قوله: ﴿لَاۤ إِكۡرَاهَ فِی ٱلدِّینِۖ﴾ إذا كان المعنىٰ لا تُكرهوا علىٰ الدين أحداً.

ومنها: الطباق في قوله أيضاً: ﴿قَد تَّبَیَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَیِّۚ﴾ وفي قوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ و ﴿كَفَرُوۤا۟﴾ وفي قوله: ﴿ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾.

ومنها: التكرار في الإخراج لتباين تعليقهما.

ومنها: التأكيد بالمضمر في قوله: ﴿هُمۡ فِیهَا خَـٰلِدُونَ﴾ انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنه تعالىٰ لَمَّا أخبر أنه ولي الذين آمنوا، وأخبر أن الكفار أولياؤهم الطاغوت.. ذكر هذه القصة التي جَرَتْ بين إبراهيم والذي حاجه، وأنه نَاظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه؛ إذ كان الله وليَّه، وانقطع ذلك الكافر وبهت؛ إذ كان وليه هو الطاغوت. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فصارت هذه القصة مثلاً للمؤمن والكافر اللذين تقدم ذكرهما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...﴾ وهذا إخبار من الله تعالىٰ بأن الظالم لا يهديه، وظاهره العموم، ومناسبة[٢] هذه الآية بهذا الإخبار ظاهرة؛ لأنه ذكر حال مدعٍ شركة الله في الإحياء والإماتة، مُموِّهاً بما فعله أنه إحياء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وإماتة، ولا أحد أظلم ممن يدعي ذلك، فأخبر الله تعالىٰ: أن من كان بهذه الصفة من الظلم، لا يهديه الله إلىٰ اتباع الحق، ومثل هذا محتوم عليه عدم الهداية، مختوم له بالكفر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها في غاية الظهور؛ إذ كلاهما أتىٰ بها دلالة علىٰ البعث المنسوب إلىٰ الله تعالىٰ في قول إبراهيم لنمروذ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لكن المار علىٰ القرية أراه الله ذلك في نفسه، وفي حماره وإبراهيم عليه السلام أراه ذلك في غيره وقُدِّمت آية المار علىٰ آية إبراهيم عليه السلام، وإنْ كان إبراهيم عليه السلام مقدَّماً في الزمان علىٰ المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت وإنْ كان تعجب اعتبار فأشبهَ الإنكار، وإنْ لم يكن إنكاراً. فكان أقرب إلىٰ قصة النمروذ وإبراهيم عليه السلام. وأما إن كان المار كافراً: فظهرت المناسبة أقوىٰ ظهور، وأما قصة لُبَّة ـ أي شدة سؤاله ـ إبراهيم عليه السلام فهي سؤال لإرائه كيفية الإحياء؛ ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به نمروذ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: هل[2] انتهىٰ إليك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم في ربه وجادله؛ لأن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة يوقف بها المخاطب علىٰ تعجب منها، فالهمزة لإنكار النفي، ولتقرير المنفي، أي: هل انتهىٰ إليك يا محمد خبر هذا الطاغوت كيف تصدَّىٰ لإضلال الناس، وإخراجهم من النور إلىٰ الظلمات الذي حاج، وخاصم إبراهيم عليه السلام في معارضة ربوبية ربه؟ والهاء في ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ يرجع إلىٰ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، أو إلىٰ ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ﴾ فهو ربهما. وقرأ علي بن أبي طالب شذوذاً: ﴿ألم تَرْ﴾ بسكون الراء، وهو من إجراء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.

الوصل مجرىٰ الوقف، وهذا استشهاد[1] علىٰ ما ذُكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وتقرير له؛ كما أن ما بعده وهو قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ استشهاد علىٰ ولاية الله للمؤمنين، وتقرير لها. وإنما بدأ بهذا؛ لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولأن فيما بعده تعدد، أو تفصيلاً. والذي حاج إبراهيم عليه السلام هو: نمروذ بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أول من وضع التاج علىٰ رأسه، وتجبر في الأرض، وادَّعىٰ الربوبية، ملك زمانه، وصاحب النار والعوضة، وكان ابن زنا، وهو أول من صَلَب، وقطع الأيدي والأرجل. ﴿أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ أي: طغىٰ، وادَّعىٰ الربوبية، فحاج إبراهيم عليه السلام؛ لأنْ أعطاه الله الملك؛ أي: إنَّ إِيْتَاءَ المُلْك له حَمَلَه علىٰ البطر، وأورثه الكِبْر والعتو، فحاج لذلك. وقال الزمخشري[2]: فإن قلتَ: كيف جاز أن يؤتي الله المُلْك الكافرَ؟

قلتُ: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط، من المال والخدم والاتباع، وأما التغليب والتسليط: فلا، وقيل: مَلَّكه امتحاناً لعباده. انتهى.

وقال مجاهد[3]: مَلَك الأرض أربعة؛ مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان بن داود، وذو القرنين. وأما الكافران: فنُمروذُ، وبختنصرُ. واختلفوا في وقت هذه المحاجة.

فقيل: لما كَسَر إبراهيم الأصنام سجنه نمروذ، ثم أخرجه ليحرقه فقال له: مَنْ ربك الذي تدعونا إليه؟ قال إبراهيم: الذي يحيي ويميت. وقيل: كان هذا بعد إلقائه في النار، وخروجه منها سالماً. وذلك أن الناس قحطوا علىٰ عهد نمروذ، وكان الناس يمتارون من عنده، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام.. سأله: مَنْ ربك؟ فإن قال: أنت، باع منه الطعام. فأتاه إبراهيم، فقال له: مَنْ

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

ربك؟ فقال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت؛ كما ذكره تعالىٰ بقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بفتح ياء ربي. وقرأ حمزة بسكونها، وقرىء شذوذاً بحذفها. و ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿حَآجَّ﴾؛ أي: ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وفيه إشارة إلىٰ أنه هو الذي أوجد الكافر، ويحيه ويميته؛ كأنه قال: ربي الذي يحيي ويميت، هو متصرف فيك وفي أشباهك، بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك، من هذين الوصفين العظيمين المشاهدين للعالم، اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء، ولا طب الأطباء، وفيه إشارة أيضاً إلىٰ المبدأ والمعاد. واختار إبراهيم من آيات الله الإحياء والإماتة؛ لأنهما أبدع آيات الله، وأشهدها وأدلها علىٰ تمكُّن القدرة. ﴿قَالَ﴾ نمروذ اللعين ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قرأ جمهورُ القُرَّاء[1]: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ﴾ بطرح الألفِ التي بعد النون من ﴿أَنَا۠﴾ في الوصل، وأثبتها نافع وابن أبي أويس. أراد[2] إبراهيم عليه السلام أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياءً، وعلىٰ أن يقتل، فيكون ذلك إماتة. فكان هذا جواباً أحمق، لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم؛ لأنه أراد غير ما أراده الكافر. فلو قال له: ربُّهُ الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، فهل تقدر علىٰ ذلك؟ لبهت الذي كفر بادىء بدء، وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلىٰ حجة أخرىٰ تنفيساً لخناقه وإرسالاً لعنان المناظرة. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ له ائتني ببيان ذلك، فدعا نمروذ برجلين من السِّجْنِ، فقتل أحدهما، وترك الآخر، قال: هذا بيان ذلك. قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أي: يطلعها كل يوم من المشرق ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي: فأطلعْها ولو يوماً واحداً من المغرب إنْ كنت صادقاً فيما تدعيه من الربوبية، قال له ذلك؛ لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. وكانوا أهل تنجيم[3]. وحركة الكواكب من المغرب إلىٰ المشرق معلومة لهم. والحركة

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) نسفي.

الشرقية المحسوسة لنا قسرية؛ كتحريك الماء النملَ علىٰ الرحىٰ إلىٰ غير جهة حركة النمل، فقال: إن ربي يحرك الشمس قسراً علىٰ غير حركتها، فإن كنت ربّاً فحرِّكْها بحركتها فهو أهون ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾؛ أي: تحير نمروذ وسكت بغير حجة، فبقي مغلوباً لا يجد للحجة مقالاً، ولا للمسألة جواباً، ولم يقل: فبهت الذي حاج؛ إشعاراً بأن تلك المحاجة كُفْر.

قراءة الجمهور[1]: ﴿فبُهت﴾ مبنيّاً للمفعول، والفاعل المحذوف إبراهيم؛ إذ هو المناظِر له، فلما أتىٰ بالحجة.. بهته بذلك وحيره وغلبه. ويحتمل أن يكون الفاعل المحذوف المصدرَ المفهوم من ﴿قَالَ﴾؛ أي: فحيره قول إبراهيم وبهته. وقرأ ابن السميقع شذوذاً: ﴿فبَهت﴾ بفتح الباء والهاء، والظاهر أنه متعدٍ كقراءة الجمهور مبنياً للمفعول؛ أي: فبهَتَ إبراهيمُ الذي كفر، فـ ﴿ٱلَّذِى﴾ في موضع نصب، وقيل المعنىٰ: فبهَتَ الكافرُ إبراهيمَ، أي: سَبَّ وقذف إبراهيم حين انقطعت الحجة، ولم تكن له حيلة. ويحتمل أن يكون لازماً، ويكون الذي كفر فاعلاً، والمعنى فبهت؛ أي: أتىٰ بالبهتان وقرأ أبو حيوة شذوذاً: ﴿فبَهُت﴾ بفتح الباء وضم الهاء، وهي لغة في بَهِت بكسر الهاء، وقرىء شذوذاً أيضاً فيما حكاه الأخفش ﴿فبهِت﴾ بكسر الهاء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر إلىٰ طريق الحجة؛ أي: لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان. بخلاف أولياؤه المتقين. قيل وعنىٰ بالظالمين: نمروذ، ولكن الظاهر العموم، والذي يظهر أن هذا إخبار من الله بأن من حَكَم عليه وقضىٰ بأن يكون ظالماً، أي: كافراً، وقدَّر أن لا يسلم، فإنه لا يمكن أن تقع هداية من الله له ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قرأ الجمهور ﴿أَوْ﴾ ساكنة الواو. قيل ومعناها التفضيل، وقيل التخيير في التعجيب من حال من ينشأ منهما. وقرأ[2] أبو

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

سفيان بن حسين شذوذاً ﴿أوَ كالذي﴾ بفتح الواو، وهي حرف عطف دخل عليها ألف التَّقْرِيرِ، والكاف بمعنىٰ إلىٰ فهو معطوف علىٰ قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ أي: أَلَمْ ينتهِ علمك يا محمد إلىٰ قصة الذي حاج إبراهيم، وإلىٰ قصة الذي مرَّ وجاوز علىٰ قرية وهو عزير بن شرخيا؟ والقرية: هي بيت المقدس حين خربه بُخْتُنَصَّرُ، أو القريةُ التي أَهْلَكَ اللّهُ فيها الذين خَرجُوا مِنْ دِيارَهِم حذَرَ الموتِ، أَيْ: هل انْتَهىٰ إليك يا محمد خَبرُهُ وقصتُه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمةِ الاشتباهِ إلىٰ نور العيان؟.

ومقصود القصة[1]: تعريف منكري البعث قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء خلقه بعد إماتتهم، لا تعريف اسم ذلك المار في هذه القصةِ دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد ﷺ؛ لأنه أخبر اليهود بما يجدونه في كتبهم ويعرفونه، وهو أميٌّ لم يقرأ الكتب القديمة.

﴿وَهِىَ﴾؛ أي: والحال أن تلك القرية ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: خالية ساقطة جدرانها علىٰ سقوفها؛ وذلك أن السقوف سقطت أولاً، ثم وقعت الحيطان عليها بعد ذلك. ﴿قَالَ﴾ ذلك المار ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ﴾؛ أي: كيف يحيي ﴿هَٰذِهِ﴾ القرية الخاوية ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: قال كيف يحي الله سبحانه وتعالى أهل هذه القرية بعد موتهم!! تعجباً من قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحيائها، واستعظاماً لقدرته، واعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء؛ وذلك[2] لِمَا رأىٰ من دثورها، وشدة خرابها، وبُعدها عن العود إلىٰ ما كانت عليه. ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ مكانه فألبثه ميتاً ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾ وعمرت القرية بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنوا إسرائيل إليها ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾؛ أي: أحياه في آخر النهار، فلما[3] بعثه الله عزّ وجلّ بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه: عينيه؛ لينظر بهما إلىٰ صنع الله فيه كيف يحي بدنه، فلما استقل سوياً ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له بواسطة المَلَك: يا عزيز ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: مكثت هنا بعد الموت؛

---

(١) الخازن.
(٢) ابن كثير.
(٣) ابن كثير.

أي: كم قدر الزمان الذي مكثت فيه هنا ميتاً قبل أن أبعثك من مكانك حياً؟ ﴿قال﴾ عزير ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ واحداً؛ وذلك أن الله تعالىٰ أماته ضحىً في أول النهار، وأحياه بعد مئة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس، فقال: لبثت يوماً، وهو يرىٰ أن الشمس قد غابت، ثم التفت فرأىٰ بقية من الشمس، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ أي: بل لبثت بعض يوم، وظن أن الشمس شمسُ يوم إماتته ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له بواسطة الملك ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾؛ أي: مكثت ميتاً هنا ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾. و ﴿بَل﴾ هذه عاطفة لهذه الجملة علىٰ جملة محذوفة تقديرها: قال ما لبثت هذه المدة، بل لبثت مئة عام. وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار التاء في لبثتَ، وهو أَحْسَنُ لِبُعْدِ مخرج الثاءِ من مخرجِ التاءِ، قاله الشوكاني ولعلهم رأوه أسهل؛ لأن كلا القراءتين متواتر؛ فلا تفاضل بينهما. وقرَأَ الباقون بإدغام الثاءِ في التاء لِتقارُبِهما في المخرجِ.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ أيْ التِّينِ والعِنبِ الذي كان معه قبلَ موته، ﴿وَشَرَابِكَ﴾؛ أي: العصيرِ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ أيْ: لم يتغيَّرْ، ولم ينضُب في هذه المدةِ المتطاولةِ، فكان التين والعنب كأنه قد قطف من ساعته، والعصير كأنه عُصر مِنْ ساعتِه، واللبن كأنه قد حُلب من ساعته.

وقرأ ابن مسعود: ﴿وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، وقرأ طلحة ابن مصرف ﴿وانظر لطعامك وشرابك لمائة سنة﴾، وروي عن طلحة أيضاً أنه قرأ: ﴿لم يَسَّنَّ﴾ بإدغام التاء في السين، وحذف الهاء، وكل هذه القراءات شاذة عدا قراءة الجمهور. وقراءة الجمهور بإثبات الهاء في الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف في المتواتر بحذفها وصلاً فقط. والتَّسَنُّهُ: مأخوذ من السَّنَة؛ أي: لم تغيره السنون، أو المعنىٰ علىٰ التشبيه؛ كأنه لم تمرَّ عليه المئة سنة لبقائه علىٰ حاله، وعدم تغيره، وإنْ شككت فانظر إلىٰ طعامك وشرابك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتين وعصير، فوجدها علىٰ حالها لم تفسد. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تقطعت أوصاله، وكيف تلوح عظامه بيضاء، فنظَرَ فإذا هو عظامٌ بِيضٌ، فركَّب الله تعالىٰ العظامَ بعضَها علىٰ بعض، ثم كساها اللحم

والجلدَ، وأحياه وهو ينظر.

فعلنا ذلك ـ الإحياء ـ لتُعاين ما ابتعدته من الإحياء بعد دهر طويل ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: ولكي نجعلك علامة للناس في إحياء الموتىٰ، وأنهم يحيون علىٰ ما يموتون لأنه مات شاباً، وبعث شاباً، وعبرة للناس؛ لأنه كان ابن أربعين سنة حين أماته الله، وابنُه ابنُ مئة وعشرين سنة حين بعثه الله. وقيل: إنه أتىٰ قومه راكباً حماره وقال: أنا عزير. فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرؤوها عن ظهر قلبه، ولم يحفظها أحد قبله، وقيل: رجع إلىٰ منزله فرأىٰ أولاده شيوخاً وهو شاب.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾؛ أي: عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي المنقوطة؛ أي: كيف نرفع بعضها علىٰ بعض، ونركبه عليه، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ننشرها﴾ بالراء المهملة؛ أي: كيف نحييها ونخلقها؟ مِنْ أنشر الله الموتىٰ إذا أحياهم. وروىٰ أبان عن عاصم ﴿نَنْشُرُها﴾ بفتح النون الأولىٰ وسكون الثانية وضم الشين والراء، من نشَرَ بمعنىٰ: أَحْيَا وهي قراءة شاذة، وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿كيف ننشيها﴾ بالياء؛ أي: نخلقها، وقال بعضهم: العظام لا تحيىٰ علىٰ الانفراد حتىٰ ينضم بعضها إلىٰ بعض، فالزاي أولىٰ بهذا المعنىٰ؛ إذ هو بمعنىٰ الانضمام دون الإحياء. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾؛ أي: العظام ﴿لَحْمًا﴾؛ أي: ننبت عليها العصب والعروق واللحم والجلد والشعر، ونجعل فيه الروح بعد ذلك. والمعنىٰ: ثم نستر العظام باللحم كما يستر الجلد باللباس.

وفي الآية[1]: تقديم وتأخير، تقديره: وانظر إلى حمارك، وانظر إلىٰ العظام كيف ننشزها، ولنجعلك آية للناس ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾؛ أي: فلما اتضح له عياناً ما كان استغربه أولاً من إحياء القرية، ورآه عياناً في نفسه ﴿قَالَ﴾ عزيرٌ ﴿أَعْلَمُ﴾ علم[2] مشاهدة بعد العلم اليقيني الحاصل بالفطرة والأدلة العقلية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) الخازن. (٢) الجمل.

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإماتة والإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿تَبَيَّنَ﴾ مبنيّاً للفاعل، وقرأ ابن عباس شذوذاً ﴿تُبِيِّن له﴾ مبنيّاً للمفعول، وقرأ ابْنُ السُّميفع شذوذاً أيضاً ﴿بُيِّن له﴾ مبنيّاً للمفعول بغير تاء. وقرأ الجمهور ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارعاً، فيه ضمير المار. وقال ذلك علىٰ سبيل الاعتبار، وقرأ حمزة والكسائي[2]: ﴿اعلم﴾ من: عَلِم الثلاثي أمراً من الله، أو من المَلَك عن الله، أو منه لنفسه؛ نزَّلها منزلة الأجنبي المخاطب، وقرىء شذوذاً ﴿أعْلِمْ﴾ أمراً من: أعلَمَ الرباعي؛ أي: قال الله له: أعلِمْ غيرك بما شاهدته من قدرة الله تعالىٰ.

﴿و﴾ اذكر يا محمد قصة ﴿إذ قال إبراهيم﴾ الخليل عليه السلام؛ أي: طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سأله عن إراءَة كيفية الإحياء مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان.

قال الحسن[3] والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج: سبب سؤاله: أنه رأى جيفة مطروحة في شط البحر، وقد توزعها دواب البحر والبر، فإذا مدَّ البحر.. أكل منها دواب البحر، وإذا جزر البحر.. جاءت السباع فأكلت، وإذا ذهبت السباع.. جاءت الطيور، فأكلت وطارت، فلما رأىٰ إبراهيم ذلك تعجب منها، وقال: يا رب، إني قد علمت أنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطيور وأجواف الدواب، فأرني كيف تحييها؛ لأعاين ذلك، فأزداد يقيناً، فعاتبه الله تعالىٰ علىٰ ذلك حيث ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنَ﴾؛ أي: أتسألني عن ذلك، لم توقن وتصدق بقدرتي على الإحياء. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلَىٰ﴾ يا رب آمنت وصدقت أنك قادر على الإحياء، وليس سؤالي لعدم إيماني بذلك ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ أي: ولكن سألتك عن ذلك؛ ليوقن قلبي ويزداد طمأنينةً وبصيرةً بمُضامَّةِ العِيان إلىٰ الوحي والاستدلال، أو سألتك لتسكن حرارة قلبي، وأعلم بأني خليلك مجاب الدعوة والمطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضرورياً.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) النهر.
(٣) مراح وخازن.

فإن قلتَ: كيف قال ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟

قلتُ: ليجيب بما أجابه به؛ لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. قال الله سبحانه وتعالىٰ: إن أردت ذلك يا إبراهيم ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾ أشتاتاً. قال مجاهد: كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً؛ أي: خذ أربعة أنواع من الطيور ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾. قرأ حمزة: ﴿فصِرهن﴾ بكسر الصاد، ومعناه: قطعهن ومزقهن. وقرأ الباقون بضمها، وتخفيف الراء، ومعناه: أضْمُمْهُنَّ وأملهنَّ إليك وأجمعهن عندك؛ أي: خذ أربعة أنواع منها، وأضممهُنَّ إليك، وأجمعهن عندك، ثم اذبحهن، وقطع لحومهن، واخلط بعضهن ببعض حتىٰ يصبحن كتلة واحدة[1]. وقرأ ابن عباس وقوم شذوذاً ﴿فصُرَّهن﴾ ـ بتشديد الراء وضم الصاد وكسرها ـ من: صَرَّه يصُره ويصِره إذا جمعه، نحو: ضرَّه يضِره ويضُره، وعنه أيضاً: ﴿فصَرَّهن﴾ ـ بفتح الصاد وتشديد الراء وكسرها ـ: من الصريَةِ.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾؛ أي؛ ضع علىٰ كل جبل من الجبال التي بحضرتك؛ أي: علىٰ أربعة أجبل من الجبال التي بقربك ﴿مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾؛ أي: جزءاً من لحومهن المجزأة. وقرأ الجمهور ﴿جُزْءًا﴾ بإسكان الزاي وبالهمزة، وضم أبو بكر شعبة الزاي فقرأ: ﴿جزءُا﴾. وقرأ أبو جعفر ﴿جزّا﴾ بحذف الهمزة وتشديد الزاي؛ أي: جزِّىء لحومهن، وفرقهن علىٰ رؤوس الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾؛ أي: نادهن بأسمائهن، وقل لهن: تعالين بإذن الله تعالىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ﴾؛ أي: يجئن إليك مشياً أو طيراناً ﴿سَعْيًا﴾؛ أي؛ حالة كونهن ساعيات مسرعات إليك في مشيهن، أو طيرانهن. وقيل معنىٰ: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾؛ أي: مشياً سريعاً ولم تأتِ طائرة ليتحقق أن أرجلهن سليمة في هذه الحالة. ﴿وَٱعْلَمْ﴾ يا إبراهيم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب علىٰ جميع الممكنات، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وصنعه، عليم بعواقب الأمور وغايات الأشياء. روي أنه عليه السلام أمر بذبحها، ونتف ريشها، وتقطيعها جزءاً جزءاً، وخلط دمائها

---

(١) البحر المحيط.

ولحومها، وأن يمسك رؤوسها بيده، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها علىٰ الجبال علىٰ كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله تعالىٰ، ثم أخذ كل جزء يطير إلىٰ الآخر حتىٰ تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلىٰ رأسها سعياً علىٰ أرجلها، وانضم كل رأس إلىٰ جثته، وصار الكل أحياء بإذن الله تعالىٰ.

الإعراب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

﴿أَلَمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري التعجبي ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، أو علىٰ كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة ﴿إِلَى ٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تر﴾. ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾. ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ﴾: ﴿أَنْ﴾: مصدرية. ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ مفعول ثانٍ، والجملة صلة ﴿أَنْ﴾ المصدريةُ ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة تقديره: لأجل إيتاء الله إياه الملك، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بـ ﴿حَآجَّ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضاف إليه ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ مقول محكي، وإن شئتَ قلتَ ﴿رَبِّىَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿يُحْىِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة له. ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوف علىٰ ﴿يُحْىِۦ﴾.

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ نمروذ اللعين، والجملة

مستأنفة ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾: مقول محكيٌّ، وإن شئتَ قلتَ: ﴿أَنَا۠﴾: ضمير منفصل في محل الرفع مبتدأ، والاسم منه أنْ، والألف زائدة لبيان الحركة في الوقف؛ ولذلك حذفت وصلاً، والصحيح أنَّ فيه لغتين:

إحداهما: لغة تميم وهي إثبات أَلِفِه وصلاً ووقفاً.

والثانية: إثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً. وقيل بل ﴿أَنَا۠﴾ كله ضمير، وفيه لغات: أنا، وأنْ؛ كلفظ أنْ الناصبة وآن، وكأنه قدم الألف علىٰ النون فصار آن مثل آن، المراد به: الزمان، وقالوا: آنه، وهي هاء السكت، لا بدل من الألف. ا هـ «سمين». وجملة ﴿أُحۡيِۦ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿وَأُمِيتُۖ﴾: معطوف علىٰ أحي.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ﴾. الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أَفْصَحتْ عن شرطٍ مقدَّرٍ تقديره: إذا كنت قادراً كقدرة الله.. فأقول لك: ﴿إن الله﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأۡتِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿بِٱلشَّمۡسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأۡتِي﴾ وجملة ﴿يَأۡتِي﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ تقديره: فإن الله آتٍ بالشمس، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾: متعلق بـ ﴿يَأۡتِي﴾ أيضاً ﴿فَأۡتِ بِهَا﴾ الفاء: عاطفة ﴿ائت﴾: فعل أمر مبني علىٰ حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود علىٰ الكافر اللعين. ﴿بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾: كلاهما متعلق بـ ﴿ائت﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة إن علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾.

﴿فَبُهِتَ﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. ﴿بهت الذي﴾: فعل وفاعل،

وهذا[1] الفعل من جملة الأفعال التي جاءت علىٰ صورة المبني للمفعول، والمعنىٰ فيها علىٰ البناء للفاعل؛ فلذلك فسَّروه بدَهِش وتَحيَّر. فـ ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: فاعل، لا نائب فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾. ﴿كَفَرَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول والجملة صلة له.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود علىٰ الله. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل وتخيير في التعجب، ﴿الكاف﴾: زائدة، ﴿الذي﴾: في محل الجر معطوف علىٰ الموصول في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، والتقدير: ألم تر إلىٰ الذي حاج إبراهيم، أو الذي مرَّ علىٰ قرية، وإنْ شئت قلت: الكاف حرف جر معنًىٰ، ﴿إِلَى ٱلَّذِى﴾: في محل الجر بالكاف، والجار والمجرور معطوف علىٰ الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ لأن حروف الجر بعضها يتقارض عن بعض، كما هو كثير في كلامهم، كما أشرنا إلىٰ هذا الوجه الأخير في محل التفسير ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هي﴾: مبتدأ. ﴿خَاوِيَةٌ﴾: خبره، والجملة[2] في محل النصب حال من الفاعل الذي في ﴿مَرَّ﴾، أو من ﴿قَرْيَةٍ﴾، ولكن مجيءَ الحال من النكرة إذا تأخَّرَتْ قليلٌ، وقيل: الجملة في محل الجر صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾، ويُبعِد هذا القولَ الواوُ.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

---

(١) الجمل.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَوْتِهَا﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ متى في محل النصب علىٰ الظرفية الزمانية، أو بمعنىٰ كيف في محل النصب حال من ﴿هَٰذِهِۦ﴾، وعلى كِلا التقديرين، فالعامل فيه ﴿يُحْيِۦ﴾. ﴿يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُحْيِۦ﴾.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

﴿فَأَمَاتَهُ﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، ﴿أماتة الله﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿مِاْئَةَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية متعلق بـ ﴿أماته﴾. ﴿عَامٍ﴾ مضاف إليه. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿بَعَثَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿فَأَمَاتَهُ﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿كَمْ﴾: اسم استفهام في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بـ ﴿لَبِثْتَ﴾؛ أي: كم مدة لبثت. ﴿لَبِثْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة مستأنفة ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَبِثْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿يَوْمًا﴾: ظرف متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف بمعنى بل: التي للإضراب ﴿بَعْضَ﴾: معطوف علىٰ ﴿يَوْمًا﴾ وهو مضاف. ﴿يَوْمٍ﴾ مضاف إليه.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَل﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿لَّبِثْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿لَّبِثْتَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة محذوفة هي مقول ﴿قَالَ﴾ تقديرها: قال: ما لبثتُ يوماً أو بعض يوم، بل لبثتُ مئة عام. ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾ علىٰ كونها مقول القول لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿انظر﴾، ﴿وَشَرَابِكَ﴾: معطوف علىٰ طعامك ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ فعل مضارع مجزوم بسكون آخره؛ أعني: الهاء؛ لأنها أصلية، وفاعله ضمير يعود علىٰ الطعام والشراب، والجملة في محل النصب حال من ﴿طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ تقديره: حالة كونهما غير مُتسنِّهَين؛ أي: متغيِّرين. ﴿وَانظُرْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَانظُرْ﴾. ﴿إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿انظر﴾. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام كي، ﴿نجعلك﴾: فعل ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول ثانٍ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لآية﴾، وجملة ﴿نجعلك﴾ صلة أنْ المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولجعلنا إياك آية للناس، والجار والمجرور[1] معطوف علىٰ مقدَّر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف، مُقرِّر لمضمون ما سَبَقَ؛ تقديرهُ: فعلْنَا بك ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر؛ لتعاين ما ابتعدته من الإحياء بعد دهر طويل، ولنجعلك آية للناس. ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿انظر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ المار، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾. ﴿إِلَى الْعِظَامِ﴾: جار ومجرور متعلق

(١) أبو السعود.

به. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ﴿كَيْفَ﴾: في محل النصب على الحالية، وصاحب الحال مفعول ﴿نُنشِزُهَا﴾، ﴿نُنشِزُهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر بدل من ﴿الْعِظَامِ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء؛ عاطفة، ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماضٍ له متعلق به، وفاعله ضمير يعود على معلوم من السياق تقديره: فلما تبين له كيفية الإحياء التي استغربها. والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على المار، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿لَمَّا﴾ ـ من فعل شرطها وجوابها ـ معطوفة على[1] مقدَّر يقتضيه المقام تقديره: فأنشزها الله تعالىٰ، وكساها لحماً، فنظر إليها، فتبين له كيفية الإحياء، فلما تبين له؛ أي: أتضح له اتضاحاً تاماً.. قال: أعلم.... الآية. ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المار، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ ـ من اسمها وخبرها ـ في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي ﴿أَعْلَمُ﴾ تقديره: أعلم قدرة الله على كلِّ شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة قصةً على قصة، أو استئنافية. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه

---

(١) الجمل.

لـ ﴿إذ﴾، ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء؛ لكثرة الاستعمال، منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة علىٰ ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرِنِي﴾: فعل، ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. وأرىٰ هنا: بصرية[1] متعدية لواحد، وبدخول همزة النقل عليها طلبت مفعولاً آخر هو: جملة الاستفهام. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب علىٰ الحال بـ ﴿تُحْيِ﴾. ﴿تُحْيِ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تُحْيِ﴾ في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿أرني﴾ تقديره: ربِّ أرني كيفية إحيائِك الموتىٰ. وجملة رأىٰ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئتَ قلتَ: الهمزة للاستفهام التقريري؛ كالهمزة في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾. والواو: عاطفة علىٰ محذوف تقديره: أتسأل، و﴿لم تؤمن﴾ ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تُؤْمِن﴾ مجزوم بلم، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ذلك المحذوف علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة مستأنفة ﴿بَلَىٰ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي، ومدخولها محذوف تقديره: بلىٰ آمنت. والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾ اللام: لام كي. ﴿يطمئن﴾: فعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿قَلْبِي﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة أن المضمرة تقديره: ولكن لاطمئنان قلبي، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: ولكن سألتك لاطمئنان قلبي، وجملة الاستدراك معطوفة

(١) أبو السعود.

علىٰ محذوف تقديره؛ بلىٰ آمنت، وما سألت عن غير إيمان، ولكن سألتُ ليطمئن.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَخُذْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن أردت ذلك.. ﴿خذ﴾: فعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل الجزم جواب لذلك الشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول قال. ﴿أَرْبَعَةً﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أربعة﴾. ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الفاء: عاطفة، ﴿صرهن﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً﴾.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱجْعَلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿صرهن﴾. ﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿اجعل﴾. ﴿مِّنْهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿جُزْءًا﴾؛ لأنه نعت نكرة فلما قُدِّم عليها.. نصب حالاً. ﴿جُزْءًا﴾: مفعول به لـ﴿اجعل﴾؛ لأنه بمعنى ألقِ، فيتعدىٰ لمفعول واحد.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله؛ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ﴾. ﴿يَأْتِينَكَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول. في محل الجزم بالطلب السابق ﴿سَعْيًا﴾: حال من ضمير الفاعل، أو منصوب علىٰ المصدر النوعي؛ لأنه من الإتيان؛ إذ هو إتيان بسرعة، فكأنه قيل: يأتينك إتياناً سريعاً. ﴿وَٱعْلَمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اعلم﴾: فعل

أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ إبراهيم، والجملة في محل النصب، معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدرٍ سَادٍّ مسَدَّ مفعولَيْ ﴿اعلم﴾ تقديره: واعلم كون الله عزيزاً حكيماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: يقال حاجَّهُ محاجة إذا خاصمه وجادله. من باب: فَاعَل. والمحاجة: المغالبة من الجانبين. ومعنى: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: عارض حجته بمثلها، أو أتىٰ علىٰ الحجة بما يبطلها، أو أظهر المغالبة في الحجة، ثلاثة أقوال.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: علىٰ صورة المبني للمفعول، ومعناه علىٰ البناء للفاعل؛ كما سبق. وفي «القاموس»: والبهت: الانقطاع والحيرة. وفعلُهما كعَلِم ونَصَر وكَرُم وزَهَي. وهو مبهوت، لا باهت ولا باهيت. ا هـ. ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: وأصل القرية من قريت الماء إذا جمعته، فالقرية مجتمع الناس ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وفي «المصباح»: خوت الدار تخوىٰ من باب: ضَرَب خَوْياً إذا خلت من أهلها، أو سقطت. وخواء أيضاً: بالفتح والمد. وخويت خوىً من باب: تعب لغة ا هـ. والعُروشُ: جمعُ عرش: وهو سقف البيت، وكذلك كل ما هيىء ليُستظل به. وقيل: هو البنيان نفسه.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ واشتقاقه من: السَّنه، والهاء أصلية إن قدِّرت لامَ السَّنه هاءً؛ لقولهم في التصغير: سُنَيْهة، وفي الجمع: سَنَهات. وقالوا: سانهتُ وأسنهت عند بني فلان، وهي لغة الحجاز. وهاء السكت إن قُدرت لام الكلمة محذوفة للجازم، وهي ألف منقلبة عن واو عندما يُجعل لام السنه المحذوف واواً؛ لقولهم: سنيته وسنوات، واشتق من الفعل فقيل: سانيت وأسنىٰ وأسنتْ. أبدل من الواو تاء، وقيل أصله لم يتسنن؛ أي: لم يتغير من الحمأ المسنون، فأبدلت النون الثالثة ألفاً فراراً من كراهة اجتماع الأمثال؛ كما قالوا: تَظَنَّىٰ أصله: تظنن.

قال أبو عمرو: وخطَّأه الزجاج.

﴿إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: الحمار هو الحيوان المعروف، ويجمع في القلة علىٰ أَفْعِلة قالوا: أحمرة، وفي الكثرة علىٰ فُعُل، قالوا: حُمُر. وعلىٰ فعيل، قالوا: حمير.

﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ـ بالزاي ـ: من أنشز الشيء إذا رفعه؛ أي: كيف نرفعها عن الأرض؟ لنركب بعضها مع بعض ونردَّها إلىٰ أماكنها من الجسد، فنركبها تركيباً لائقاً بها.

﴿وننشرها﴾ ـ بالراء المهملة ـ: من أنشر الله الموتىٰ إذ أحياهم ونشرهم، ونشر الميت إذا حيي، ولكن ليس المراد بالإحياء هنا، معناه الحقيقي الذي هو نفخ الروح؛ لقوله: ثم نكسوها لحماً؛ أي: نسترها به كما يستر الجسد باللباس.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ وأصل أرني: أرئيني بوزن أكرمني، فحذفت الياء الأولىٰ؛ لأن الأمر كالمضارع في الحذف، فصار أرئي، ثم نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء، وحذفت الهمزة، فصار أَرِني بوزن أَفِني؛ فإنه حُذف منه عينه ولامه، وهي الياء.

﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾: والهمزة في ﴿يطمئن﴾ أصلية، ووزنه يفعلل، ولذلك جاء ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ مثل: اقشعررتم. والطمأنينة مصدر: اطمأن علىٰ غير القياس، والقياس الاطمئنان، وهو السكون.

﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ والطير: اسم جمع كركب، وقيل بل جمع طائر نحو: تاجر وتُجرَ. وهذا مذهب أبي الحسن. وقيل: بل هو مخفف طَيِّر بالتشديد، كقولهم: هيْن وميْت في هيِّن وميِّت، وقال أبو البقاء: هو في الأصل مصدر طار يطير، ثم سُميَّ به هذا الجنس.

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ وفي «المختار» صاره ـ من باب: قال وباع ـ إذا أمال إليه وقربه منه أمره بإمالتِهن إليه؛ أي: تقريبِهن منه؛ ليتحقق أوصافَهن حتىٰ يعلم بعد الإحياء أنه لم ينتقل منها جزءٌ من موضعه الأول أصلاً، وصار الشيء إذا فعله وقطعه من بابي: قال وباع أيضاً.

﴿عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾: والجبل معروف، ويجمع في القلة علىٰ: أجبال وأجبُل، وفي الكثرة علىٰ: جبال والجزء القطعة من الشيء، يقال: جزأ الشيء إذا جعله قِطعاً.

البلاغة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: الهمزة فيه للاستفهام التعجبي التَّقْرِيْري.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: التعبير بالمضارع يفيد التجدد، والاستمرار، وفي الجملة دلالةٌ على الاختصاص والقصر؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا.. دلَّ على الاختصاص. فتقول: زيد الذي يصنع كذا؛ أي: المختص بالصنع، وهنا المبتدأ والخبر كانا معرفتين، والمعنى: أنه سبحانه وحده هو الذي يحي ويميت.

وبين كلمتي يحي ويميت من المحسِّنات البديعية: الطباق، وكذلك بين لفظي المشرق والمغرب.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: التعبير بالموصول مع صلته يُشعر بالعلة، وأن سبب الحيرة هو: كفره. ولو قال: فبهت الكافر.. لَمَا أفاد ذلك المعنىٰ الدقيق.

﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وفي نسبة الإحياء والإماتة إلىٰ القرية مجاز بالاستعارة: إنْ أُريد بهما العمارة والخراب، ومجاز مرسل: إن أريد أهلها.. فهو من باب إطلاق المحل، وإرادة الحال علىٰ حدِ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ أي؛ نسترها به؛ كما يستر الجسد باللباس فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابغة للإسلام فقال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتىٰ اكتسيتُ من الإسلام سربالاً

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ
وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
(٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالىٰ لما ذكر قصة المار علىٰ قرية، وقصة إبراهيم، وكانا من أدلِّ دليل علىٰ البعث.. ذكر هنا ما ينتفع به يوم البعث، وما يجد جدوىٰ هناك؛ وهو: الإنفاق في سبيل الله؛ لأن ثمرة النفقة في سبيل الله، إنما

---

(١) البحر المحيط.

تظهر حقيقةً يوم البعث، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً. واستدعاءُ النفقة في سبيل الله مذكِّر بالبعث، وحاضٌّ علىٰ اعتقاده؛ لأنه لو لم يعتقد وجوده.. لما كان ينفق في سبيل الله، وفي تمثيل النفقة بالحبَّة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدرة؛ إذ حبة واحدة يُخرج الله منها سبع مئة حبة، فمن كان قادراً علىٰ مثل هذا الأمر العجاب.. فهو قادر علىٰ إحياء الموات.

ويقال: لما ذكر المبدأ والمعاد، ودلائل صحتهما.. أتبع ذلك ببيان الشرائع، والأحكام والتكاليف، فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل الله، وأمعن في ذلك، ثم انتقل إلىٰ كيفية تحصيل الأموال بالوجه الذي يجوز شرعاً.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لمّا شرط في الإنفاق أن لا يتبع مناً ولا أذىً.. لم يكتفِ بذلك حتىٰ جعل المن والأذىٰ مبطِلاً للصدقة، ونهىٰ عن الإبطال بهما؛ ليقوىٰ اجتناب المؤمن لهما؛ ولذلك ناداهم بوصف الإيمان. ولما جرىٰ ذكر المن والأذى مرتين.. أعادهما هنا بالألف واللام، ودلت الآية علىٰ أن المن والأذى مبطلان للصدقة، ومعنىٰ إبطالهما: أنه لا ثواب فيهما عند الله تعالى.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لما ذكر فضل النفقة في سبيل الله، وحثَّ عليها، وقبَّح المنة، ونهىٰ عنها، ثم ذكر القصد فيها من الرياء، أو ابتغاء مرضات الله.. ذكر هنا وصف المنفَق من المختار الجيد، وسواء كان الأمر في الآية للوجوب، أو للندب، والأكثرون علىٰ أن ﴿طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ هو الجيد المختار، وأن الخبيث هو الرديء.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ قيل[2]: نزلت في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) واحدي.

عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك؛ حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها، ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم». وأتىٰ عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم، فقال: يا رسول الله، كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيت»، فنزلت فيهما الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ...﴾ الآية، أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، قال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: لِرَجل غنيٍّ يعمل لطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل في المعاصي حتىٰ أغرق عمله.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية. روى[1] الحاكم والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ـ معشرَ الأنصار ـ كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله علىٰ قدر كثرته وقلته، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو، فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية.

وروىٰ أبو داود والنسائي والحاكم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: كان الناس يتيممون شر ثمارهم، فجاء رجل بتمر رديءٍ، فنزل القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن

---

(١) لباب النقول.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص، ويتصدَّقون به، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾؛ أي: صفة صدقات الذين يصرفون أموالهم في طاعة الله، ووجوه الخير من الواجب أو النفل كصفة حبة أخرجت ساقاً واحداً، تشعَّب منه سبع شعب، في كل واحدة منها سنبلة ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فجملة ما فيها من الحبوب سبع مئة، وذلك مشاهد في الذرة والدخن، بل فيهما أكثر من ذلك. هذا إن قلنا: إن في الكلام حذفاً من أوله، ويحتمل كون الحذف في آخره، والمعنى حينئذٍ: مثل الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخيرات، كمثل زارع حبة أخرجت ساقاً تشعب منه سبع شعب، في كل واحدة منها سنبلة، في كل سنبلة مئة حبة.

فإن قلتَ: هل[1] رأيت سنبلة فيها مئة حبة حتىٰ يضرب المثل بها؟

قلتُ: ذلك غير مستحيل، وما لا يكون مستحيلاً.. فضرب المثل به جائز وإنْ لم يوجد. والمعنى ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أن جعل الله ذلك فيها. وقيل: هو موجود في الدخن. وقيل: إن المقصود من الآية: أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبع مئة حبة.. ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة، أن لا يترك الإنفاق في سبيل الله إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومئة وسبع مئة؛ أي: فكذلك نفقات هؤلاء تضاعف إلىٰ سبع مئة. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثر من ذلك؛ أي: أكثر من سبع مئة. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لا لكل الناس بل علىٰ حسب حال المنفِقِ من الخصاصة وتعبه؛ ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال في مقادير الثواب؛ أي: فالزيادة[2] علىٰ السبع مئة لبعض الناس، بخلاف السبع مئة؛ فإنها لكل

---

(١) الخازن.

(٢) الجمل.

منفِق. وقيل المراد: والله يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء؛ أي: لبعض الناس، لا لكلهم. فالسبع مئة غير مطردة علىٰ هذا، بل المطرد التضعيف إلىٰ عشرة فقط.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضله، لا يضيق عليه ما يتفضل به من التضعيف ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفِق، وبمن يستحق المضاعفة، وبما يستحقه المنفق من الجزاء والثواب عليه. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ وهذا تقييد[1] لما قبله؛ أي: إن المضاعفة المذكورة مشروطة بعدم المن والأذى. والمعنىٰ: الذين يصرفون أموالهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في وجوه الخيرات واجبة كانت، أم لا. ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا﴾؛ أي: لا يعقبون ما أنفقوا ﴿مَنًّا﴾ علىٰ المنفَق عليه، وتحدثاً بما أعطى له. والمن: أن يعدد إحسانه علىٰ من أحسن إليه؛ كأن يقول له: أعطيتك كذا وكذا، فيعدد نعمه عليه، فيكدرها عليه، وهو من الكبائر، كما ثبت في «صحيح» مسلم وغيره: أن المانّ أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم. وقدم المن علىٰ الأذىٰ؛ لكثرة وقوعه، ووَسَّط كلمة ﴿لَا﴾ بينهما في قوله: ﴿وَلَآ أَذًى﴾؛ للدلالة علىٰ شمول النفي باتباع كل واحد منهما؛ أي: ولا يتبعون نفقاتهم أذىً للمنفَق عليه. والأذىٰ: هو أن يعيِّره، فيقول: كم تسأل، وأنت فقير أبداً، ولا تكتسب، وقد بليت بك، وأراحني الله منك، وأمثال ذلك، كالعبوس في وجهه.

إذا عرفت هذا فنقول: المن: هو إظهار المعروف إلىٰ الناس، والمن عليهم به. والأذى: هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم، فحرم الله تعالىٰ علىٰ عباده المن بالمعروف، والأذى فيه، وذم فاعله.

وقال عبد الرحمن بن يزيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أن سَلَامك يثقل عليه.. فلا تسلم عليه. والعرب تمدح بترك المن، وكتم النعمة، وتذم على إظهارها، والمن بها. قال قائلهم في المدح بترك المن:

زَادَ مَعْرُوْفَكَ عِنْدِيْ عِظَمَاً ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُوْرٌ حَقِيْرْ

---

(١) الجمل.

تَــتَــنَــاسَــاهُ كَــأَنْ لَــمْ تَــأْتِــهِ   وَهُــوَ فِــيْ ٱلْــعَــالَــمِ مَــشْــهُــوْرٌ كَــبِــيْــرْ

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء:

أَتَــيْــتَ قَــلِــيْــلاً ثُــمَّ أَسْــرَعْــتَ مِــنَّــةً   فَــنَــيْــلُــكَ مَــمْــنُــونٌ لِــذَلِــكَ قَــلِــيْــلُ

وقيل المراد بالمن: هو المن على الله، وهو العُجب والأذى لصاحب النفقة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: ثواب إنفاقهم مدخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة؛ أي: فلا يخافون فَقْد أجورهم، ولا يخافون العذاب البتة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا خلفهم من الدنيا.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: كلام جميل يرد به السائل، من غير إعطاء شيء ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من المسؤول عن بذاءة لسان الفقير ﴿خَيْرٌ﴾ للسائل ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ﴾؛ أي: يعقبها ﴿أَذًى﴾؛ أي: مَنٌّ وتعيير للسائل بالسؤال؛ لكونها مشوبة بضرر التعيير له؛ أي: هذا القول المعروف من المسؤول، والرد الجميل، والمسامحة عن بذاءة لسان السائل خيرٌ للسائل من صدقة يأخذها، ويعقبها المن والتعيير من المسؤول له. وقال الشوكاني[1]: والمعنى: أن القول المعروف من المسؤول للسائل، وهو: التأنيس والترجية بما عند الله، والرد الجميل خير من الصدقة التي يتبعها أذى. وقد ثبت في «صحيح» مسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الكلمة الطيبة صدقة»، وأن «مِنَ المعروف: أن تلقى أخاك بوجه طلق».
وما أحسن ما قاله ابن دريد:

لاَ تُــدْخِــلَــنَّــكَ ضَــجْــرَةٌ مِــنْ سَــائِــلٍ   فَــلِــخَــيْــرِ دَهْــرِكَ أَنْ تُــرَىٰ مَــسْــؤُوْلاَ
لاَ تَــجْــبَــهَــنْ بِــٱلــرَّدِّ وَجْــهَ مُــؤَمِّــلٍ   فَــبَــقَــاءُ عِــزِّكَ أَنْ تُــرَىٰ مَــأْمُــوْلاَ

والمراد بالمغفرة: الستر للخلة وسوء حالة المحتاج، والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكدِّر صدر المسؤول. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا

(١) فتح القدير.

﴿تُبۡطِلُواْ﴾؛ أي: لا تحبطوا أجور ﴿صَدَقَٰتِكُم﴾، ولا تفسدوها ﴿بِٱلۡمَنِّ﴾ علىٰ الفقير ﴿وَٱلۡأَذَىٰ﴾ له، أي: لا تبطلوها بالمن والأذى جميعاً، أو بأحدهما إبطالاً كإبطال أجر نفقة ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ في وجوه الخير ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: مُرآةً لهم وسمعة بهم؛ ليروا نفقته، ويمدحوه، ويقولوا: إنه سخي كريم، ولا يريد بإنفاقه رضا الله، ولا ثواب الآخرة. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿رياء﴾ بإبدال الهمزة الأولى ياء لكسر ما قبلها، وهي مروية عن عاصم لكنها شاذة. ﴿و﴾ لإبطال[1] المنافق الذي ﴿لا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾؛ أي: أصلاً بأن يكون كافراً، أو إيماناً كاملاً؛ بأن يكون مسلماً عاصياً، فإن المنافق والمرائي يأتيان بالصدقة، لا لوجه الله تعالىٰ. ومن يقرن الصدقة بالمن والأذى.. فقد أتىٰ بتلك الصدقة، لا لوجه الله أيضاً؛ إذ لو كان غرضه من تلك الصدقة مرضاة الله تعالىٰ.. لما مَنَّ علىٰ الفقير، ولا آذاه. فالمقصود من الإبطال: الإتيان بالإنفاق باطلاً؛ لأن المقصود الإتيان به صحيحاً، ثم إحباطه بسبب المن والأذىٰ ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: فمثل هذا المرائي والمنافق، وصفته في إنفاقه، وحالته ﴿كصفوان﴾؛ أي: كصفة صفوان، وحالته. و﴿الصفْوان﴾ بسكون الفاء: الحجر الكبير الأملس. وقرأ ابن المسيب والزهري ﴿كصفوان﴾ بفتح الفاء ولكنّه شاذٌّ في الأسماء؛ لأن الفتح في المصادر، كالغليان والفوقان؛ أي: كحالة الحجر الأملس ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾؛ أي: شيء من تراب فظنه الظان أرضاً منبتة طيبة ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾؛ أي: أصاب ذلك الصفوان ﴿وَابِلٞ﴾؛ أي: مطر شديد ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾؛ أي: فجعلَ المطر ذلك الحجر ﴿صَلۡدٗاۖ﴾؛ أي: أجرد أملس نقياً من التراب، وأخلف ما ظنه الظان كذلك، هذا المنافق والمرائي يرىٰ الناس أن له أعمالاً؛ كما يرىٰ التراب علىٰ هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة.. اضمحلت وبطلت؛ كما أذهب الوابل ما كان علىٰ الصفوان من التراب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾؛ أي: لا يقدر هؤلاء المراؤون علىٰ ثواب شيء في الآخرة مما أنفقوا في الدنيا رئاءً، فضمير قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ عائد علىٰ المرائي والمنافق، فيكون المعنىٰ: إن الله

---

(١) مراح.

تعالىٰ شبَّه المانّ والمؤذي بالمنافق والمرائي، ثم شبه المنافق والمرائي بالحجر الكبير الأملس. وقيل: الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ عائد علىٰ المان والمؤذي، وأنه شبه بشيئين:

أحدهما: بالذي ينفق ماله رئاء الناس.

والثاني: بصفوان عليه تراب. والمعنىٰ: لا يجد المانُّ والمؤذي ثواب صدقة؛ كما لا يوجد علىٰ الصفوان التراب بعد ما أصابه المطر الشديد. قال القاضي[1] عبد الجبار: ذكر تعالىٰ لكيفية إبطال الصدقة بالمن والأذىٰ مثلين:

فمثله أولاً: بمَنْ ينفق ماله رئاء الناس، وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأن إبطال نفقة هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة مَنْ يتبعها بالمن والأذى.

ثم مثله ثانياً: بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار، ثم إذا أصابه المطر القوي، فيزيل ذلك الغبار عنه حتىٰ يصير كأنه ما عليه تراب ولا غبار أصلاً.

قال: فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان.. فكذا المن والأذىٰ يجب أن يكونا مبطلين لأجر الإنفاق بعد حصوله، وذلك صريح القول في الإحباط والتكفير. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلىٰ الخير والرشاد، وفي هذه الآية: تعريض بأن كلاً من الرياء والمنّ والأذى علىٰ الإنفاق من خصائص الكفار، فلا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، أي: وصفة الذين يصرفون أموالهم في وجوه الخير طلب رضاء الله تعالىٰ ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: ويقيناً من قلوبهم بالثواب من الله تعالىٰ، وتصديقاً بوعده يعلمون أن ما أنفقوا خير لهم مما تركوا. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾؛ أي: كمثل بستان

---

(١) البحر المحيط.

في مكان مرتفع مستو، أصابه مطر شديد كثير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: فأعطت صاحبها ثمرها حال كونه مضاعفاً؛ مثل ما يثمر غيرها بسبب الوابل الكثير، فتحمل من الريع في سنة واحدة ما يحمل غيرها في سنتين. وقيل: أضعفت فحملت في السنة مرتين. وخص الربوة؛ لأن شجرها أحسن منظراً وأزكىٰ ثمراً إذا كان لها ما يرويها من الماء. وقرأ ابن عامر وعاصم: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراء، وباقي السبعة ﴿برُبوة﴾ بالضم، وكذلك خلافهم في: ﴿قد أفلح﴾. وقرأ ابن عباس شذوذاً بكسر الراء، وقرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن شذوذاً: ﴿برباوة﴾ علىٰ وزن كراهة، وأبو الأشهب العقيلي أيضاً: ﴿برباوة﴾ علىٰ وزن رسالة، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أُكْلَها﴾ بضم الهمزة وسكون الكاف تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أُكُلَها﴾ بتحريك الكاف بالضم. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾؛ أي: فطش يكفيها لجودة منبتها، ولطافة هوائها. والمعنى: إن لم يكن أصابها وابل، وأصابها طلٌّ.. فيكفيها. والطل: المطر الخفيف الضعيف المشدق القطر، والمراد: أن الطل ينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين. يقول سبحانه وتعالىٰ: كما أن هذه الجنة تثمر في كل حال، ولا يُخيب صاحبها، قلَّ المطر أم كثر.. كذلك يضعّف الله ثواب صدقة المؤمن قلَّتْ نفقتهُ أم كثُرَتْ ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عملاً ظاهراً، أو قلبياً ﴿بَصِيرٌ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء منه، يجازيكم عليه. يعني: أنه تعالى لا تخفىٰ عليه نفقة المخلص في صدقته الذي لا يمن بها ولا يؤذي، والذي يمن بصدقته ويؤذي. وهذا تحذير من الرياء، وترغيب في الإخلاص. وقرأ شذوذاً ﴿يعملون﴾ الزهري بالياء، فظاهره أن الضمير يعود علىٰ المنافقين، ويحتمل أن يكون عاماً؛ فلا يختص بالمنافقين، بل يعود علىٰ الناس أجمعين، وقرأ الجمهور ﴿تعملون﴾ بالتاء علىٰ الخطاب، وفيه التفات.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم﴾ الخ. فهو مَثَل آخر لنفقة المرائي والمانّ، والهمزة فيه للإنكار؛ أي: أيحب أحدكم أيها المراؤون في صدقاتكم. أي: لا يحب ذلك. والود: حب الشيء مع تمنيه ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؛ أي: بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خصصهما بالذكر؛ لأنهما

أشرف الفواكه وأحسنها، ولما فيهما من الغذاء والتفكه. ﴿تَجْرِي﴾ وتطرد ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والسواقي، فإن جري الأنهار فيها من تمام حسنها، وسبب لزيادة ثمرها ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الأحد ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة ﴿مِن كُلِّ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والفواكه؛ لأن ذلك من تمام كمال البستان وحسنه ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿أصابه﴾؛ أي: أصاب ذلك الأحد ﴿ٱلْكِبَرُ﴾، أي: كبر السن، فلا يقدر علىٰ الكسب ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿له ذرية ضعفاء﴾، وقرىء شذوذاً ضعاف، وكلاهما جمع ضعيف كظريف وظرفاء وظراف؛ أي: أولاد صغار لا يقدرون علىٰ الكسب بسبب الضعف والصغر. ﴿فَأَصَابَهَآ﴾؛ أي: أصاب تلك الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾؛ أي: ريح شديدة مرتفعة إلىٰ السماء، تستدير في الأرض كأنها عمود، لها صوت شديد ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك الأعصار ﴿نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنة بذلك الإعصار، ففقدها أحوج ما كان إليها عند كبر السن، وكثرة العيال، وطفولة الأولاد، فبقي هو وأولاده عجزة متحيرين، لا يقدرون علىٰ حيلة، كذلك يبطل الله عمل المرائي والمنافق؛ حيث لا توبة لهما، ولا إقالة من ذنوبهما.

والمقصود من هذا المثل: بيان أنه يحصل في قلب هذا الإنسان من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلا الله، فكذلك من أتى بالأعمال الحسنة، إلا أنه لا يقصد بها وجه الله، بل يقرن بها أموراً تخرجها عن كونها موجبة للثواب، فحين يقدم يوم القيامة، وهو حينئذٍ في غاية الحاجة ونهاية العجز عن الاكتساب.. عظمت حسرته، وتناهت حيرته. ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين الله تعالى لكم أمر النفقةِ المقبولة وغير المقبولة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: الدلائل في سائر أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لكي تتفكروا في أمثال القرآن، وتفهموها وتنزلوها علىٰ المعاني المرادة منها، وتتعظوا بها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿أَنفِقُواْ﴾؛ أي: زكوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: من جياد وخيار ما جمعتم من الذهب والفضة وعروض التجارة والمواشي. وقيل من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة. وفيه: دليل علىٰ إباحة الكسب وأنه ينقسم إلىٰ: طيب وخبيث. ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا

لَكُمْ﴾؛ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار والمعادن والركاز، فحذف المضاف، لدلالة ما قبله عليه. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾؛ أي: ولا تقصدوا الرديء من أموالكم للإنفاق منه. وقراءة الجمهور بفتح حرف المضارعة وتخفيف الياء، وقرأ البزّي عن ابن كثير بتشديد التاء لدى وصلها بما قبلها. وقرأ ابن مسعود شذوذاً: ﴿ولا تأمموا﴾، وهي لغة من أَمَمت؛ أي: قصدت. وقرأ أبو مسلم بن خباب شذوذاً أيضاً بضم الفوقية وكسر الميم، وحكىٰ أبو عمرو: أن ابن مسعود شذوذاً أيضاً قرأ ﴿تُيَمموا﴾ بهمزة بعد المضمومة.

وفي الآية[1]: الأمر بإنفاق الطيب، والنهي عن إنفاق الخبيث. وقد ذهب جماعة من السلف: إلىٰ أن الآية في الصدقة المفروضة، وذهب آخرون: إلىٰ أنها تعم صدقة الفرض والتطوع، وهو الظاهر. وتقديم الظرف في قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يفيد التخصيص؛ أي: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، والجملة في محل نصب حال؛ أي: لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاقَ به، قاصرين له عليه. ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تأخذونه في معاملتكم في وقت من الأوقات. وقيل معناه: ولستم بأخذيه لو وجد تمره يباع في السوق.

وقيل: إن قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ علىٰ تقدير[2] الاستفهام الإنكاري، و ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بالفعل بعده، والمعنى: أمن الخبيث تنفقون في الزكاة، والحال أنكم لستم قابلي الخبيث إذا كان لكم حق علىٰ صاحبكم. ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: إلا بأن تساهلوا في الخبيث، وتتركوا بعض حقكم، كذلك لا يقبل الله الرديء منكم. وفي هذا دلالة علىٰ أن الفقراء شركاء رب المال، والشريك لا يأخذ الرديء من الجيد إلا بالتساهل.

وقال البراء[3] وابن عباس والضحاك وغيرهم: معنى هذا الكلام: ولستم

(١) الشوكاني.
(٢) مراح.
(٣) البحر المحيط.

بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا بأن تُساهِلُوا في ذلك، وتتركوا من حقوقكم، وتكرهونه ولا ترضونه؛ أي: فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم.

وقرأ الجمهور: ﴿تُغْمِضُواْ﴾ من أغمض، وجعلوه مما حذف مفعوله؛ أي: تغمضوا أبصاركم أو بصائركم. وقرأ الزهري: ﴿تُغَمِّضُوا﴾ بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم المشددة ومعناها كمعنىٰ قراءة الجمهور. وروي عنه ﴿تَغْمِضوا﴾ بفتح التاء وسكون الغين وكسر الميم مضارع غمض، وهي لغة في أغمض. وروي عن اليزيدي: ﴿تَغمُضوا﴾ بفتح التاء وضم الميم، ومعناه: إلا أن يخفىٰ عليكم رأيكم فيه. وروي عن الحسن؛ ﴿تغمَّضوا﴾ مشددة الميم مفتوحة. وقرأ قتادة ﴿تُغْمَضوا﴾ بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففاً، ومعناه: إلا أن يغمض لكم، وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم وصدقاتكم، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود علىٰ كل حال، أو مستحق للحمد علىٰ نعمه العظام. وقيل: حامد بقبول الجيد، وبالإثابة عليه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: إبليس اللعين ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾؛ أي: يخوفكم بالفقر، ويخبركم بأسبابه عند الصدقة، ويقول لكم: أمسكوا أموالكم، فإنكم إذا تصدقتم.. صرتم فقراء، أو المعنىٰ: النفس الأمارة بالسوء توسوس لكم بالفقر. والوعد: يكون في الخير، وفي الشر كما هنا. يقال: وعدته خيراً، ووعدته شراً. والفقر: سوء الحال، وقلة ذات اليد. وأصله من كسر فقار الظهر. وقرىء شذوذاً: ﴿الفُقْر﴾ بالضم والسكون، و﴿الفُقُر﴾ بضمتين، وبفتحتين. وقراءة الجمهور: ﴿الفَقْر﴾ بالفتح والسكون. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: بالبخل ومنع الزكاة والصدقة؛ أي: يوسوس لكم بها، ويحسن لكم إياها، ويغريكم عليها إغراء الآمر للمأمور. والفحشاء: الخصلة الفحشاء، وهي المعاصي والإنفاق فيها، والبخل عن الإنفاق في الطاعات. ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾؛ أي: ستراً لذنوبكم مكافأة علىٰ بذل أموالكم. ﴿وَفَضْلًا﴾؛ أي: خلفاً في الدنيا أفضل مما

أنفقتم، أو وثواباً عليه في الآخرة. فالمغفرة: إشارة إلىٰ منافع الآخرة، والفضل: إشارة إلىٰ منافع الدنيا، وما يحصل من الرزق والخلف. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بالمغفرة للذنوب، وبإغنائكم وإخلاف ما تنفقونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم وصدقاتكم، لا تخفىٰ عليه خافية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً». متفق عليه. وعن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه قال: قال الله تعالىٰ: «أنفق ينفق عليك». وفي رواية: «يد الله ملأىٰ، لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار»، وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده ـ وفي رواية: فإنه لم يغض ما في يمينه ـ وكان عرشه علىٰ الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع. وفي رواية: وبيده الأخرىٰ الفيض والقبض، يرفع ويخفض» متفق عليه.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أنفقي، ولا تحصي فيحصىٰ عليك، ولا توعي فيوعىٰ عليك» متفق عليه.

قوله: «ولا توعي» أي: لا تشحي فيشح الله عليك؛ أي: فيجازيك بالتَّقْتِيْر في رزقك، ولا يخلف عليك، ولا يبارك لك. والمعنى: لا تجمعي وتمنعي، بل أنفقي ولا تعتدي ولا تشحي.

﴿يُؤْتِي﴾؛ أي: يعطي الله سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: العلم النافع المؤدي إلىٰ العمل الصالح ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويريد إيتاءَه من عباده. واختلفوا في تفسير الحكمة علىٰ أقوال كثيرة جداً، فقال السّدّيّ: هي النبوة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفهم بالقرآن ناسخِه ومنسوخه، مُحكمهِ ومتشابهه، عامِّه وخاصِّه، إلىٰ غير ذلك. وقال مجاهد: الإصابة في القول. وقال مالك: الحكمة: المعرفة بدين الله، والفقه فيه، والإتباع له، إلىٰ غير ذلك من الأقوال المتلاطمة. وقراءة الجمهور بالياء في الفِعْلين. وقرأ الربيع بن خيثم بالتاء في ﴿يُؤْتِي﴾، وفي ﴿يَشَآءُ﴾

علىٰ الخطاب، وفيه التفات؛ إذ فيه خروج من خطاب إلىٰ غيبة.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: إصابة القول والفعل والرأي. قرأ الجمهور: ﴿يُؤْتَ﴾ مبنيًّا للمفعول. وقرأ يعقوب: ﴿ومن يؤتِ﴾ بكسر التاء مبنيًّا للفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. وقرأ الأعمش شذوذاً: ﴿ومن يؤته الحكمة﴾ بإثبات الضمير الذي هو المفعول الأول، وفاعله ضمير عائد علىٰ الله تعالىٰ؛ أي: ومن يعطِ الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ أي؛ فقد أعطي خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: ما يتفكر في الحكمة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي؛ إلا أصحاب العقول السليمة من الركون إلىٰ متابعة الهوى، أو المعنى: وما يتعظ بما وعظه الله إلا ذوو العقول الكاملة، الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه، أو: العلماء العمال. والمراد به: الحث علىٰ العمل بما تضمنت الآيُ في معنىٰ الإنفاق.

الإعراب

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾.

﴿مَّثَلُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه، ولكن لا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين؛ ليصح الإخبار: إما في الأول تقديره: مثل نفقات الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة، أو في الثاني تقديره: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل باذر حبة. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: مثل نفقاتهم كائن كمثل حبة، والجملة مستأنفة. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾: فعل ومفعول به، ومضاف إليه مجرور بالفتح؛ لأنه علىٰ زنة مفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ حبة، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿حَبَّةٍ﴾؛ تقديره: كمثل حبة منبِّتة سبع سنابل.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر مقدم

﴿مِاْئَةُ حَبَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ ﴿سَنَابِلَ﴾؛ تقديره: موصوفة بكون مئة حبة في كل سنبلة منها؛ أي: من تلك السنابل، ويصح أن يكون مئة حبة فاعلاً للجار والمجرور قبله؛ لاعتماده على موصوف؛ لوقوعه صفة لسنابل، وهذا الوجه هو أولىٰ من الأول؛ لأن الأصل الوصف بالمفردات دون الجمل، ولكن لا بد من تقدير محذوف، أي: في كل سنبلة منها؛ أي: من السنابل، ويجوز أن تكون الجملة في محل النصب صفة لـ ﴿سَبْعَ﴾، كقولك: رأيت سبعة رجال أحرار وأحراراً. وقرىء شاذاً: ﴿مائة حبةً﴾ بالنصب، وقُدِّر بـ: أخرجت، وقدَّره ابن عطية بـ: أنبتت، والضمير عائد علىٰ الحبة.

﴿وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾: الواو استئنافية. ﴿الله﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُضَٰعِفُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُضَٰعِفُ﴾. ﴿يَشَآءُۗ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول المحذوف؛ تقديره: لمن يشاء. ﴿وَاللَّهُ﴾ الواو عاطفة. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ[1]، نظراً للغالب من أن وقوع المن والأذى يكون بعد الإنفاق بمدة. وقيل المراد: التراخي في الرتبة، وأن رتبة عدمهما أعظم في الأجر من رتبة الإنفاق. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُتْبِعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة

---

(١) الجمل.

علىٰ جملة الصلة ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾: ﴿مَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول أول. ﴿أَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَآ﴾، أو صفة، والعائد أو الرابط محذوف؛ تقديره: ما أنفقوه. ﴿مَنًّا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يُتْبِعُونَ﴾. ﴿وَلَآ أَذًى﴾: معطوف عليه، عطف عام علىٰ خاص، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، وجملة المبتدأ الأول وخبره مستأنفة، وإنما لم تدخل الفاء هنا في خبر الموصول؛ لعدم تضمنُّه معنىٰ الشرط والتعليق؛ لأن هذه الجملة مفسِّرة لما قبلها، فهي كالشيء الثابت المفروغ منه، فلا تحتاج إلىٰ تضمين تعليق. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير المستكن في الخبر، أعني قوله: ﴿لَّهُمْ﴾ تقديره: لهم أجرهم حالَ كونه مدخراً لهم عند ربهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسم ليس. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾: معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خبر المبتدأ الأول، وكذا جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة عليها علىٰ كونها خبراً.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

﴿قَوْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفهُ بما بعده، والعطف عليها. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: معطوف عليه، وسوغ الابتداء بها العطف، أو الصفة المقدرة؛ إذ التقدير: ومغفرة من السائل، أو من الله ﴿خَيْرٌ﴾ خبر عنهما، والجملة مستأنفة. ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾: متعلق بخبر. ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر صفة صدقة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿غَنِىٌّ﴾: خبر أول. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: يا: حرف نداء. أيُّ: منادى نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه

زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب أو الرفع صفة لأي. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تُبْطِلُواْ﴾؛ ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تُبْطِلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿صَدَقَٰتِكُم﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِٱلْمَنِّ﴾: متعلق بـ﴿تُبْطِلُواْ﴾. ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾: معطوف علىٰ المن. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر مع تقدير مضاف تقديره: لا تبطلوا إبطالاً كإبطال نفقات الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾: فعل، ومفعول به، ومضاف إليه، والفاعل ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلته ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله، ومضاف إليه. ﴿وَلَا يُؤْمِنُ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله: ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُنفِقُ﴾ علىٰ كونها صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة ﴿ٱلْأَخِرِ﴾: صفة لليوم.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ الفاء رابطة لما بعدها بما قبلها جوازاً ﴿مثله﴾: مبتدأ، ومضاف إليه، والضمير عائد علىٰ المرائي. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: صفته كائنة كصفة صفوان، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْهِ﴾: خبر مقدَّم. ﴿تُرَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجر صفة لصفوان. ولك[1] أن ترفع تراباً بالجار؛ لأنه قد اعتمد علىٰ ما قبله، ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾ الفاء عاطفة علىٰ الجار؛ لأن تقديره: استقر عليه تراب، فأصابه وابل، وهذا أحد ما يقوي شَبَه الظرف بالفعل، ذكره أبو البقاء. ﴿أصابه وابل﴾، فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾ الفاء عاطفة ﴿تركه صلداً﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ

(١) العكبري.

﴿وَابِلٌ﴾، ويحتمل كون ترك من أخوات صار الناقصة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَقْدِرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه[1] قيل: فماذا يكون مآلهم حينئذٍ؟ فقيل: لا يقدرون، والضمير في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ عائد على الموصول في قوله: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾. ومن[2] ضرورة كون مثلهم كما ذكر، كون مثل من يُشْبِهُهم، وهم أصحاب المن والأذىٰ كذلك. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَقْدِرُونَ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لشيء؛ تقديره: شيء كائن مما كسبوا ﴿كَسَبُوا۟ۗ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبوه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿لَا يَهْدِى﴾: ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة للقوم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ﴾ الواو استئنافية. ﴿مثل﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه، ولكن علىٰ تقدير مضاف تقديره: ومثل نفقات الذين ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَمْوَٰلَهُمُ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف. ﴿مَرْضَاتِ﴾: مضاف إليه، مرضات: مضاف، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: معطوف علىٰ ابتغاء. ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تثبيتاً﴾: أي: لأجل الابتغاء والتثبيت، ويصح أن يكونا حالين؛ أي: مبتغين ومثبتين ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره:

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل.

ومثل نفقات الذين ينفقون كائن كمثل جنة، والجملة مستأنفة. ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: جار ومجرور صفة أولىٰ لـ﴿جَنَّةٍ﴾ تقديره: كائنة بربوة. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر صفة ثانية لجنة، ويجوز[1] أن تكون الجملة في موضع نصب علىٰ الحال من الجنة؛ لأنها قد وصفت، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير في الجار، وقد مقدرة مع الفعل، ويجوز أن تكون الجملة صفة لربوة؛ لأن الجنة بعض الربوة. ﴿فَئَاتَتْ﴾: الفاء عاطفة، ﴿آتىٰ﴾: فعل ماضٍ، والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود علىٰ الجنة، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿أَصَابَهَا﴾، وأتىٰ يتعدى إلىٰ مفعولين، أولهما محذوف تقديره: صاحبها ﴿أُكُلَهَا﴾: مفعول ثانٍ، ومضاف إليه. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: حال من ﴿أُكُلَهَا﴾؛ أي: حال كونه مضاعفاً. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالها فيما إذا أصابها وابل، وأردت بيان حالها فيما إذا لم يصبها وابل.. فأقول لك ﴿إن لم يصبها﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونها فعل شرط لها. ﴿فَطَلٌّ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿طلّ﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: فطل يكفيها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، إما صلة لها، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه. ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

(١) العكبري.

﴿أَيَوَدُّ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿يود أحدكم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿تَكُونَ﴾. ﴿جَنَّةٍ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية؛ تقديره: أيود أحدكم كون جنة له. ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿جَنَّةٌ﴾. ﴿وَأَعْنَابٍ﴾: معطوف على ﴿نَّخِيلٍ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٌ﴾، ولكنها سببية. ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف تقديره: رزقٌ كائن من كل الثمرات، كائن له حالة كونه في تلك الجنة، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع صفة ثالثة لـ ﴿جَنَّةٌ﴾.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾.

﴿وَأَصَابَهُ﴾: الواو حالية. ﴿أصابه الكبر﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة حال من ﴿أَحَدُكُمْ﴾ وقد مقدرة فيها. ﴿وَلَهُۥ﴾: الواو حالية. ﴿له﴾: خبر مقدم ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿ضُعَفَآءُ﴾: صفة لـ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿أصابه﴾.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

﴿فَأَصَابَهَآ﴾: الفاء عاطفة ﴿أصابها إعصار﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على صفة الجنة، قاله أبو البقاء؛ يعني على قوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ وما بعده. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع صفة الإعصار. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾: الفاء عاطفة ﴿احترقت﴾: فعل ماضٍ، وتاء تأنيث، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَنَّةٌ﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ على كونها صفة لـ ﴿جَنَّةٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: تبييناً كائناً كتبيين هذا المثل المذكور. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة.. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: مفعول به. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل، والكاف: اسمها. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾ تقديره: لعلكم متفكرون، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب، أو الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَنفِقُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَنفِقُواْ﴾. ﴿كَسَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كسبتموه. ﴿وَمِمَّآ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: ومن طيبات ما أخرجنا لكم. ﴿أَخْرَجْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أخرجناه. ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ ﴿أَخْرَجْنَا﴾. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق أيضاً بـ ﴿أَخْرَجْنَا﴾.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَيَمَّمُواْ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿أَنفِقُواْ﴾. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُونَ﴾، وجملة ﴿تُنفِقُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، وهي حال مقدرة؛ لأن الإنفاق منه يقع بعد القصد إليه،

ويجوز أن يكون حالاً من الخبيث؛ لأن في الكلام ضميراً يعود إليه، أي: منفقاً منه.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾.

﴿وَلَسْتُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لستم﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿بِـَٔاخِذِيهِ﴾: الباء زائدة في خبر ليس ﴿آخذيه﴾: خبر ﴿ليس﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿ليس﴾ مستأنفة. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تُغْمِضُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُغْمِضُواْ﴾، وجملة ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بباء محذوفة تقديره: إلا بإغماضكم فيه، والباء المحذوفة متعلقة بـ﴿آخذيه﴾، ومفعول الإغماض محذوف تقديره: أبصاركم؛ أي: بإغماضكم فيه أبصاركم. وجوز أبو البقاء أنْ تكون ﴿أَن﴾ وما في حيزها في محل نصب علىٰ الحال، والعامل فيها ﴿آخذيه﴾، والمعنى: لستم بآخذيه في حال من الأحوال إلا في حال الإغماض.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾: الواو استئنافية. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿غَنِيٌّ﴾: خبر أول لها. ﴿حَمِيدٌ﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: واعلموا كون الله غنياً حميداً.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة: ﴿يأمركم﴾ معطوفة علىٰ جملة: ﴿يَعِدُكُمُ﴾ ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: متعلق بـ ﴿يأمركم﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير

يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿مَّغْفِرَةً﴾. ﴿وَفَضْلًا﴾: معطوف علىٰ مغفرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة أو معطوفة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

﴿يُؤْتِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة، وأتىٰ هنا بمعنىٰ: أعطىٰ، يتعدى إلىٰ مفعولين. ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول أول له ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ له. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إيتاءه ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُؤْتَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصِّيغةِ مجزوم، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾ وهو المفعول الأول. ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بقَدْ. ﴿أُوتِىَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ علىٰ كونه جواباً لها، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾ وهو المفعول الأول ﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثانٍ. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية، إما معطوفة علىٰ جملة ﴿يُؤْتِى﴾، أو مستأنفة. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾: والسنابل: جمع سنبلة علىٰ وزن فُنْعلة، والنون فيه زائدة، والسنبلة معروفة، يدلك علىٰ ذلك قولهم: أسبل الزرعُ إذا أخرج سبله، والسبَلُ مثل السنابل واحدتها سَبَلة، مثل قَصَب وقصَبَة، ويقال: سَنْبل الزرع إذا أخرج

سنبله، وقال[1] بعض أصحابنا: النون أصلية، ووزنه فعلل؛ لأن فنعل لم يثبت، فيكون مع أسبل كسبط وسبطر.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾: والأصل في مئة: مئية. يقول: مئيت القوم، إذا كملتهم مئة، ثم حذفت اللام تخفيفاً؛ كما حذفت لام يدٌ و دمٌ.

﴿وَلَآ أَذٗىۙ﴾: ولام[2] الأذىٰ ياء، يقال: أذىٰ يأذي أذىً مثل نصب ينصِب نصباً. ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: والهمزة الأولىٰ في ﴿رِئَآءَ﴾: عين الكلمة؛ لأنه من رئىٰ، والأخيرة بدل من الياء؛ لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة كالقضاء والدماء، ويجوز تخفيف الهمزة الأولىٰ؛ بأن تقلب ياءً فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة. وقد قرىء به كما مَرَّ، والمصدر هنا مضاف إلىٰ المفعول، وفي «الجمل»: ورئاء[3]: مصدر كقائل قتالاً، والأصل ريايا، فالهمزة الأولى بدل من ياءٍ هي عين الكلمة، والثانية بدلٌ من ياءٍ هي لام الكلمة؛ لأنها وقعت طرفاً بعد ألف زائدة والمفاعلة في ﴿رِئَآءَ﴾ علىٰ بابها؛ لأن المرائي يُري الناس أعماله حتى يروه الثناءَ عليه والتعظيم له.

﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾: الصفوان: الحجر الكبير الأملس كما سبق، وهو جمع صفوانه، والأفصح أن يقال: جنس لا جمع، ولذلك عاد الضمير عليه بلفظ الإفراد في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ وقيل: هو مفرد، وقيل: جمع واحدهُ صفا، ولكن جمعُ فَعَلٍ على فَعْلَان قليلٌ، وحُكي: صِفوان ـ بكسر الصاد ـ وهو أكثر في الجموع. ويقرأ بفتح الفاء، وهو شاذ؛ لأن فعلاناً شاذ في الأسماء، وإنما يجيء في المصادر؛ كالغليان كما مر.

﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾: التراب معروف، ويقال: فيه توراب. وتَرِب الرجل: افتقر. وأترب: استغنىٰ، الهمزة فيه للسلب؛ أي: زال عنه التراب وهو الفقر، وإذا زال

---

(١) البحر المحيط.

(٢) عكبري.

(٣) جمل.

عنه كان غنياً.

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾: وألف ﴿أصابه﴾ بَدَلٌ من واو؛ لأنه من: صاب يصوب كقال يقول. وفي «المصباح»: وبلت السماء وبلاً من باب: وعد وبولاً: اشتد مطرها، وكان الأصل: وبل مطر السماء، فحذف للعلم به، ولهذا يقال للمطر: وابل.

فائدة: المطر أوله رشٌّ، ثم طشٌّ، ثم طلٌّ، ثم نضح، ثم هطل، ثم وبل.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ وفي «المختار»: حجر صلد؛ أي: صُلْبٌ أملس، وصلد الزند ـ من باب: جلس ـ إذا صوَّت، ولم يخرج ناراً، وأصلد الرجل: صلد زنده، ويقال أيضاً: صلِد بكسر اللام يصلَد بفتحها.

﴿طل﴾: الطل: المستدق من القطر الخفيف، وفي «الصحاح»: الطل أضعف المطر، والجمع: طلال، يقال: طلت الأرض، وهي مطلول.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ونخيل فيها قولان:

أحدهما: أنه اسم جمع واحدهُ نخلة.

والثاني: أنه جمع نخل الذي هو اسم جنس، والأعناب جمع عنبٍ الذي هو اسم جنس واحدهُ عنبة، والعنب تمر الكرم، وقال الراغب: سمي النخل؛ لأنه منخول الأشجار وصفوها، وذلك أنه أكرم ما ينبت؛ لكونه مشبهاً للحيوان في احتياج الأنثىٰ للذكر، وأنه إذا قطع رأسه لم يثمر. ﴿يَعِدُكُمُ﴾ أصله: يوعدكم، فحذفت الواو؛ لوقوعها بين عدوتيها الياء والكسرة ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصله: يتذكر فأبدلت التاء ذالاً؛ لتقرب منها فتدغم.

البلاغة

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: فيه مجاز بالحذف؛ لأنه لا بدَّ من تقدير مضاف في أحد الجانبين؛ أي: مثل نفقاتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾: شبّه سبحانه وتعالىٰ النفقة التي تنفق في سبيله بحبة أنبتت سبع سنابل، فأصبحت سبع مئة حبة، ففيه تشبيه مرسل مجمل؛ لذكر أداة التشبيه،

وحذف وجه الشبه. وهذا[1] التمثيل تصوير للأَضْعافِ كأنها ماثلة بين عين الناظر. قالوا: والممثل به موجود، شوهد ذلك في سنبلة الجاروس والذرة والدخن. قيل: واختص هذا العدد؛ لأن السبْع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المئة، وسبع مئة أكثر أعداد الألف، والعرب كثيراً ما تراعي هذه الأعداد.

﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾: وإسناد الإنبات إلىٰ الحبة إسناد مجازي، ويسمىٰ: المجاز العقلي؛ لأن المنبِت في الحقيقة هو الله تعالىٰ، وإنما نسب الإنبات إليها؛ لأنها كانت سبباً له كما يُنسب ذلك إلىٰ الأرض والماء. ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾: من باب ذِكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول؛ لأن الأذىٰ يشمل المن، وفي توسيط كلمة ﴿لا﴾ دلالة علىٰ شمول النفي.

﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ...﴾ الآية. وفي تكرير الإسناد، وتقييد الأجر بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من التأكيد والتشريف ما لا يخفىٰ، وفي إخلاء الخبر من الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها إيذانٌ بأن ترتب الأجر علىٰ ما ذكر من الإنفاق، وترك اتباع المن والأذىٰ أمرٌ بَيِّنٌ، لا يحتاج إلىٰ التصريح بالسببية.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾: وهذه الجملة تذييل[2] لما قبلها، مشتملة علىٰ الوعد والوعيد، مقرِّرةٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلىٰ السائل قطعاً.

﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾ فيه تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدّد، وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: وهذه الجملة تذييل[3] مقرِّر لمضمون ما قبلها، وفيها تعريض بأنَّ كلاً من الرياء، والمن والأذى علىٰ الإنفاق من خصائص

---

(١) البحر المحيط.

(٢) جمل.

(٣) جمل.

الكفار، فلا بدَّ للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ...﴾ الآية. لم يذكر المشبه، ولا أداة التشبيه، وهذا النوع يسميه البيانيون استعارة تمثيلية، وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبَّه به فقط، وقامت قرائن تدل علىٰ إرادة التشبيه. والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمعنىٰ علىٰ النفي والتبعيد؛ أي: ما يود أحد ذلك.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾: هذا مؤكِّد للأمر؛ إذ هو مفهوم من قوله: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وفي هذا طباقٌ بذكر الطيبات، والخبيث.

﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ في الكلام مجاز مرسل واستعارة؛ إذ الإغماض في اللغة: غمض البصر، وإطباق الجفن. والمراد هنا: التجاوز والمساهلة؛ لأن الإنسان إذا رأىٰ ما يكره.. أغمض عينيه؛ لئلا يرىٰ ذلك.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها؛ لكونها في جملة أخرىٰ، وللاعتناء بها، والتنبيه علىٰ شرفها وفضلها وخصالها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها ظاهرةٌ؛ لما فيها من بيان أمر كلي شامل لجميع أفراد النفقات، وما في حكمها من النذور، بعد ما بيّن ما كان منها في سبيل الله تعالىٰ. ولا تزال الآيات تتحدَّث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها: الجهاد في سبيل الله، والإنفاق لإعلاء كلمة الله، وتُرغِّب في إخفاء الصدقات؛ لأنها أبعد عن الرياء.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما ذكر تعالىٰ قوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الآية. اقتضى أنه ليس أحد آتاه الله الحكمة، فانقسم الناس من مفهوم هذا قسمين: من أتاه الله الحكمة فهو يعمل بها، ومن لم يؤته إياها فهو يخبط عشواء في الضلال، فنبه بهذه الآية أن هذا القسم ليس عليك هداهم، بل الهداية، وإيتاء الحكمة. إنما ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ليتسلىٰ بذلك في كون هذا القسم لم يحصل له السعادة الأبدية، ولينبه علىٰ أنهم وإنْ لم يكونوا مهتدين تجوز الصدقة عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا ...﴾ الآية، قال[1] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا الحسين بن زياد المحاربي: أخبرنا موسىٰ بن عمير عن عامر الشعبي في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا ...﴾ الآية، قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما أمّا عمر فجاء بنصف ماله حتىٰ دفعه إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ما خلفت وراءك يا عمر؟ قال: خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر: فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتىٰ دفعه إلى النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: عدة الله وعدة رسوله، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلىٰ باب خير قط إلا كنت سابقاً.

قال ابن كثير: وإنما أوردنا هذا الحديث هٰهنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك.

قوله تعالىٰ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾ روىٰ[2] النسائي والحاكم والبزار والطبراني وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا عن ذلك، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا علىٰ أهل الإسلام حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ...﴾ إلىٰ آخرها، فأمر بالصدقة بعدها علىٰ كل من سألك من كل أهل دين.

---

(١) ابن كثير.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً. . .﴾ قال[1] ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية.

وفي رواية عنه قال: لمّا نزل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بدنانير كثيرة إلىٰ أهل الصفة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الليل بوَسَق من تمر، فأنزل الله فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني بنفقة الليل نفقة علي، وبالنهار نفقة عبد الرحمن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ أي: أديتم وبذلتم أيها المؤمنون ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾؛ أي: نفقة كانت في حق أو باطل، سراً أو علانية، قليلة كانت أو كثيرة. ﴿أَوْ﴾ ما ﴿نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ أي: نذر كان في طاعة أو معصية، بشرط أو بغير شرط، متعلقاً بالمال أو بالأفعال؛ كالصيام والحج فوفيتم به. والنذر: أن يوجب الإنسان علىٰ نفسه شيئاً ليس بواجب بأصل شرعي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾؛ أي: يعلم ما أنفقتم أو نذرتم، فيجازيكم عليه، وإنما قال[2]: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ ولم يقل: يعلمهما؛ لأنه ردَّ الضمير علىٰ الآخر منهما، فهو كقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾. وقيل: إن الضمير عائد علىٰ ما في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾؛ لأنها اسم، فهو كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ ولم يقل: بهما. وقيل: إنما أفرد الضمير؛ لكون العطف بأو، وإذا كان العطف بأو.. كان الضمير مفرداً؛ لأن المحكوم عليه هو أحدهما. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي للواضعين للنفقات أو النذور في غير موضعها بالإنفاق، والنذر

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

في المعاصي أو بمنع الزكاة، وعدم الوفاء بالنذور، أو بالإنفاق بالخبيث، أو بالرياء والمن والأذى ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ أي: من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالىٰ، ففيه وعيد شديد لكل ظالم.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من نذر أن يطيع الله.. فليطعه، ومن نذر أن يعصِ الله . فلا يعصه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «من نذر نذراً لم يسمه.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه.. فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً فأطاقه.. فليَفِ به». أخرجه أبو داود.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لا نذر في معصية، ولا فيما لا يملك ابن آدم». أخرجه النسائي.

﴿إِن تُبْدُوا﴾؛ أي: إن تظهروا أيها المؤمنون إعطاء ﴿الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾؛ أي: فنعم شيئاً إبداؤها وإظهارها، ولم يكن رياء ولا سمعة. وقيل[1]: فنعمت الخصلة هي. وقيل: فنعم الشيء هي. والصدقات: جمع صدقة، والصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله علىٰ وجه القربىٰ، فيدخل فيه الزكاة الواجبة، وصدقة التطوع. وقرأ ابن عامر[2] وحمزة والكسائي وخلف هنا، وفي النساء: ﴿فنَعِمَّا﴾ بفتح النون وكسر العين، وهذه القراءة علىٰ الأصل؛ لأن الأصل في نَعِمَ أن يكون علىٰ وزن: فَعِل كعلم. وقرأ ابن كثير وورش وحفص ﴿فَنِعِمّا﴾ بكسر النون والعين، وإنما كسرت النون إتباعاً لكسرة العين، وهي لغة هذيل. قيل: وتحتمل قراءة كسر العين علىٰ أن يكون أصل العين السكون، فلما وقعت ﴿ما﴾ بعدها، وأدغمت ميم ﴿نعم﴾ فيها.. كُسرت العين لالتقاء الساكنين. اهـ «سمين». وقال الشوكاني: وقرئ بفتح النون وكسر العين،

---

(١) الخازن.
(٢) الجمل.

وبكسرهما، وبكسر النون وسكون العين، وبكسر النون وإخفاء حركة العين. وقد حكىٰ النحويون في: نِعْمَ أربع لغات، وهي هذه التي قرىء بها في المتواتر. انتهىٰ.

﴿وَإِن تُخۡفُوهَا﴾؛ وإن تسروا الصدقات ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾؛ أي؛ وتعطوها الفقراء في السر ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾؛ أي: أفضل من إبدائها وإيتائها الأغنياء؛ أي: وإن[1] تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء، فالإخفاء خير لكم. وقد ذهب جمهور المفسرين: إلىٰ أن هذه الآية في صدقة التطوع، لا في صدقة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها، بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، وقالت طائفة: إن الإخفاء أفضل في الفرض والتطوع.

وعبارة «الخازن» هنا يعني: أن إخفاء الصدقة أفضل من العلانية، وكلٌّ مقبول إذا كانت النية صادقة، واختلفوا في المراد بالصدقة المذكورة في الآية فقال الأكثرون: المراد بها: صدقة التطوع. واتفق العلماء علىٰ أن كتمان صدقة التطوع أفضل، وإخفاءها خير من إظهارها؛ لأن ذلك أبعد من الرياء، وأقرب إلىٰ الإخلاص؛ ولأن فيه بعداً عما تؤثره النفس من إظهار الصدقة، وفي صدقة السر أيضاً فائدة ترجع إلىٰ الفقير الآخذ، وهي أنه إذا أُعطي في السر.. زال عنه الذل والانكسار، وإذا أُعطي في العلانية.. يحصل له الذل والانكسار. انتهت.

ويدل علىٰ أن صدقة السر أفضل، ما روىٰ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله تعالىٰ...» الحديث، وفي آخره: «ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ووجه جواز إظهار الصدقة[2] يكون ممن قد أمن علىٰ نفسه من مداخلة الرياء في عمله، أو يكون ممن يُقتدىٰ به في أفعاله، فإذا أظهر الصدقة تابَعه غيره

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

علىٰ ذلك، وأما الزكاة: فإظهار إخراجها أفضل من كتمانها؛ كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، وصلاة التطوع في البيت أفضل، ولكن في إظهار الزكاة نفي التهمة عن المزكي. وقيل: إن الآية واردة في زكاة الفرض وكان إخفاؤها خيراً علىٰ عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أنه يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا: فإظهار الزكاة أفضل حتىٰ لا يساء الظن به. ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ الله، أو يكفِّر الإخفاءُ ﴿عَنكُم﴾ أيها المؤمنون، ويستر شيئاً ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وذنوبكم يعني: من الصغائر؛ لأن الكبائر لا تكفر إلا بالتوبة، أو بمحض فضل الله تعالىٰ.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة ويعقوب وعاصم في رواية أبي بكر[1]: ﴿نكفر﴾ بالنون ورفع الراء. وقرأ نافع وحمزة والكسائي والأعمش وأبو جعفر وخلف: ﴿ونكفرْ﴾: بالنون والجزم؛ أي: ونكفرْ عنكم شيئاً من ذنوبكم بقدر صدقاتكم. وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿ويكفرُ﴾ بالياء والرفع، والمعنىٰ: يكفر الله، أو يكفر الإخفاء. وقرىء قراءة شاذة: بالتاء الفوقية، وبالرفع والجزم، والفاعل راجع للصدقات. وقرأ ابن عباس شذوذاً ﴿تُكفَر﴾: بالتاء الفوقية وفتح الفاء والجزم. وقرأ الحسين بن علي الجعفي شذوذاً أيضاً ﴿نكفَر﴾: بالنون ونصب الراء.

وقال أبو حيان[2]: قرأ الجمهور بالواو في: ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ وقرأ غيرهم بإسقاطها، وبالياء، والتاء، والنون، وبكسر الفاء، وفتحها، وبرفع الراء، وجزمها، ونصبها. فإسقاط الواو رواه أبو حاتم عن الأعمش شذوذاً، ونقل عنه أنه قرأ بالياء، وجَزمَ الراء وهو شاذ أيضاً. ووجهه: أنه بدل علىٰ الموضع من قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأنه في موضع جزم، وكأن المعنىٰ يكن لكم اخفاء خيراً من الإبداء، أو علىٰ إضمار حرف العطف؛ أي: ويكفر. انتهى. ومن قرأ بالنصب.. فعلىٰ تقدير: أن. قال سيبويه: والرفع ههنا هو الوجه الجيد. ﴿وَاللَّهُ﴾

(١) الشوكاني ومراح.
(٢) البحر المحيط.

سبحانه وتعالىٰ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إظهار الصدقات وإخفائها ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم لا يخفىٰ عليه شيء منه، ففيه ترغيب في الإسرار.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿هُدَاهُمْ﴾؛ أي: هدىٰ من خالفك حتىٰ تمنعهم الصدقة؛ لأجل أن يدخلوا في الإسلام، فتصدق عليهم لوجه الله تعالىٰ، ولا توقف ذلك علىٰ إسلامهم، فلا يجب عليك أن تجعلهم مهتدين، وإنما عليك البلاغ والإرشاد والحث علىٰ المحاسن، والنهي عن القبائح، كالمن والأذىٰ وإنفاق الخبيث. فأعلمه الله تعالىٰ أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين: فليس ذلك عليك. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: ولكن الله تعالىٰ يوفق من يشاء هدايته، فيهديه إلىٰ الدخول في الإسلام.

وأراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، وأما هداية البيان والإرشاد والدعوة: فكانت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. فلما نزلت هذه الآية.. أعطوهم وتصدقوا عليهم. ﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ تصرفونه في وجوه الخير كالفقراء وغيرهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: فثوابه لأنفسكم، لا ينتفع به في الآخرة غيرها، وحينئذٍ فلا تمنوا عليه إن أعطيتموه، ولا تؤذوه بالتطاول عليه، ولا تنفقوا من الخبيث، أو المعنىٰ: وكل نفقة تنفقونها من نفقات الخير، ولو علىٰ كافر فإنما هو يحصل لأنفسكم ثوابه، فلا يضركم كفرهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ تعالىٰ؛ أي: والحال أنكم لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله تعالىٰ، وطلب رضوانه، أو المعنىٰ: ولستم في صدقتكم علىٰ أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله تعالىٰ، فقد علم الله هذا من قلوبكم، فأنفقوا عليهم إذا كنتم تبتغون بذلك وجه الله في صلة رحم، وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتىٰ يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم. ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال علىٰ الفقراء ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يوفر ويعط لكم ثواب ذلك في الآخرة، والضمير في ﴿يُوَفَّ﴾ عائد علىٰ ﴿ما﴾. ومعنى تَوفيَتِه: إجزال ثوابه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً،

وفي هذا وفيما قبله[1]: قطع عذرهم في عدم الإنفاق؛ إذ الذي ينفقونه هو لهم، حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملاً موفراً، فينبغي أن يكون إنفاقهم علىٰ أحسن الوجوه وأفضلها، وقد جاء قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ وقوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في حديث أبي هريرة: «إذا تصدَّق العبد بالصدقة وقعت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فُلوَّه أو فَصِيلَهُ حتىٰ إن اللقمة لتصير مثل أُحد». وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ذلك الإنفاق المحثوث عليه مصروف للفقراء الذين حبسوا أنفسهم ووقفوها علىٰ الجهاد في سبيل الله، أو للفقراء الذين صفتهم كذا وكذا حق واجب.

نزلت هذه الآية في حق فقراء المهاجرين من قريش[2]، وكانوا نحو أربع مئة، وهم أصحاب الصفة، لم يكن لهم مساكن ولا عشائر بالمدينة، وكانوا ملازمين المسجد، ويتعلمون القرآن، ويصومون، ويخرجون في كل غزوة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾؛ أي: لا يقدرون سيراً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا سفراً فيها لطلب المعاش، ولا يتفرغون لطلبها، ثم عدم الاستطاعة للسير إما لاشتغالهم بصلاح الدين وبأمر الجهاد، فذلك يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة، وإما لخوفهم من الأعداء، كما قاله قتادة وابن زيد؛ لأن الكفار كانوا مجتمعين حول المدينة وكانوا متىٰ وجدوهم قتلوهم، فذلك يمنعهم من السفر، وإمَّا لمَرضهم بالجروح، كما قاله سعيد بن المسيب رضي الله عنه، فحث الله تعالىٰ الناس علىٰ الإنفاق عليهم، فكان مَن عنده فَضْل أتاهم به إذا أمسىٰ.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم؛ أي: يظنهم من لم يختبر أمرهم ﴿أَغْنِيَآءَ﴾ غير محتاجين ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾؛ أي: لأجل تحفظهم عن مسألة الناس وتركها، وإظهارهم التجمل. قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿يحسَبهم﴾ ـ بفتح السين من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

حَسِبَ حيث وَقع وهو القياس؛ لأن ماضيه علىٰ فَعِل بكسر العين. وقرأ باقي السبعة ﴿يحسِبهم﴾ بكسرها، وهو مسموع ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أيها المخاطب ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلامتهم. والسيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يُعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هنا، فقيل: هي الخضوع والتواضع وآثار الخشوع في الصلاة، وقيل: هي أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضر؛ أي: تعرفهم أيها المخاطب بعلامتهم من الهيبة، ووقع في قلوب الخلق، وآثار الخشوع في الصلاة، فكل من رآهم تواضع لهم. ورُوي أنهم كانوا يقومون الليل ويحتطبون بالنهار للتعفف. ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أموالهم أصلاً، ولا يلحفونهم ﴿إِلْحَافًا﴾؛ أي: ولا يلازمونهم ملازمة لطلب المال. والإلحاف[1] وكذا الألحاح هو: أن يُلازِم المسؤولَ حتىٰ يعطيهُ. من قولهم: لحفني من فضل لحافه؛ أي: أعطاني من فضل ما عنده. والمعنى: أنهم لا يسألون وإن سألوا للضرورة لم يلحفوا. وقيل: هو نفي للأمرين: السؤال والإلحاف؛ أي: لا يسألون إلحافاً، ولا غير إلحاف؛ أي: لا سؤال لهم أصلاً، فلا يقع منهم إلحاف؛ أي: كثرة التلطف وملازمة المسؤول؛ أي: أنهم سكتوا عن السؤال، ولا يضمون إلىٰ ذلك السكوت من رثاثة الحال وإظهار الانكسار ما يقوم مقام السؤال علىٰ سبيل الإلحاف، بل يزينون أنفسهم عند الناس، ويتجملون بهذا الخلق، ويجعلون فقرهم وحاجتهم بحيث لا يطلع عليه إلا الخالق. وفي قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ دلالة علىٰ سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله يحب العفيف المتعفف، ويبغض الفاحش البذيء السَّآل الملحف الذي إن أعطي كثيراً أفرط في المدح وإن أعطي قليلاً أفرط في الذم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم

---

(١) البيضاوي.

قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس» متفق عليه. وعنه رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ليس المسكين الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىٰ يغنيه عن الناس، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس». متفق عليه.

وعن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب علىٰ ظهره، فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه، أم منعوه». رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خُموش ـ أو خدوش أو كدوح ـ قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، فيجازيكم عليه أحسن جزاء؛ يعني: أن الله تعالىٰ يعلم مقادير الإنفاق، ويجازي عليها، ففيه حث علىٰ الصدقة والإنفاق في الطاعة، خصوصاً علىٰ هؤلاء الفقراء.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم﴾ في الصدقات ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حالان؛ أي: مسرين ومعلنين؛ أي[1]: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر، ويعممون جميع الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم علىٰ الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج.. عجّلوا قضاءها ولم يؤخروه، ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وهذا شروع في بيان صفة الصدقة ووقتها، فصفتها: السر والعلانية، ووقتها:

---

(١) النسفي.

الليل والنهار. وعبارة الكرخي[1]: أي يعممون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة.

ولعل تقديم الليل علىٰ النهار، والسر علىٰ العلانية؛ للإيذان بمزية الإخفاء علىٰ الإظهار. قيل: نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة آلاف بالليل، وعشرة آلاف بالنهار، وعشرة آلاف بالسر، و عشرة آلاف بالعلانية. وقيل: غير ذلك كما سبق. وكون ما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضي خصوص الحكم به، بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فالآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات، ويعمون بها أصحاب الحاجات والفاقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً بوعده.. كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة». يعني: حسنات. أخرجه البخاري.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر للموصول، وأتى بالفاء للدلالة علىٰ سببية ما قبلها لما بعدها، أو لتضمن الموصول معنىٰ اسم الشرط لعمومه؛ أي: فلهم جزاء أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم في الدنيا.

الإعراب

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾ ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: متعلق بـ﴿أَنفَقْتُم﴾، أو متعلق بمحذوف حال من

---

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿ما﴾ تقديره: حال كونه كائناً من نفقة، وكذا يقال، في قوله: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع ﴿نَذَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم معطوف علىٰ ﴿أَنفَقْتُم﴾. ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ متعلق بـ﴿نَذَرْتُم﴾. وفي قوله[1]: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ دلالة علىٰ حذف موصول قبل قوله: ﴿نَذَرْتُم﴾ تقديره: أو ما نذرتم من نذر؛ لأن ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ تفسير وتوضيح لذلك المحذوف، وحذف ذلك للعلم به، ولدلالة ما في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ عليه؛ كما حذف ذلك في قول حسان:

أَمَنْ يَهْجُوْ رَسُوْلَ ٱللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟!

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً، ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم جواب ﴿ما﴾ الشرطية، أو في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية، أو جملة المبتدأ مستأنفة، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: ﴿مِنْ﴾: زائدة ﴿أَنصَارٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والتقدير: وما أنصار كائنون للظالمين، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة جامدية. ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماضٍ من أفعال المدح، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هو يعود علىٰ الشيء المبهم. ﴿ما﴾: نكرة تامة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿نِعْمَ﴾. ﴿هي﴾: مخصوص بالمدح خبر لمبتدأ محذوف تقديره: المخصوص بالمدح هي؛ أي: إبداء تلك الصدقات. أو ﴿هي﴾: مبتدأ، والخبر جملة ﴿نعم﴾. وجملة ﴿نعم﴾ في محل الجزم جواب

---

(١) البحر المحيط.

﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُخْفُوهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل الشرط، وجزمه حذف النون. ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾: الواو عاطفة ﴿تؤتوها﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف علىٰ تخفوها. ﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿فَهُوَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿هو﴾: مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾ خبر. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿خَيْرٌ﴾، كما ذكره أبو حيان في «البحر» تقديره: فهو ـ أي: الإخفاء ـ خير كائن لكم، والجملة الاسمية في محل الجزم علىٰ كونها جواب الشرط، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. ﴿وَيُكَفِّرُ﴾: الواو عاطفة. ﴿يُكفِّر﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، أو علىٰ الإخفاء. ﴿عَنكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿مِّن﴾: زائدة. ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، ويحتمل كون ﴿مِّن﴾ تبعيضية، والمفعول محذوف تقديره: شيئاً من سيئاتكم، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ علىٰ كونها جواب الشرط. وقرىء ﴿يكفر﴾ بالجزم عطفاً علىٰ الجواب، وبالنصب علىٰ تقدير أن، والمصدر المؤول من ﴿أن﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿خَيْرٌ﴾، والتقدير: فهو ـ أي الإخفاء ـ خير لكم، وتكفير سيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾ الآتي. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَّيْسَ﴾.

﴿هُدَىٰهُمْ﴾: اسمها مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: ليس هداهم كائناً عليك، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: الواو عاطفة ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّيْسَ﴾. ﴿مَن يَشَآءُ﴾: ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يشاء﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: يشاء هدايته. ﴿وَمَا﴾: الواو استئنافية. ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿تُنفِقُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾ علىٰ كونه فعل الشرط. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿ما﴾. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾الفاء رابطة. ﴿لأنفسكم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: فهو كائن لكم، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿ما﴾ الشرطية، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾: نافية ﴿تُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ إلا أداة استثناء مفرغ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف. ﴿وَجْهِ﴾: مضاف إليه، وجه مضاف، ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ مضاف إليه والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها، وهي خبرية اللفظ إنشائية المعنىٰ قصد بها النهي، والمعنىٰ: لا تنفقوا لغرض من الأغراض إلا لغرض ابتغاء وجه الله تعالىٰ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم ﴿تُنفِقُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾ ﴿يُوَفَّ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿ما﴾، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ما﴾، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، وأتت الواو حالية، أو استئنافية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ خبره،

والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿إِلَيْكُمْ﴾، والعامل فيه ﴿يُوَفَّ﴾، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف جوازاً؛ تقديره: الصدقات مصروفة للفقراء، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنهم لما أمروا بالصدقات.. قالوا: فلمن هي؟ فأجيبوا: بأنها لهؤلاء الفقراء المذكورين. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول صفة ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. ﴿أُحْصِرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب.. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه، متعلق بـ﴿أُحْصِرُوا۟﴾. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير النائب في ﴿أُحْصِرُوا۟﴾، والعامل فيه ﴿أُحْصِرُوا۟﴾؛ أي: أحصروا عاجزين، ويجوز أن يكون مستأنفاً. ﴿ضَرْبًا﴾: مفعول به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ضَرْبًا﴾، أو بمحذوف صفة لـ﴿ضَرْبًا﴾، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿أَغْنِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: جار ومجرور متعلق، بـ﴿يحسب﴾؛ أي: يحسبهم لأجل تعففهم. والجملة في محل النصب حال أيضاً من ضمير النائب في ﴿أُحْصِرُوا۟﴾، ويجوز أن يكون مستأنفاً.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

﴿تَعْرِفُهُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب، والجملة في محل النصب حال أيضاً، أو مستأنفة. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَعْرِفُهُم﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أموالهم، والجملة في محل النصب حال، أو مستأنفة. ﴿إِلْحَافًا﴾: قال السمين: في نصبه ثلاثة أوجه:

أحدها: نصبه على المصدر بفعل مقدر؛ أي: يلحفون إلحافاً، والجملة المقدرة حال من فاعل ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾.

والثاني: أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: لا يسألون لأجل الإلحاف.

والثالث: أن يكون مصدراً في موضع الحال تقديره: لا يسألون ملحفين. انتهىٰ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَآ﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿ما﴾، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: حال من ﴿ما﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها به متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَمْوَٰلَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: الباء بمعنىٰ: في، ﴿الليل﴾: مجرور بها، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الليل﴾، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: مصدران في موضع الحال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: مسرين ومعلنين ﴿فَلَهُمْ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لِمَا في المبتدأ من العموم. ﴿لهم﴾: خبر مقدم. ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ ومضاف إليه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبرٌ للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خبراً للمبتدأ الأول. ﴿وَلَا هُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في

محل الرفع معطوفة أيضاً علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ علىٰ كونها خَبراً للمبتدأ الأول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: أصلها نعم ما، ونعم[1]: فعل جامد ليس له مضارع ولا أمر ولا غيرهما. فليس من مباحث الصرفيين كما هو معلوم، ولكن نذكره هنا لأجل هذا الإدغام، فهو في الأصل من باب فَعِل المكسور كـ: عَلِم كما جاء في الشعر كذلك، إلا أنهم سكنوا العين، ونقلوا حركتها إلىٰ النون ليكون دليلاً على الأصل. ومنهم من يترك النون مفتوحة علىٰ الأصل، ومنهم من يكسر النون والعين إتباعاً. وبكل قد قرىء في المتواتر كما سبق، وفيه قراءة أخرىٰ أيضاً وهي: إسكان العين والميم مع الإدغام. وفيه بُعْدٌ لما فيه من الجمع بين الساكنين، ولكنه متواتر فلا بعد فيه.

﴿مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾: السيئات: جمع سيئة، ووزنها: فيعلة، وعينها واو، والأصل: سيوئة، فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، فصار سيئة.

﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ التعفف مصدر تعفف، ـ من باب: تفعَّل ـ تعففاً إذا أعرض عن الشيء، وتركه مع القدرة علىٰ تعاطيه. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: السيما[2] بالقصر: العلامة، ويجوز مدُّها، وإذا مدت.. فالهمزة فيها منقلبة عن حرف زائد للإلحاق، إما واو أو ياء فهي كـ: علياء ملحقة بـ: سرداح، فالهمزة للإلحاق، لا للتأنيث، وهي منصرفة لذلك. وسيما مقلوبة قدمت عينها علىٰ فائها؛ لأنها مشتقة من الوَسْم، فهي من السمة؛ أي: العلامة. فلما وقعت الواو بعد كسره قلبت ياء، فوزن سيما: عُفْلا، كما يقال: اضمحلَّ وامضحل.

﴿إِلْحَافًا﴾ الإلحاف:[3] الإلحاح في المسألة والتمادي فيها، وهو مشتق من اللِّحافِ، سُمِّي بذلك لاشتماله علىٰ وجود الطلب في المسألة، كاشتمال

---

(١) عكبري. (٢) الجمل. (٣) الشوكاني.

اللِّحافُ علىٰ التغطية.

البلاغة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بين ﴿أَنفَقْتُم﴾ و ﴿نَّفَقَةٍ﴾: جناس الاشتقاق، وكذلك بين ﴿نَذَرْتُم﴾ و ﴿نَّذْرٍ﴾..

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: فالتعبير بالعلم كناية عن المجازاة، وإلا فهو معلوم، ذكره الكرخي.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: فيه نوع تفصيل لبعض ما أجمل في الشرطية قبله، وبيان له، ولذا ترك العطف بينهما، وفي الإبداء والإخفاء طباق لفظي، وكذلك بين لفظ الليل والنهار، والسر والعلانية. وهو من المحسنات البديعية.

وفي قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ طباق معنوي[1]؛ لأنه لا يؤتي الصدقات إلا الأغنياء، فكأنه قيل: إن يبد الصدقات الأغنياء.

وفي قوله: ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ طباق معنوي؛ إذ المعنى: ليس عليك هدىٰ الظالمين.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب؛ لوروده بعد قوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي معناه يصلْكم وافياً غير منقوص.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذه الآية طباق في موضعين:

أحدهما: في قوله: ﴿أُحْصِرُواْ﴾ و ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والثاني: في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ و ﴿أَغْنِيَآءَ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ...﴾ مناسبة[1] هذه الآية لما قبلها: أن ما قبلها وارد في تفضيل الإنفاق والصدقة في سبيل الله، وأنه يكون ذلك من طيبات ما كسب، ولا يكون من الخبيث، فذكر نوعاً غلب عليهم في الجاهلية ـ وهو خبيث ـ وهو: الربا، حتىٰ يُمتنع من الصدقة بما كان من ربا، وأيضاً فتظهر مناسبة أخرىٰ، وذلك أن الصدقات فيها نقصان مال، والربا فيه زيادة مال، فاستطرد من المأمور به إلىٰ ذكر المنهي عنه، لما بينهما من مناسبة ذكر التضاد.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ وذلك أنه لما ذكر حال آكل الربا، وحال من عاد إليه بعد مجيء الموعظة، وأنه كافر أثيم.. ذكر ضد هؤلاء؛ ليبين فرق ما بين الحالين.

---

(١) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ...﴾
أخرج[1] ابن جرير عن ابن جريج قال: كانت ثقيف قد صالحت النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم على أن ما لَهم من ربا علىٰ الناس، وما كان للناس عليهم من ربا.. فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد علىٰ مكة، وكانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من ابن المغيرة، وكان بنو المغيرة يرابون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبىٰ بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ فكتب بها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ عتاب، وقال: «إن رضوا، وإلا فأذنهم بحرب».

وأخرج أهل السنن وغيرهم عن عمرو بن الأحوص: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال: «ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، وأول ربا موضوع: ربا العباس».

وأخرج ابن منده عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في ربيعة بن عمرو وأصحابه: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال[2]: آخر آية نزلت من القرآن علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقال: وكان بين نزولها وبين موت النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم إحدىٰ وثمانون يوماً. وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه عاش النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد نزولها تسع ليال، ثم مات.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: يأخذونه استحلالاً، ويعاملون به، وإنما خص الأكل؛ لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل، وإنما يصرف في المأكول، ثم يؤكل، فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد، ولأن الربا شائع في المطعومات.

وأخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هم سواء».

وأصل الربا في اللغة: الزيادة. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد وكثر، فالربا شرعاً: الزيادة في المال. ومنه: ربا الفضل، وربا النسيئة. وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلَّ أجل الدَّين، قال مَنْ هو له لمن هو عليه: أتقضي أم تربي؟ فإذا لم يقضِ زاد مقداراً في المال الذي عليه، وأَخَّر له الأجل إلىٰ حين، وهذا حرام بالاتفاق.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم إذا بعثوا يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾؛ أي: الجنون، فقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ إما متعلق بـ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ علىٰ أن: ﴿مِنَ﴾ للتعليل، والمعنى[1]: لا يقومون من قبورهم ـ لأجل المس والجنون والخبل الواقع بهم في الموقف ـ إلا قياماً كقيام الشخص الذي يتخبطه ويصرعه ويسقطه الشيطان والجن في الدنيا إذا مسه بخبل وجنون. ومعنىٰ الآية: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مثل المصروع المجنون، لا يستطيع الحركة الصحيحة، وذلك ليس لخلل في عقله، بل لأن الربا الذي أكله في الدنيا يربو في بطنه، فلا يقدر علىٰ الإسراع في النهوض، فإذا قام تميل به بطنه. قال سعيد بن جبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة إذا استحله في الدنيا.

يعني: أن آكل[2] الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً، وذلك كالعلامة

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

المخصوصة بأكل الربا، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنه أكل الربا في الدنيا، فعلىٰ هذا معنى الآية: أنهم يقومون مجانين كمن أصابه الشيطان بالجنون، وإما متعلق بـ﴿يقوم﴾ أو بـ﴿يتخبط﴾ والخبط: الضرب، والمشي من غير استواء.

وهذا علىٰ ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، وفي الآية[1] دليل علىٰ فساد قول من قال: أن الصرع لا يكون من جهة الجن، وزعم: أنه من فِعْل الطبائع، وقال: إن الآية خارجة علىٰ ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، وليس بصحيح. وإن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسٌّ، وقد استعاذ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائي وغيره.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب الذي نزل بهم، وهو كون التخبل علامة آكل الربا في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾؛ أي: بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي:[2] إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل، كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب لا تعرف ربا إلا ذلك، وإنما شبهوا البيع بالربا مع أن الكلام في الربا، وكان مقتضاه: إنما الربا مثل البيع مبالغةً بجعلهم الربا أصلاً في الحل، والبيع فرعاً فيه. أو المعنىٰ[3]: إنما الزيادة والربح في البيع كالزيادة في الربا؛ أي: اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه؛ أي: ذلك العذاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلىٰ الربح، فاستحلوا الربا استحلال البيع، وقالوا: يجوز بيع درهم بدرهمين؛ كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين، فجعلوا الربا أصلاً في الحل، وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما، فإن من أعطىٰ درهمين بدرهم.. ضيَّع درهماً، ومن اشترىٰ سلعة بدرهمين تساوي درهماً.. فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبرُ هذا الغُبْن.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) أبو السعود.

وذكر بعضهم الفرق بين البيع والربا، فقال: إذا باع ثوباً يساوي عشرة بعشرين، فقد جعل ذات الثوب مقابلاً للعشرين، فلما حصل التراخي علىٰ هذا التقابل.. صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر في المالية عندهما، فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين: فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض، ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل؛ لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يُشار إليه حتىٰ يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة، فقد ظهر الفرق بين الصورتين. انتهىٰ.

وعبارة «الخازن»: وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلَّ ماله علىٰ غريمه فيطالبه، يقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتىٰ أزيدك في المال، فيفعلان ذلك. وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح، أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله تعالىٰ، ورد عليهم ذلك بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: أحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، وحرم عليكم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل؛ وذلك لأن الله تعالىٰ خلق الخلق فهم عبيده، وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء، ويستعبدهم بما يريد، ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما أحل أو حرم، وإنما علىٰ كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: فمن بلغته موعظةٌ من الله، وزَجْرٌ وتخويفٌ عن الربا. وإنما ذكر الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث مجازي، أو لوجود الفاصل. وقرأ أبو الحسن شذوذاً: ﴿فمن جاءته﴾ بالتاء علىٰ الأصل. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ أي: فامتثل النهي الذي جاءه، وانزجر عن أخذه ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ أي: له ما تقدم، وأكل من الربا قبل النهي، وليس عليه رد ما أخذ وسلف قبل النهي، فلا يؤاخذ به؛ لأنه أخذه قبل نزول التحريم، وأما ما لم يقضِ قبل النهي: فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط. ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾؛ أي: أَمْر من عامل بالربا مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه علىٰ انتهائه إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية، وقيل: يحكم في شأنه يوم القيامة بما شاء، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ تحليل الربا بعد التحريم فأخذه، أو إلىٰ القول: بأن البيع مثل الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العائدون إلىٰ الربا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها أبداً؛ لأنهم باستحلاله صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله تعالىٰ فهو كافر؛ فلذا استحق الخلود فيها، فقوله: ﴿أولئك﴾ راجع لـ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ أي: يذهب بركته وإن كان كثيراً، ويهلك المال الذي دخل فيه في الدنيا. وقيل: يمحق بركته في الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالىٰ لا يقبل منه صدقة، ولا جهاداً، ولا حجاً، ولا صلة رحم. ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يزيدها ويثمرها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه في الدنيا، ويضاعف أجرها في الآخرة.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «ما تصدق أحد بصدقة من كَسْب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمٰن بيمينه، وإن كانت ثمرة فتربو في كف الرحمٰن حتىٰ تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». وهذا لفظ مسلم. ولفظ البخاري: «من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيِّب، ولا يصعد إلىٰ الله ـ وفي رواية: ولا يقبل الله ـ إلا الطيِّب ـ فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل».

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾؛ أي: لا يرضىٰ ولا يحب محبته للتوابين؛ يعني: يعاقبه ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي: جاحد بتحريم الربا، أو كل مصر علىٰ كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا. ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: فاجر بأخذه مع اعتقاده التحريم.

فوائد تتعلق في تحريم الربا

الأولىٰ: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوهاً:

أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض؛ لأن من باع درهماً

بدرهمين نقداً كان، أو نسيئة. . فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام.

الوجه الثاني: إنما حرم عقد الربا؛ لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة؛ لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا. . خَفَّ عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيفضي ذلك إلى انقطاع منافعِ الناس بالتجارات وطلب الأرباح.

الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرَّم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج، واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى.

الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص، ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق، فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه الحكمة في ذلك.

الثانية: اعلم أن الربا في اللغة: هو الزيادة. وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام، فثبت أن الزيادة المحرمة هو: الربا، وهو علىٰ صفة مخصوصة في مال مخصوص بيَّنه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالوَرِق رباً إلا هاء وهاء، والبر بالبر رباً إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير رباً إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر رباً إلا هاء وهاء، وفي رواية: الوَرِق بالوَرِق رباً إلا هاء وهاء، والذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزناً بوزن مثلاً بمثل، فمن زاد واستزاد. . فقد أربىٰ، وفي رواية: التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد واستزاد. . فقد أربىٰ إلا ما اختلف ألوانه» أخرجه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرُّ بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواءً بسواء يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف.. فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيدٍ». أخرجه مسلم.

الثالثة: الربا نوعان: **ربا فضل**: وهو الزيادة، **وربا نسيئة**: وهو الأجل. فإن باع ما يدخل فيه الربا بجنسه؛ كأن باع الذهب بالذهب، والحنطة بالحنطة.. اشترط في صحة العقد ثلاثة شروط: التقابض، والحلول، والتماثل بمعيار الشرع. فإن كان موزوناً كالذهب فبالوزن، وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير فبالكيل، فإن باع ما يدخل فيه بغير جنسه.. ففيه تفصيل، فإن باع بما لا يوافقه في وصف الربا وعلته؛ كأن باع مطعوماً بأحد النقدين.. فلا ربا فيه؛ كما لو باعه بغير مال الربا.

وإن باعه بما يوافقه في علة الربا ووصفه، لا في الجنس؛ كأن باع الدراهم بالدنانير، أو الحنطة بالشعير.. فلا يثبت فيه ربا التفاضل، فيجوز بيعه متفاضلاً، ويثبت فيه ربا النسيئة، فيشترط في صحة بيعه أمران: التقابض، والحلول.

واختلفوا في علة الربا في النقود والمطعومات علىٰ أقوال كثيرة، والراجح منها: أن علة الربا في النقود: كونها قيم الأشياء وثمنها، وفي المطعومات: الطعم كما هو مقرر في محله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وكتبه وبتحريم الربا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾؛ أي: فيما بينهم وبين ربهم، وتركوا الربا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أتموا الصلوات الخمس بما يجب فيها من الأركان والشروط ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوا زكاة أموالهم. نص عليهما وإن كانا داخلين في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾؛ لعظم شأنهما ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: أجر أعمالهم وثوابها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه آتٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ محبوب فات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اخشوا الله في الربا، وقوا أنفسكم عقابه. ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ أي: اتركوا طلب ما بقي لكم من الربا والزيادة

علىٰ رأس المال، وخذوا رؤوس أموالكم فقط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بقلوبكم في تحريم الربا، فإن دليله امتثال ما أُمرتم به.

قيل: نزلت في العباس بن عبد المطلب، ورجل من بني المغيرة. كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا إلىٰ ناسٍ من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أيها المؤمنون ما أمرتم به من التقوىٰ، وترك بقايا الربا، وعدم الفعل، إما مع إنكار حرمة الربا.. فحربهم حينئذٍ حرب المرتدّين، وإما مع اعتقاد حرمتها.. فحربهم حرب البُغاة ﴿فَأْذَنُوا۟﴾؛ أي: فاعلموا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: فاستعدوا للعذاب من الله في الآخرة بالنار، وللعذاب من رسوله في الدنيا بالسيف. قرأ الجمهور: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ بفتح الذال مع القصر؛ أي: فاعلموا أنتم، وأيقنوا بحربهما لكم. وهو من أذن الثلاثي. يقال أذن بالشيء: إذا علم به. وقرأ حمزة وأبو بكر شعبة عن عاصم ﴿فآذِنوا﴾ بالمد وكسر الذال، أمر من: آذن الرباعي علىٰ معنىٰ: فأعلموا غيركم أنكم علىٰ حربهما وقيل المعنى: فاعلموا أيها المؤمنون من لم ينتهِ عن ذلك بحرب من الله ورسوله. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿فأيقنوا بحرب﴾ وتقوي قراءة الحسن هذه قراءةُ الجمهور بالقصر. وقد دلت هذه الآية علىٰ أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك. وتنكير الحرب للتعظيم، وزادها تعظيماً نسبتها إلىٰ اسم الله الأعظم، وإلىٰ رسوله الذي هو أشرف خليقته. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من معاملة الربا، وتركتموها ورجعتم عنها ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ أي: أصولها دون الزيادة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ الغريم بطلب الزيادة علىٰ رأس المال ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: بنقصان رأس المال وبالمطل. فلما[1] نزلت هذه الآية.. قال بنو عمرو الثقفي، ومن كان يعامِل بالربا من غيرهم: بل نتوب إلىٰ الله، فإنه لا يُدان لنا؛ يعني: لا قوة لنا بحرب الله ورسوله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا بنو المغيرة العسرة، ومن كان عليه

(١) الخازن.

دين، وقالوا: أخرونا إلىٰ أن تدرك الغلات، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾؛ أي: وإن وجد من غرمائكم غريم ذو عسرة؛ أي: غريم صاحب إعسار وعجز عن أداء الحق الذي عليه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ أي: فإنظاره وإمهاله إلىٰ وقت يساره، وقدرته علىٰ أداء حقكم واجبٌ عليكم أيها الدائنون، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي، وإما أن تربي. ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾؛ أي: وتصدقكم علىٰ المعسر برؤوس أموالكم بالإبراء منها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من التأخير والأخذ؛ لأنه يحصل لكم الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل التصدق علىٰ الإنظار والقبض فافعلوه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ بالواو: علىٰ أن ﴿كَانَ﴾ تامة. وروي عن أُبي وابن مسعود وعثمان وابن عباس: ﴿ذا عسرة﴾ بالألف علىٰ أن ﴿كَانَ﴾ ناقصة. وقرأ الأعمش: ﴿وإن كان معسرا﴾. وقرىء: ﴿ومن كان ذا عسرة﴾، وهي قراءة أبان بن عثمان، وحكىٰ المهدوي: أن في مصحف عثمان ﴿فإن كان﴾ بالفاء وما عدا قراءة الجمهور شاذ.

وقرأ الجمهور: ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ بوزن: نَبِقَة. وقرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن والضحاك وقتادة: ﴿فنظْرة﴾ بسكون الظاء وهي لغة تميمية. يقولون في كَبِد: كَبْد. وقرأ عطاء: ﴿فناظرة﴾ علىٰ وزن فاعلة، وخرَّجه الزجّاج علىٰ أنه مصدر كقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، وقال: قرأ عطاء ﴿فناظرة﴾ بمعنىٰ: فصاحب الحق ناظرهُ؛ أي: منتظرهُ، وعنه: ﴿فناظِرْهُ﴾ بصيغة الأمر بمعنىٰ: فسامحه بالنظرة، وباشره بها. انتهى. وقرأ عبد الله: ﴿فناظروه﴾؛ أي: فأنتم منتظروه، فهذه ست قرآت كلها شاذة عدا قراءة الجمهور. ومن جعله اسم مصدر أو مصدراً. . فهو يرتفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالأمر أر الواجب علىٰ صاحب الدَّيْن نظرة منه لطلب الدين من المدين إلىٰ ميسرة منه.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ نافع وحده ﴿ميسُرة﴾ بضم السين، والضم لغة أهل الحجاز، وهو قليل كمقبرة ومشرفة، والكثير مفعَلة بفتح العين، وقرأ الجمهور: ﴿ميسَرة﴾ بفتح السين علىٰ اللغة الكثيرة، وهي لغة أهل نجد. وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿إلى ميسوره﴾ على وزن مفعول مضافاً إلىٰ ضمير الغريم، وهو عند الأخفش مصدر كالمعقول والمجلود في قولهم: ماله معقول ولا مجلود؛ أي: عقل وجلد. ولم يثبت سيبويه مفعولاً مصدراً. وقرأ عطاء ومجاهد: شذوذاً أيضاً ﴿إلىٰ ميسرِهِ﴾ بضم السين وكسر الراء، بعدها ضمير الغريم. وقرىء كذلك بفتح السين، وخرِّج ذلك علىٰ حذف التاء لأجل الإضافة، وهو مذهب الفراء. وقرأ الجمهور: ﴿وَأَن تَصَّدَّقُواْ﴾ بإدغام التاء في الصاد، وقرأ عاصم: ﴿تصَدقوا﴾ بحذف التاء، وفي مصحف عبد الله شذوذاً: ﴿تتصدقوا﴾ بتائين، وهو الأصل، والإدغام تخفيف، والحذف أكثر تخفيفاً.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في فضل إنظار المعسر، والوضع عنه، وتشديد أمر الدَّين والأمر بقضائه

وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده فقال: إني معسر، قال: الله الله! فإني سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة.. فلينفِّس عن معسر، أو يضع عنه». أخرجه مسلم.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه.. أظله الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس، فإن رأىٰ معسراً.. قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه». متفق عليه.

وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم

قال: «إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه به عبدٌ بعد الكبائر التي نهىٰ الله عنها: أن يموت رجل وعليه دين، لا يدع له قضاء». أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها.. أدَّىٰ الله عزّ وجلّ عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها.. أتلفه الله». أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «مطل الغني ظلم». زاد في رواية: «وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع». متفق عليه.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه: أنه تقاضىٰ ابن أبي حدرد دَيناً كان له عليه في عهد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتىٰ سمعها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهو في بيته، فخرج إليهما حتىٰ كشف سجف حجرته، فنادىٰ فقال: «يا كعب»، قلت: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده: أن ضع الشطر من دينك، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال: «قم فأقضه». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان لرجلٍ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم سِنٌّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه فقال: «أعطوه»، فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سِناً فوقها، فقال: «أعطوه»، فقال: أوفيتني وفَّاك الله، فقال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «إن خيركم أحسنكم قضاءً». وفي رواية: أنه أغلظ لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين استقضاه حتىٰ همَّ به بعض أصحابه، فقال: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»، ثم أمر له بأفضل من سنه. متفق عليه.

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله.. تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر»، ثم قال رسول الله صلىٰ الله عليه

وآله وسلم: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّين، فإن جبريل قال لي ذلك». أخرجه مسلم.

وعن محمد بن جحش رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فرفع رأسه إلىٰ السماء، ثم وضع يده علىٰ جبهته، ثم قال: «سبحان الله ماذا نزل من التشديد!!» فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد.. سألته: يا رسول الله، ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أحيي، ثم قُتل، ثم أحيي، وعليه دين.. ما دخل الجنة حتىٰ يُقضىٰ عنه دينه». أخرجه النسائي.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾؛ أي: وخافوا عذاب يوم ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تردون فيه إلىٰ حسابه لأعمالكم، وهو يوم القيامة، فتأهبوا لمصيركم إليه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ وتوفر فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بَرّةٍ وفاجرةٍ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وعملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك اليوم بنقص حسنة، أو زيادة سيئة، وفي هذه الآية وعيد شديد وزجر عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه آخر آية نزلت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وعاش بعدها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أحداً وعشرين يوماً. وقيل: تسع ليال. وقيل: سبعاً. ومات صلىٰ الله عليه وآله وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وقرأ[1] يعقوب وأبو عمرو: ﴿تَرجِعون﴾ بفتح التاء الفوقية وكسر الجيم مبنياً للفاعل؛ أي: تصيرون فيه إلىٰ الله. وقرأ باقي السبعة ﴿تُرجَعون﴾ مبنياً للمفعول؛ أي: تردون إلىٰ الله. وقرأ الحسن شذوذاً: ﴿يَرجِعون﴾ بياء الغيبة مبنياً للمفعول علىٰ معنىٰ: يرجع فيه جميع الناس، وهو من باب الالتفات. وقرأ أُبيّ شذوذاً أيضاً: ﴿تردون﴾ بضم التاء، حكاه عنه ابن عطية، وقال الزمخشري: وقرأ عبد الله

---

(١) البحر المحيط.

﴿يردون﴾ وقرأ أبي شذوذاً أيضاً: ﴿تصيرون﴾ انتهىٰ.

الإعراب

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلرِّبَوٰا۟﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَقُومُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والرابط ضمير الفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿الكاف﴾: حرف جر. ﴿ما﴾: مصدرية ﴿يَقُومُ ٱلَّذِى﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: إلا كقيام الذي يتخبطه الشيطان، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: لا يقومون إلا قياماً كائناً كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس. ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير المفعول. ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يتخبط﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر ﴿أن﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المتعلقة بواجب الحذف؛ لوقوعه خبر المبتدأ تقديره: ذلك كائن بسبب قولهم: إنما البيع، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿أحل الله البيع﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ الواو عاطفة. ﴿حرم﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿ٱلرِّبَوٰا۟﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة أحل الله البيع.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾.

﴿فَمَن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت أن الله حرم الربا، وأردت بيان حكم من انتهىٰ عنه بعد ما بلغه التحريم، وحكم من عاد إليه.. فأقول لك: ﴿مَنْ﴾ إمَّا شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، أو موصولة وخبرها جملة قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، ﴿جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، أو صلة الموصول ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: الفاء عاطفة، ﴿انتهىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿جاء﴾. ﴿فَلَهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً؛ لما في المبتدأ من العموم. ﴿فَلَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، أو في محل الرفع خبر ﴿مَا﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، أو الموصولة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾، أو صفة لها، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾: الواو عاطفة ﴿أمره﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: وأمره مفوض إلىٰ الله، والجملة الاسمية في محل الجزم، أو في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ الواو عاطفة. ﴿مَنْ﴾: موصولة في الرفع مبتدأ أول ﴿عَادَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً. ﴿أولئك﴾: مبتدأ ثانٍ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في

محل النصب حال مقدرة من أصحاب النار.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُرْبِي﴾: الواو عاطفة ﴿يربى الصدقات﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَمْحَقُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿أَثِيمٍ﴾ صفة لكفار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿أَجْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بما تعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها مرفوع ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر لا، وجملة لا في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وكذا جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة، ها: حرف تنبيه زائد.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء. ﴿وَذَرُوا مَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱتَّقُوا﴾. ﴿بَقِيَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَقِيَ﴾، ﴿إِن كُنتُم﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونهما فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتركوه، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم النهي من الربا، وأردتم بيان عاقبة من خالف النهي.. فأقول لكم: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَفْعَلُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَأْذَنُوا﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أذنوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل جزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِحَرْبٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أذنوا﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حرب﴾. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف علىٰ الجلالة. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تُبْتُمْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها: ﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة إن الأولى. ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾: ﴿لَا﴾: نافية ﴿تَظْلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو في محل

النصب حال من الكاف في ﴿لكم﴾، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: الواو عاطفة لا: نافية ﴿تُظْلَمُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية ﴿وَإِن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ تام في محل الجزم بـ﴿إن﴾ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. (نظرة): خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب نَظِرة له، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: فنظرة عليكم، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾: الواو استئنافية ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَصَدَّقُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر لذلك المصدر تقديره: والتصدق خير لكم؛ أي: إبراءه أفضل من الإنظار. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿إِن كُنتُمْ﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿أن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: فافعلوه.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ الواو استئنافية. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿يَوْمًا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل ونائب فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ على كونها صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، ولكن الرابط فيها مقدر تقديره: ثم توفى فيه كل نفس ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾،

والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾: الواو حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ من الفعل المغير ونائبه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، وجمع الضمير هنا اعتباراً بالمعنىٰ، وأعاد الضمير عليها أولاً في كسبت اعتباراً باللفظ، وقدم اعتبار اللفظ؛ لأنه الأصل، ولأنَّ اعتبار المعنى وقع رأس فاصلة، فكان تأخيره أحسن، كذا في «السمين».

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: الربا الزيادة، يقال: ربا الشيء إذا ازداد، وأرباه غيرهُ، وأربىٰ الرجل: إذا عامل بالربا، ومنه الربوة والرابية، وكتب في القرآن بالواو والألف بعدها، ويجوز أن يكتب بالياء للكسرة، وبالألف وتُبدل الباء ميماً. قالوا: الرِّما، كما أبدلوها في كَتَبَ فقالوا: كَتَمَ. ويُثَنَّىٰ ربوان بالواو ـ وعند البصريين ـ لأن الألف منقلبة عنها. وقال الكوفيون: ويكتب بالياء، وتقول في تثنيته: ربيان.

﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: يقول تخبط ـ من باب: تفعَّل[1] ـ من الخبط، وهو: الضرب علىٰ غير استواءٍ كخَبط العشواء، وخبط البعير الأرض بأخفافه. ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط عشواء، وتورط في عمياء، والمسُّ: الجنون. والأَمَسّ: المجنون، يقال: مسَّ فهو ممسوس إذا جُنَّ، وأصله من المس باليد. كأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه، وسُمي الجنون: مساً كما أن الشيطان يخبطه ويطؤه برجله، فيخبله، فسُمي الجنون: خبطة، فالتخبط بالرجل والمس باليد.

﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: والموعظة[2] والوعظ والعظة كالموعدة والعدة والوعد. مصادر معناها واحد وهو: الزجر والتخويف وتذكير العواقب. والاتعاظ: القبول والامتثال، فقوله: ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ بمعنىٰ: أتعظ؛ أي: قَبِل وامتثل.

﴿سَلَفَ﴾؛ أي: سبق ومضىٰ وانقضى، ومنه سالف الدهر؛ أي: ماضيه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) مصباح.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾: المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال، ومنه المِحَاقُ في الهلال، يقال: محقه الله فانمحق وامتحق. أنشد الليث:

يَـزْدَادُ حَـتَّـىٰ إِذَا مَـا تَـمَّ أَعْـقَـبَـهُ   كَرُّ ٱلْـجَـدِيْـدَيْـنِ نَـقْـصاً ثُـمَّ يَـنْـمَـحِـقُ

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ من: أربىٰ المتعدي، يقال: أرباه إذا زاده، كما يؤخذ من «القاموس». ويستعمل أربىٰ لازماً أيضاً، فيقال: أربىٰ الرجل إذا دخل في الربا، كما في «المصباح».

﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا﴾: ذروا بوزن: علوا، فهو فعل أمر مبني علىٰ حذف النون، والواو فاعل، وحذفت فاؤه، وأصله: أوذروا، ماضيه: وذر، ولكن لم يستعمل إلا في لغة قليلة.

﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: هما من أمثلة المبالغة؛ لأنهما علىٰ وزن فعّال وفعيل، وأتىٰ بصيغة المبالغة فيهما وإن كان الله لا يحب الكافر الأثيم تنبيهاً علىٰ عظم أمر الربا ومخالفة الله تعالى.

البلاغة

﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾: شبهوا البيع الذي هو مجمع علىٰ حلّه بالربا الذي هو محرم، ولم يعكسوا تنزيلاً لهذا الذي يفعلونه من الربا منزلة الأصل المماثل له البيع، وهذا من عكس التشبيه، ويسمىٰ: التشبيه المقلوب، وهو: أن يجعل المشبه مشبهاً به، والمشبه به مشبهاً، وهو أعلىٰ مراتب التشبيه، وهو موجود في كلام العرب، كقولهم: القمر كوجه زيد، البحر ككفه. وكما قال أبو القاسم بن هانيء:

كَـأَنَّ ضِـيَـاءِ ٱلـشَّـمْـسِ غُـرَّةُ جَـعْـفَـرٍ   رَأَىٰ ٱلْـقِـرْنَ فَـٱزْدَادَتْ طَـلَاقَـتُـهُ ضِـعْـفَـاً

والأصل في الآية أن يقال: إنما الربا مثل البيع، ولكن لما بلغ اعتقادهم في حل الربا النهاية.. جعلوه أصلاً يقاس عليه، فشبهوا به البيع.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾: بين لفظ: ﴿أحل﴾ و ﴿حرم﴾ طباق، وكذا

بين لفظ: ﴿يَمْحَقُ﴾ و ﴿يربى﴾. وقال أبو حيان[1]: وفي ذكر المحق والإرباء بديع الطباق، وفي ذكر الربا ويربي بديع التجنيس المغاير.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: وذكر الأثيم علىٰ سبيل المبالغة والتوكيد من حيث إنه اختلف اللفظان.

﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ﴾: التنكير فيه للتهويل؛ أي: بنوع من الحرب عظيم، لا يقادر قدره كائن من عند الله.

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾: فيه من المحسنات البديعية ما يُسمىٰ: الجناس الناقص؛ لاختلاف المعنىٰ.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾: التنكير للتفخيم والتهويل.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالىٰ لمَّا أمر بالنفقة في سبيل الله، وبترك الربا، وكلاهما يحصل به تنقيص المال.. نبه علىٰ طريق حلال في تنمية المال وزيادته، وأكد في كيفية حفظه، وبسط في هذه الآية، وأمر فيها بعدة أوامر علىٰ ما سيأتي بيانه، قاله أبو حيان.

وقيل: إنه تعالىٰ لما ذكر الربا، وبيَّن ما فيه من القبح القبيح؛ لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه، وهو كسب خبيث يحرمه الإسلام، وذكر ما فيه من الوعيد الشديد.. أتبعه بذكر القرض الحسن بلا زيادة ولا منفعة للمقرض،

(١) البحر المحيط.

وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن. وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع، وكون آية الدَّين أطول آيات القرآن علىٰ الإطلاق مما يدل علىٰ عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

أسباب النزول

وقد أخرج[1] عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ قال: نزلت في السلم، في كيل معلوم إلىٰ أجل معلوم.

وأخرج الشافعي وعبد الرازق وعبد بن حميد والبخاري وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أشهد أن السلف المضمون إلىٰ أجل مسمىٰ أن الله أحله، وحرم الربا، وقرأ هذه الآية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال: أمر بالشهادة عند المداينة؛ لكيلا يدخل في ذلك جحود ولا نسيان، فمن لم يُشْهِدْ علىٰ ذلك فقد عصىٰ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾؛ أي: تعاملتم بالدين، وتبايعتم به علىٰ أيّ وجه كان من: سَلَم أو بيع، أو داين بعضكم بعضاً، وعامله نسيئة، معطياً كان أو آخذاً. وإنما قال: ﴿بِدَيۡنٍ﴾ بعد قوله ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ مع أنه معلوم منه؛ ليعود الضمير عليه في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾؛ إذ لو ذكر ذلك لوجب أن يقال: فاكتبوا الدَّين، فلا يحسن النظم بذلك. وقيل: إنما ذكره للتأكيد. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلىٰ وقت معلوم الأول والآخر بالأيام والأشهر أو نحوهما، مما يرفع الجهالة، لا بالحصاد والدياس، وقدوم الحاج ونحوها مما لا يرفعها.

---

(١) فتح القدير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: «من أسلف في تمر، ففي كيل معلوم أو وزن معلوم إلىٰ أجل معلوم». متفق عليه. ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أي: فاكتبوا ذلك الدين الذي تداينتم به وتحملتم به في ذممكم بيعاً كان ذلك التعامل، أو سلفاً بأجله؛ لأنه أوثق وأرفع للنزاع، والأكثرون علىٰ أن أمر هذه الكتابة أمر استحباب، فإن ترك فلا بأس، وهو أمر تعليم ترجع فائدته إلىٰ منافع الخلق في دنياهم، فلا يثاب عليه المكلف إلا إن قصد الامتثال.

قال المفسِّرون: المراد بالمداينة: السلَم، فالله تعالىٰ لما منع الربا في الآية المُتقدِّمَةِ. أذن في السلَم في هذه الآية مع أن جميع المنافع المطلوبة من الربا حاصلة في السلم، ولهذا قال بعض العلماء: لا لذة ولا منفعة يوصل إليها بالطريق الحرام إلا وضع الله تعالىٰ لتحصيل مثل تلك اللذة طريقاً حلالاً، وسبيلاً مشروعاً. والقرض غير الدين؛ لأن القرض: أن يقرض الإنسان دراهم أو دنانير أو حباً أو ثمراً أو ما أشبه ذلك، ويسترد مثله، فلا يجوز فيه شرط الأجل بخلاف الدين، فيجوز فيه الأجل، فإن ذكر الأجل في القرض، فإن كان للمقرض فيه غرض أفسده، وإلا فلا يفسده، ولا يجب الوفاء به، لكنه يُستحب.

وقال أكثر المفسرين: إن البيوع علىٰ أربعة أوجه:

أحدها: بيع العين بالعين؛ وذلك ليس بمداينة البتة.

والثاني: بيع الدين بالدين، وهو باطل؛ فلا يكون داخلاً تحت هذه الآية.

والثالث: بيع العين بالدين، وهو ما إذا باع شيئاً بثمن مؤجل.

والرابع: بيع الدين بالعين وهو المسمىٰ: بالسلم، وكلاهما داخلان تحت هذه الآية.

﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ كتاب الدين ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: بين الدائن والمديون، والبائع والمشتري. والبيِّنية تقتضي أن لا ينفرد أحد المتعاملين بالكتابة؛ لأنه يتهم فيها، فإذا كانت واقعة بينهما كان كل واحد منهما مطلعاً علىٰ ما سطره الكاتب. ﴿كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ أي: بالحق والإنصاف بحيث لا يكون في قلبه، ولا في

قلمه ميل لأحدهما علىٰ الآخر؛ أي: وليكتب لكم كاتب عادل مأمون، لا يجور علىٰ أحد الطرفين؛ بحيث لا يزيد في المال والأجل، ولا ينقص في ذلك، فهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة، لا يكون في قلبه ولا في قلمه مساعدة لأحدهما علىٰ الآخر، بل يتحرىٰ الحق بينهم، والعدل فيهم، وقرىء شذوذاً[1] بكسر لام: ﴿ولِيكتبْ﴾ وإسكانها.

قيل: إن فائدة هذه الكتابة هي: حفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة.. تعذَّر عليه طلب زيادة، أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل. ومن عليه الدين إذا عرف ذلك.. تعذر عليه الجحود، أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلَّما كانت هذه الفائدة في الكتابة.. أمر الله تعالىٰ بها.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾؛ أي: ولا يمنع أحد من الكتاب ﴿أَن يَكْتُبَ﴾؛ أي: من أن يكتب كتاب الدين بين الدائن والمديون ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: علىٰ الطريقة التي علمه الله في كتابة الوثائق، من غير أن يبدل ولا يغير؛ ليقضي حاجة أخيه المسلم ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة التي علّمه الله إياها، أو كما علمه الله بقوله: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ولْيبين المديون الذي عليه الحق قدر ما عليه من الدَّين وجنسه ونوعه؛ لأنه المشهود عليه، فلا بد من أن يقر علىٰ نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الدين. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: ولْيخش المديون ربه بأن يقر بمَبْلغ المال الذي عليه ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: ولا ينقص مما عليه من الدين شيئاً في إلقاء الألفاظ علىٰ الكاتب ﴿فَإِن كَانَ﴾ المديون ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ والدين ﴿سَفِيهًا﴾؛ أي: ناقص العقل، مبذِّراً يصرف المال في غير مصارفه ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في البدن، أو في الرأي لصغر، أو جنون، أو كبر مضعف للعقل؛ أي: أو كان صبياً، أو مجنوناً، أو شيخاً هرماً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ أي: أو

(١) النهر.

عاجزاً لا يقدر أن يمل هو بنفسه علىٰ الكاتب، ولا يحسن الإسماع له بنفسه لخرس، أو عيٍّ، أو جهل باللغة، أو بما عليه وما له من الدين، أو حبس، أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب، فهؤلاء كلهم لا يصح إقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم، كما ذكره بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾؛ أي: فليقر علىٰ الكاتب، ويبين له وليٌّ كل واحد من هؤلاء الثلاثة: السفيه، والضعيف، وغير المستطيع ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: بالصدق والحق من غير زيادة ولا نقصان؛ لأنه يقوم مقامه في صحة الإقرار. والمراد بالولي لغة: هو من له ولاية عليه بأيِّ طريقٍ كان؛ كوالد ووصيٍّ وقيم ومترجم ووكيل. وقال[1] ابن عباس رضي الله عنهما: أراد بالولي صاحب الدين؛ يعني: إن عجز الذي عليه الحق عن الإملاء.. فليملل صاحب الحق؛ لأنه أعلم بحقه ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾؛ أي: واشهدوا ندباً علىٰ حقوقكم مع كتابتها شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي: من أهل ملتكم أيها المؤمنون؛ يعني: من الرجال البالغين الأحرار المسلمين زيادة في التوثقة؛ لأن المقصود من الكتابة هو الإشهاد، فالبلوغ مستفاد من لفظ رجال، والإسلام من الإضافة إلى كاف الخطاب، والحرية مستفادة أيضاً من لفظ رجال؛ لأنه ظاهر في الكاملين؛ لأن الأرقاء بمنزلة البهائم، فبقي اشتراط العدالة، المستفادة من قوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، وعند[2] شُريح وابن سيرين وأحمد: تجوز شهادة العبيد، وأجاز أبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم علىٰ بعض.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾؛ أي: فإن لم يكن الشاهدان رجلين؛ بأن لم يوجد أو لم يقصد إشهادهما ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ أي: فليشهد رجل وامرأتان كائنون ممن ترضونه ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لدينه وعدالته. وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ علىٰ حذف لام التعليل المتعلقة بمعلول محذوف؛ تقديره: وإنما اشترط التعدد في النساء؛ لأجل أن تنسىٰ إحدى المرأتين الشهادة؛ لنقص عقلهن وقلة ضبطهن، فتذكر إحداهما الذاكرةُ للشهادة المرأة الأخرىٰ الناسية لها. والعلة في

(١) الخازن.
(٢) مراح.

الحقيقة التذكير، أي: وإنما اشترط التعدد؛ لأجل أن تذَّكر الذاكرةُ منهما الناسية للشهادة، ولكن لما كان الضلال سبباً له نزل منزلته؛ كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه.

قرأ حمزة والأعمش[1]: ﴿إِنْ تَضِلَّ﴾ بكسر الهمزة، وجعلها حرف شرط. ﴿فتذكرُ﴾ بالتشديد ورفع الراء، وجعله جواب الشرط. وقرأ الباقون: بفتح همزة أن، وهي الناصبة، وفتح راء ﴿فتذكرَ﴾ عطفاً علىٰ ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾، وسَكَّن الذالَ وخفف الكاف ابن كثير، وأبو عمرو ويعقوب. وفَتَح الذال وشدد الكاف الباقون من السبعة. وقرأ الجحدري وعيسىٰ بن عمران شذوذاً ﴿تُضَل﴾ بضم التاء وفتح الضاد مبنياً للمفعول بمعنىٰ: تنسى. كذا حكىٰ عنهما الداني، وحكىٰ النقاش عن الجحدري شذوذاً: ﴿أن تُضِل﴾ بضم التاء وكسر الضاد بمعنى: أن تضل الشهادة. تقول: أضللت الفرس والبعير إذا ذهبا فلم تجدهما. وقرأ زيد بن أسلم شذوذاً: ﴿فتذاكر﴾ من المذاكرة.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾؛ أي: إقامة الشهادة ﴿إِذَا مَا دُعُواْ﴾؛ أي: ولا يمتنع الشهداء إذا دعوا إلىٰ تحمل الشهادة وأدائها عند الحكام، فيحرم الامتناع عليهم؛ لأن تحمل الشهادة فرض كفاية مطلقاً، والأداء كذلك، إن زاد المتحملون علىٰ من يثبت بهم الحق وإلا ففرض عين. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ﴾؛ أي: ولا تملوا أن تكتبوا الدَّين؛ لكثرة وقوع المداينة علىٰ أي حال كان الدين ﴿صَغِيرًا﴾ كان ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾، قليلاً كان أو كثيراً، وعلىٰ أي حال كان الكتاب مختصراً أو مشبعاً حال كون ذلك الدَّين مستقراً في ذمة المديون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾؛ أي: إلىٰ وقت حلول أجله الذي أقر به المديون؛ أي: فاكتبوا الدين بصفة أجله، ولا تهملوا الأجل في الكتابة، فقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾؛ أي: ذالكم المذكور من كتابة الدين إلىٰ أجله ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أكثر قسطاً وعدلاً في حكم الله، أو في علمه؛ لأنه أمر به، واتباع

---

(١) البحر المحيط.

أمره أعدل من تركه. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أثبت وأحفظ للشهادة، وأعون للشاهد على إقامتها إذا نسي ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾؛ أي: وأقرب إلىٰ أن لا تشكُّوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك؛ أي: أقرب إلىٰ انتفاء شككم في ذلك، فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات وإذا رجعوا إلىٰ المكتوب زال ذلك الشك. وقرأ السلَمِيّ شذوذاً: ﴿ألا يرتابوا﴾ بالياء، والمفضل عليه محذوف؛ تقديره: ذلك الكتاب المذكور أقسط وأقوم وأدنى أن لا ترتابوا من عدم الكتابة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة؛ أي: ولا تسأموا أن تكتبوه في كل المعاملات إلا أن تقع تجارة حاضرة بحضور البدلين؛ أي: معاملة ومبايعة حالة ناجزة تتعاطونها وتقابضونها بينكم يداً بيد بلا أجل؛ أي: إلا أن تتبايعوا بلا أجل يداً بيد، فلا بأس في أن لا تكتبوه لبعده عن التنازع والنسيان. وقرأ عاصم: ﴿تجارةً حاضرةً﴾ بنصبهما علىٰ أن ﴿كان﴾ ناقصة، والتقدير: إلا أن تكون هي؛ أي: المعاملة. وقرأ الباقون ﴿تجارةٌ حاضرةٌ﴾ برفعهما علىٰ أن يكون ﴿تَكُونَ﴾ تامة، و ﴿تِجَٰرَةً﴾: فاعل لـ﴿تَكُونَ﴾، وأجاز بعضهم أن تكون ناقصة، وخبرها جملة قوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾؛ أي: ليس عليكم مضرة في ترك الكتابة في المداينة الحاضرة؛ كأن باع ثوباً بدرهم في الذمة بشرط أن يؤدي الدرهم في هذه الساعة؛ أي: لا بأس بعدم الكتابة في ذلك لبعده عن التنازع والنسيان. وعبارة «الخازن» هنا: وإنما رخص الله في ترك الكتابة في هذا النوع من التجارة؛ لكثرة جريانه بين الناس، فلو كلفوا الكتابة فيه لشق عليهم، ولأنه إذا أخذ كل واحد حقه في المجلس.. لم يكن هناك خوف الجحود، فلا حاجة إلىٰ الكتابة انتهى.

﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع المذكور[1] وهو التجارة الحاضرة؛

---

(١) الشوكاني.

لأن الإشهاد يكفي فيها عن الكتابة. وقيل معناه: إذا تبايعتم؛ أيَّ تبايع كان حاضراً أو كالئاً؛ لأن ذلك أدفع لمادة الخلاف، وأقطع لمنشأ التشاجر. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب، ثم اختلف في أحكامها ونسخها فقيل: إنها منسوخة بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، فالمعنى علىٰ هذا: ولا يضار كاتب صاحب الحق، أو من عليه الحق، فيأبىٰ أن يكتب أو يزيد في الحق أو ينقص فيه، أو يحرِّف ما أملىٰ عليه، ولا يضار شاهد صاحب الحق أو من عليه الحق فيأبىٰ أن يشهد أو يزيد في شهادته أو ينقص، فعلىٰ هذا يكون نهياً للكاتب والشاهد عن إضرار من له الحق أو عليه الحق، ويدل علىٰ ذلك قراءة عمر رضي الله عنه شذوذاً: ﴿ولا يضارِر﴾ بالفك والكسر، واختار الزجاج هذا القول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾؛ وذلك لأن اسم الفسق بمن يحرف الكتابة، وبمن يمتنع عن الشهادة حتىٰ يبطل الحق بالكليَّة أولىٰ منه بمن أبرم الكاتب والشهيد؛ ولأنه تعالىٰ قال فيمن يمتنع من الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ والآثم والفاسق متقاربان. وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: بأن يقولا علينا شغل ولنا حاجة.

ويحتمل أن يكون مبنياً للمفعول، فالمعنى علىٰ هذا: ﴿ولا يضارَر﴾ بفتح الراء الأولىٰ ﴿كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بأن يدعيا إلىٰ ذلك، وهما مشغولان بمهمٍّ لهما ويضيق عليهما في الإجابة، ويؤذيا إن حصل منهما التراخي، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، وكأن يكلفا بما لا يليق في الكتابة والشهادة، ولا يعطىٰ الكاتب جُعْله، ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كانت، فإن لهما طلب الجُعْل، ولا يكلفان الكتابة والشهادة مجاناً، فعلىٰ هذا يكون نهياً لصاحب الحق أو من عليه الحق عن إضرار الكاتب والشاهد، ويدل علىٰ ذلك قراءة ابن مسعود شذوذاً: ﴿ولا يضارَر﴾ بالفك وفتح الراء الأولىٰ، ولو كان هذا نهياً للكاتب والشاهد لقيل: وإن تفعلا فإنه فسوق بكما.

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ﴾ ما نهيتم عنه من ضرار الكاتب والشهيد، أو من ضرار صاحب الحق ومن عليه الحق؛ أي: وإن تضاروا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الضرار ﴿فُسُوقُۢ﴾؛ أي: خروج عن الطاعة ومأثم ملتبس ﴿بِكُمۡۗ﴾ ولا حق بكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله، واحذروه فيما نهاكم عنه من المضارة وغيرها، أو المعنىٰ: واتقوا الله في جميع أوامره ونواهيه. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ما يكون إرشاداً واحتياطاً لكم في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدين ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من مصالح الدنيا والآخرة ﴿عَلِيمٞ﴾، فلا يخفىٰ عليه شيء من أحوالكم. وكرر لفظة[1] ﴿ٱللَّهُۗ﴾ في الجمل الثلاث لاستقلالها؛ فإن **الأولىٰ**: حث على التقوىٰ، **والثانية**: وعد بإنعامه، **والثالثة**: تعظيم لشأنه؛ ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية، وهذا آخر آية الدين، وقد حث الله سبحانه وتعالىٰ فيها علىٰ الاحتياط في أمر الأموال؛ لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد.

و﴿علىٰ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ بمعنىٰ: في، أو بمعنىٰ: إلىٰ؛ أي: وإن كنتم مسافرين، أو متوجهين إلىٰ السفر، وتعاملتم بالمداينة ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾ أو آلة الكتابة في سفركم ﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾؛ أي: فالوثيقة رهان مقبوضة، أو فرهان مقبوضة بدل من الشاهدين والكتابة، أو فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضةٌ يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه. قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ كما ثبت في «الصحيحين»: أنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: رهن درعا له من يهودي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كَاتِبٗا﴾ بالإفراد. وقرأ أُبيّ ومجاهد وأبو العالية شذوذاً: ﴿كتاباً﴾ علىٰ أنه مصدر، أو جمع كاتب كصاحب وصحاب، ونفي الكاتب يقتضي نفي الكتابة، ونفي الكتابة يقتضي أيضاً نفي الكتب.

---

(١) البيضاوي.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عباس والضحاك شذوذاً أيضاً: ﴿كُتّاباً﴾ علىٰ الجمع اعتباراً بأن كل نازلة لها كاتب. وروي عن أبي العالية شذوذاً أيضاً: ﴿كُتباً﴾ جمع كتاب، وجمع اعتباراً بالنوازل أيضاً.

وقرأ الجمهور: ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ جمع رهن، نحو كَعْب وكِعَاب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فرُهُن﴾ بضم الراء والهاء. وروي عنهما شذوذاً تسكين الهاء. وقرأ بكل واحدة منهما جماعة غيرهما.

والرهن لغة[1]: الثبوت والدوام، يقال: رهن الشيء إذا دام وثبت. وشرعاً: ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه ديناً، يُستوفىٰ منه الدين عند تعذر الوفاء. واتفق العلماء علىٰ جواز الرهن في الحضر والسفر جميعاً، ومع وجود الكاتب وعدمه، والظاهر من قوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ اشتراط القبض. وأجمع الناس علىٰ صحة قبض المرتهن وقبض وكيله مِثلاً.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: فإن أمن الدائن فاستغنىٰ عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾؛ أي: فليدفع المدين الذي اؤتمن علىٰ الدين ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾؛ أي: حق صاحبه.

وحاصل المعنى: فإن وثق رب الدين بأمانة الغريم، فدفع إليه ماله بغير كتاب ولا إشهاد ولا رهن.. فليؤدِ الغريم أمانته؛ أي: ما ائتمنه عليه رب المال. وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿فإن أُومن﴾ رباعياً مبنياً للمفعول؛ أي؛ آمِنه الناس، هكذا نقل عن أُبيّ هذه القراءة الزمخشري، وقال السجاوندي: وقرأ أُبي شذوذاً: ﴿فإن ائتمن﴾ افتعل من الأمن؛ أي: وثق بلا وثيقة صك ولا رهن. وقرأ ابن محيصن وورش بإبدال الهمزة ياء، كما أبدلت في بئر وذئب، وذلك شذوذاً أيضاً.

وأصل هذا الفعل: اؤتمن بهمزتين الأولىٰ: همزة الوصل، وهي مضمومة والثانية: فاء الكلمة، وهي ساكنة. وقرأ عاصم في شاذّه: ﴿اللذتيمن﴾ بإدغام التاء المبدلة من الهمزة قياساً علىٰ أشر في الافتعال من اليسر، ذكره أبو حيان في

---

(١) الخازن.

«البحر». ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: وليخشَ المدين ربه في أداء الدين عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا إنكار، بل يعامل الدائن معاملة حسنةً، كما أحسن هو ظنه فيه ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ عند الحكم إذا دعيتم إلىٰ أدائها بإنكار العلم بتلك الواقعة، أو بالامتناع من أدائها عند الحاجة إلىٰ إقامتها، وفي «الجمل»: الخطاب للشهود والمديونين، وشهادة المديونين علىٰ أنفسهم: إقرارهم واعترافهم بالدين. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿ولا يكتموا﴾ بالياء علىٰ الغيبة. ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا﴾؛ أي: الشهادة ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾؛ أي: فاجر قلبه؛ لأن كتم الشهادة من معارض القلب؛ لأن الشهادة علم قام بالقلب، فلذلك علق الإثم به، وهو من التعبير بالبعض عن الكل؛ كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها، ومن الخيانة في الأمانة وعدمها ﴿عَلِيمٞ﴾ فيجازيكم علىٰ ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقرأ السلمي شذوذاً: ﴿بما يعملون﴾ بالياء جرياً علىٰ قراءته الشاذة: ﴿ولا يكتموا﴾ بالياء علىٰ الغيبة.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء، أيُّ: منادىٰ نكرة مقصودة ها: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿تَدَايَنتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها: ﴿بِدَيۡنٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَدَايَنتُم﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَدَايَنتُم﴾، أو متعلق بمحذوف صفة لـ﴿دين﴾ تقديره: مؤجل إلىٰ أجل. ﴿مُّسَمّٗى﴾: صفة لـ﴿أجل﴾. ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً ﴿اكتبوه﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب

النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

﴿وَلْيَكْتُب﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام أمر وجزم، مبني على السكون؛ لوقوعها بعد الواو. ﴿يكتب﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿بَّيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يكتب﴾: ﴿كَاتِبٌۢ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلق بقوله: ﴿وَلْيَكْتُب﴾؛ أي: وليكتب كاتب بالعدل، وهذه الجملة مبيِّنة لكيفية الكتابة المأمور بها أولاً ومعينة لمن يتولَّاها إثر الأمر بها إجمالاً، وذكر البَيْن للإيذان بأن الكاتب ينبغي له أن يتوسط في المجلس بين المتداينين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَأْبَ كَاتِبٌ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿أَن يَكْتُبَ﴾: فعل وناصب، وفاعله ضمير يعود على ﴿كَاتِبٌ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ولا يأب كاتب كتابته. ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾ حرف جر وتعليل ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: كتابة الوثائق، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدريةُ، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بكاف التعليل تقديره: لتعليم الله إياه كتابة الوثائق، الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ﴾؛ أي: يحرم عليه الإباء والامتناع من الكتابة؛ لأجل تعليم الله تعالى إياه إياها، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة، وجملة ﴿عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ عائد على ﴿ما﴾ والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره: ولا يأب كاتب أن يكتب كتاباً مثل الكتاب الذي علَّمه الله في كتابة الوثائق.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿اللام﴾ لام أمر وجزم. ﴿يكتب﴾:

مجزوم بها، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كَاتِبٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ مؤكِّدة لها، أو معطوفة علىٰ جملة قوله؛ ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ مؤكِّدة للأمر اللازم للنهي. ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام الأمر. ﴿يملل﴾: مجزوم بها. ﴿الَّذِى﴾: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾. ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير المجرور. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: لام الأمر ﴿يتقِ الله﴾: فعل ومفعول مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾. ﴿رَبَّهُ﴾: بدل من لفظ الجلالة ومضاف إليه. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية جازمة. ﴿يبخس﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود علىٰ: ﴿الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور. إما متعلق بـ﴿يَبْخَسْ﴾، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، والضمير للحق، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف حال من شيئاً؛ لأنه في الأصل صفة للنكرة، فلما قدم عليها.. نصب حالاً ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به لـ﴿يَبْخَسْ﴾، أو منصوب علىٰ المفعولية المطلقة لـ﴿يَبْخَسْ﴾؛ أي: ولا يبخس منه بخساً شيئاً.

﴿فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره إذا عرفت حكم ما إذا كان المدين رشيداً كاملاً، وأردت بيان حكم ما إذا كان سفيهاً أو ضعيفاً.. فأقول لك ﴿إن كان﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿الَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع اسم كان. ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿سَفِيهًا﴾: خبر كان ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: معطوف علىٰ ﴿سَفِيهًا﴾. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع. ﴿لَا﴾: نافية

﴿يَسۡتَطِيعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿سَفِيهًا﴾ علىٰ كونها خبراً لـ﴿كَانَ﴾ تقديره: فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو غير مستطيع. ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُمِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره: هو، يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، ﴿هُوَ﴾: توكيد للضمير المستتر في ﴿يُمِلَّ﴾، وجملة ﴿يُمِلَّ﴾ صلة ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لـ﴿يستطيع﴾ تقديره: أو لا يستطيع الإملال.
﴿فَلۡيُمۡلِلۡ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجوب جملة طلبية. ﴿اللام﴾: لام أمر وجزم ﴿يملل وليه﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، مجزوم بلام الأمر. ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ متعلق بـ﴿يملل﴾، وجملة ﴿يملل﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿استشهدوا شهيدين﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾، صفة لـ﴿شَهِيدَيۡنِ﴾، أو متعلق بـ﴿استشهدوا﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ في أول الآية ﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت أنه يستشهد الرجلان إن وجدا، وأردت بيان حكم ما إذا لم يوجدا.. فأقول لك: ﴿إن لم يكونا﴾: (إن): حرف شرط، ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُونَا﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾، والألف اسمها، ﴿رَجُلَيۡنِ﴾: خبرها، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونها فعل شرط لها. ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿رجل﴾: مبتدأ، ﴿وَٱمۡرَأَتَانِ﴾: معطوف عليه، والخبر محذوف جوازاً تقديره: فرجل وامرأتان

يشهدون، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رجل وامرأتين﴾، وهذا الشرط[1]، وإن كان مشترطاً في الرجُلين أيضاً بالأحاديث والآيات الأُخر كآية: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، لكن اقتصر علىٰ التنصيص عليه في جانب الرجل والمرأتين؛ لقلة اتصاف النساء به غالباً. وقيل: هو متعلق بـ﴿استشهدوا﴾ المتعلق بالصورتين، ﴿تَرْضَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره ممن ترضونه، ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من العائد المحذوف في ﴿تَرْضَوْنَ﴾ تقديرُهُ: ممن ترضونه حال كونه بعض الشهداء.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَضِلَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه، ﴿فَتُذَكِّرَ﴾: الفاء عاطفة. ﴿تذكر﴾: معطوف علىٰ ﴿تَضِلَّ﴾. ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾: مفعول به، وجملة ﴿تَضِلَّ﴾ من الفعل والفاعل صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما اشترط تعدد النساء؛ لأجل تذكير إحداهما الأخرىٰ إذا ضلت ونسيت تلك الأخرى، والمعول عليه في التعليل: التذكير؛ لأنه المقصود من الجملة، ولكن لما كان الإضلال سبباً فيه.. قدم عليه؛ كقولهم: أعددتُ الخشبة أن يميل الجدار، فأدعمه بها. فالإدعام علة في إعداد الخشبة، والميل علة الإدعام.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾: فعل وفاعل وجازم، ومفعوله محذوف تقديره: إقامة الشهادة، والجملة مستأنفة ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد

(١) الجمل.

عن معنىٰ الشرط. ﴿مَا﴾: زائدة ﴿دُعُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بقوله؛ ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ تقديره: ولا يأب الشهداء، ويمتنع من إقامة الشهادة وقت دعائهم إليها.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل وجازم، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾. ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول وناصب، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية تقديره: ولا تسأموا كتابته. ﴿صَغِيرًا﴾: حال من ضمير المفعول. ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الهاء في تكتبوه تقديره: حالة كونه مستقراً في الذمة إلىٰ حلول أجله، أو متعلق بـ﴿تَكْتُبُوهُ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أَقْسَطُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَقْسَطُ﴾؛ لأن اسم التفضيل يعمل في الظروف والمجرورات. ﴿وَأَقْوَمُ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَقْسَطُ﴾. ﴿لِلشَّهَٰدَةِ﴾: متعلق به. ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَقْسَطُ﴾. ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تَرْتَابُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإلىٰ المقدَّرة المتعلِّقة بأدنىٰ تقديره: وأدنى وأقرب إلىٰ عدم ارتيابهم في جنس الدين ونوعه وقدره وشهوده.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء من عام الأحوال. ﴿أَن تَكُونَ﴾: ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾، واسمها ضمير يعود علىٰ المعاملة ﴿تِجَٰرَةً﴾: خبرها منصوب. ﴿حَاضِرَةً﴾: صفة لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، وجملة

﴿تَكُونَ﴾ من اسمها وخبرها صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ الاستثناء تقديره: ولا تسأموا كتابته في جميع الأحوال إلا حالة كون المعاملة تجارة حاضرة. ﴿تُدِيرُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، ولكنها سببية، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تديرونها﴾ ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء تعليلية، ﴿ليس﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر مقدم لـ﴿ليس﴾، ﴿جناح﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿ليس﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما استثنينا تجارة حاضرة لعدم ثبوت الجناح عليكم في عدم كتابتها، وإنما جعلنا الفاء تعليلية، لأن الفاء بعد الاستثناء للتعليل غالباً. وفي «الجمل»: أنها عاطفة. ولا معنىٰ للعطف هنا. ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ﴿لا﴾: نافية ﴿تَكْتُبُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿في﴾ المحذوفة تقديره: فليس عليكم جناح في عدم كتابتها، والجار المقدر متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿ليس﴾.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿أشهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط. ﴿تَبَايَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿أشهدوا﴾؛ أي: وأشهدوا وقت مبايعتكم. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿لا﴾: نافية ﴿يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾: فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ ﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿كَاتِبٌ﴾: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الواو استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَفْعَلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿إنه﴾: حرف نصب وتوكيد، والهاء اسمها. ﴿فُسُوقٌۢ﴾: خبرها. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة

لـ﴿فُسُوقٌۢ﴾: تقديره: فسوق لاحق بكم، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اتقوا الله﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿يعلمكم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مصالح أموركم. والجملة مستأنفة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، ﴿وَلَمْ تَجِدُوا﴾: الواو عاطفة. ﴿لم تجدوا﴾: فعل وفاعل وجازم، والجملة معطوفة علىٰ جملة الشرط ﴿كَاتِبًا﴾: مفعول به؛ لأن وجد هنا بمعنىٰ: أصاب، يتعدىٰ لمفعول واحد. وفي «الفتوحات»: في هذه الجملة ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها عطف علىٰ فعل الشرط؛ أي: وإن كنتم لم تجدوا كاتباً. فتكون في محل جزم تقديراً.

والثاني: أن تكون معطوفة علىٰ خبر كان؛ أي: وإن كنتم لم تجدوا كاتباً.

والثالث: أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها نصب علىٰ الحال فهي علىٰ هذين الوجهين الأخيرين في محل نصب. ا هـ «سمين». ﴿فَرِهَٰنٌ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿رِهانٌ﴾: مبتدأ، ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ صفةٌ له، والخبر محذوف تقديره: وثيقة لدَينكم، والجلمة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا كنتم علىٰ سفر، ولم تجدوا كاتباً، ولم يأمن بعضكم بعضاً، وأردتم بيان حكم ما إذا أمن بعضكم بعضاً.. فأقول لكم: ﴿إنْ أمن بعضكم﴾: إن: حرف شرط ﴿أَمِنَ بَعْضُكُم﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به، ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط، اللام: لام أمر وجزم، ﴿يؤدِ الذي﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿ٱؤْتُمِنَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾: مفعول به، لـ﴿يؤدِ﴾، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾: الواو عاطفة، واللام لام الأمر، ﴿يتقِ الله﴾: فعل ومفعول به، مجزوم بلام الأمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾. ﴿رَبَّهُۥ﴾: بدل من لفظ الجلالة، ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ علىٰ كونها جواباً لـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾: الواو استئنافية. لا: ناهية ﴿تكتموا الشهادة﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَن﴾: الواو عاطفة ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب. ﴿يَكْتُمْهَا﴾: فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿من﴾ علىٰ كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، ﴿فَإِنَّهُۥٓ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية، ﴿إنّ﴾ حرف نصب، والهاء اسمها، ﴿ءَاثِمٌ﴾: خبرها. ﴿قَلْبُهُۥ﴾: فاعل ﴿ءَاثِمٌ﴾، ومضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية.

﴿اللهُ﴾: مبتدأ، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾، وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾: يقال: تداين ـ من باب تفاعل ـ من الدَّين. يقال: داينت الرجل عاملته بدين معطياً أو آخذاً؛ كما يقال: بايعته إذ بعته أو باعك. قال رؤبة:

دَايَنْتُ أَرْوَىٰ وَٱلدُّيُونُ تُقْضَىٰ   فَمَطَلَتْ بَعْضاً وَأَدَّتْ بَعْضَا

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وألف ﴿مُّسَمًّى﴾ منقلبة عن ياء؛ لأنه من التسمية، وكذا كل ألف وقعت رابعة فصاعداً.. تكون منقلبة عن ياء ثم ينظر في أصل الياء، فالياء هنا منقلبة عن واو؛ لأنه من: سما يسمو.

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾: هو من أبىٰ يأبىٰ؛ كسعىٰ يسعىٰ، إذا امتنع.

﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾؛ أي: وليسمع ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾: الكاتب الألفاظ التي يكتبها ويلقيها عليه، أملَّ وأملىٰ لغتان فصيحتان معناهما واحد، الأولىٰ: لأهل الحجاز وبني أسد، والثانية: لتميم، يقال: أمليت وأمللت علىٰ الرجل؛ أي: ألقيت عليه ما يكتبه، وأصل المادتين في اللغة: الإعادة مرة بعد أخرىٰ، قال الشاعر:

أَلاَ يَا دِيَارَ ٱلْحَيِّ بِٱلسَّبُعَانِ   أَمَلَّ عَلَيْهَا بِٱلْبِلَىٰ ٱلْمَلَوَانِ

وقيل: الأصل: أمللت، أبدل من اللام ياء؛ لأنها أخف، والإدغام في مثل ذلك جائز لا واجب، كما قال في «الخلاصة»:

نَحْوِ حَلَلْتُ مَا حَلَلْتُهُ وَفِي   جَزْمٍ وَشِبْهِ ٱلْجَزْمِ تَخْيِيرٌ قُفِي

فلذلك ترك الإدغام هنا، ويأتي الإدغام في ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾.

﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ﴾: والبخس: النقص، يقال منه: بخس زيد عمراً حقه يبخسه بخساً إذا نقصه، وبابه: قطع، وأصله من: بخست عينه، فاستعير لبخس

الحق، كما قالوا: عورت حقه استعارة عن عور العين، ويقال: بخصته بالصاد، ويقال للبيع إذا كان قصداً لا بخس فيه ولا شطط.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: السأم والسآمة: الملل من الشيء والضجر منه، يقال: سَئِم يسأم من باب: تعب مهموز، ويقال: سَئِمته أسأمه، وسئمت منه، وفي التنزيل: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ فهو يتعدىٰ بنفسه، وبواسطة حرف الجر، ومنه قول الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ ٱلْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمَانِيْنَ حَوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

﴿صَغِيرًا﴾: الصغير اسم فاعل من صغر يصغر، ومعناه: قلة الجرم، ويستعمل في المعاني أيضاً.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: من أقسط الرباعي علىٰ غير قياس، وكذلك قوله: ﴿وَأَقْوَمُ﴾؛ إذ القياس أن يكون بناء أفعل التفضيل من المجرد لا من المزيد. وفي «المختار»: القسوط: الجور والعدول عن الحق، وبابه: جلس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. انتهى. والقِسط[1] بكسر القاف: العدل، يقال منه: أقسط الرجل إذا عدل، وبفتح القاف: الجور، ويقال منه: قسط الرجل إذا جار. والقسط بالكسر أيضاً النصيب.

﴿فَرِهَٰنٌ﴾: جمع رهن بمعنىٰ مرهون من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، يقال: رهن يرهن رهناً من باب فتح، والرهن: ما دفع إلىٰ الدائن علىٰ استيثاق دينه.

البلاغة

وفي الآية من ضروب الفصاحة[2]:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُب

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾، إذ يفهم من قوله ﴿تداينتم﴾: الدينُ، ومن قوله ﴿فليكتب﴾: الكاتبُ.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ﴾؛ لأن الضلال هنا بمعنىٰ: النسيان، وفي قوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ﴾، وفي قوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾، وفي قوله: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، وفي قوله: ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ كرر الحق للدعاء إلى اتباعه، وأتىٰ بلفظة علىٰ للإعلام أن لصاحب الحق مقالاً واستعلاء.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار أيضاً في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ لزيادة الكشف والبيان، لا لأن الأمر والنهي لغيره كما ذكره أبو السعود.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفائدة تكرار لفظ الجلالة في الجمل الثلاث: إدخال الروع في القلب، وتربية المهابة في النفوس، والتنبيه علىٰ استقلال كل منها بمعنىٰ علىٰ حياله، فإن:

الأولىٰ: حثٌّ علىٰ التقوىٰ.

والثانية: وعد بالإنعام بالتعليم.

والثالثة: تعظيم لشأنه تعالىٰ.

وفي علىٰ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ استعارة تبعية، حيث شبَّه تمكنهم من السفر بتمكن الراكب من مركوبه، وجمع بين الاسم الجليل والوصف الجميل في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ مبالغة في التحذير.

وفي الآية أيضاً: الإيجاز بالحذف، وذلك كثيرٌ، ومن أمثلته قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ حذف متعلِّق الإيمان، وقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾؛ أي: بينكم، وقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: الكتابة والخط، وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ما عليه من الدين، وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: في إملائه، إلىٰ غير ذلك من الأمثلة المذكورة في الآية كما بيَّنها أبو حيان في «البحر».

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ..﴾ مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنه لما ذكر أن من كتم الشهادة فإن قلبه آثم.. ذكر ما انطوىٰ عليه الضمير، فكتمه أو ابداه، فإن الله يحاسبه به، ففيه وعيد وتهديد لمن كتم الشهادة، ولما علق الإثم بالقلب.. ذكر هنا الأنفس فقال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾. وناسب ذكر هذه خاتمة لهذه السورة؛ لأنه تعالىٰ ضمنها أكثر علم الأصول والفروع: من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد والصلاة والزكاة والقصاص والصيام والحج والجهاد والحيض والطلاق والعدة والخلع والإيلاء والرضاعة والربا والبيع وكيفية المداينة، فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالىٰ مالك لما في السموات وما في الأرض، فهو يُلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته، ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس وما تنطوي عليه من النيات، وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة.. نبه علىٰ صفة العلم التي بها تقع المحاسبة في الدار الآخرة بقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ﴾ فصفة الملك تدل

---

(١) البحر المحيط.

علىٰ القدرة الباهرة، وذكر المحاسبة يدل علىٰ العلم المحيط بالجليل والحقير، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين، وغاية الوعيد للعاصين.

قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ..﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما نزل قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآية، أشفقوا منه، ثم أمروا أن يقولوا سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلىٰ التضرع والاستكانة، فكشف عنهم ذلك الكرب، ورفع عنهم المشقة في أمر الخواطر.

ولما كان ابتداء هذه السورة بذكر الكتاب المنزل، وأنه هدىٰ للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب، وبما أنزل إلىٰ الرسول، وإلى من قبله.. كان مختمها بذكر الكتاب، ومن آمن به؛ ليتوافق الابتداء والاختتام، وذلك من أبدع الفصاحة؛ حيث يتلاقىٰ آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم، فبيَّن تعالىٰ في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

أسباب النزول

قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ...﴾ إلىٰ آخر السورة، سبب نزولها: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية، قال: اشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فأتوا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ثم بركوا علىٰ الركب، فقالوا: أي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم.. أنزل الله تعالىٰ في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالىٰ عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قال ـ أي تعالىٰ ـ: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: نعم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: نعم. أخرجه مسلم، وله عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه، وفيه: قد فعلت بدل نعم.

والحديث أخرجه أحمد في «المسند» وابن جرير والبيهقي في «شعب الإيمان».

التفسير وأوجه القراءة

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استدلال علىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فاستدل بسعة ملكه علىٰ سعة علمه؛ أي: له سبحانه وتعالىٰ لا لغيره جميع ما في السموات وما في الأرض، من الأمور الداخلة في حقيقتهما، والخارجة عنهما: من أولي العلم، وغيرهم، فقل غيرهم، فعبَّر ﴿بِمَا﴾؛ لأنهم أكثر؛ أي: له تعالىٰ الكل خلقاً وملكاً وتصرفاً، فالجميع عبيد له وهو مالكهم ﴿وَإِن تُبْدُوا۟﴾؛ أي: وإن تظهروا أيها المكلفون ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: ما في قلوبكم من العزم علىٰ السوء بأن تظهروه للناس بالقول، أو بالفعل ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تسروه بأن تكتموه منهم ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يؤاخذكم به ويجازكم عليه يوم القيامة، ولا تَدْخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه.

فالخواطر الحاصلة في القلب علىٰ قسمين: ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله في حيِّز الوجود، وما لا يكون كذلك، بل تكون أموراً خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها، ولا يمكنه دفعها عن النفس. فالقسم الأول: يكون مؤاخذاً عليه، والثاني: لا يكون مؤاخذاً به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالىٰ تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به» وفي رواية: «ما وسوست به صدورها» متفق عليه.

﴿فَيَغْفِرُ﴾ بفضله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بعدْله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وقد يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، وقد يعذب من يشاء علىٰ الذنب الحقير لا يُسأل عما يفعل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه من المحاسبة والمغفرة والتعذيب وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر.

وقرأ ابن[1] عامر وعاصم ويزيد ويعقوب وسهل: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بالرفع فيهما على القطع والاستئناف علىٰ أن يجعل الفعل خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فهو يغفر. وقرأ باقي السبعة: بالجزم عطفاً علىٰ الجواب، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيوة شذوذاً: بالنصب فيهما علىٰ إضمار: أن، فينسَبِك منها مع ما بعدها مصدر مرفوع معطوف علىٰ مصدر متوهم من الحساب تقديره: يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب، وهذه الأوجه قد جاءت في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُوْ قَابُوسَ يَهْلِكْ ... رَبِيْعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ ... أَجَبِّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامُ

يروى بجزم: ونأخذ، ورفعه ونصبه.

وقرأ الجعفي وخلاد وطلحة بن مصرف شذوذاً أيضاً: ﴿يغفر لمن يشاء﴾، ويرویٰ أنها كذلك في مصحف عبد الله، قال ابن جني: هي علىٰ البدل من ﴿يُحَاسِبْكُم﴾؛ فهي تفسير للمحاسبة. انتهى. قيل: وليس بتفسير بل هما مترتبان علىٰ المحاسبة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: صدق الرسول محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: بأن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزلٌ عليه

---

(١) البحر المحيط.

﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: من عند الله سبحانه وتعالىٰ ﴿و﴾ صدق ﴿المؤمنون﴾ بذلك أيضاً، فيكون المؤمنون مرفوعاً علىٰ الفاعلية عطفاً علىٰ الرسول، فيكون الوقف عليه، ويدل علىٰ صحة هذا قراءة علي رضي الله عنه: ﴿وآمن المؤمنون﴾، فأظهر الفعل. ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الرسول والمؤمنين ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدق بوجوده وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ أي: بوجودهم، وبأنهم معصومون مطهرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم وسائط بين الله وبين البشر، وأن كتب الله المنزلة إنما وصلت إلىٰ الأنبياء بواسطة الملائكة ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وكِتَابه﴾ ـ بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف ـ بالإفراد علىٰ إرادة الجنس وباقي السبعة: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بضم الكاف والتاء بالجمع، أي: كلٌّ صدق بأن هذه الكتب المنزلة وحي من الله تعالىٰ إلىٰ رسله، وأنها ليست من باب الكهانة، ولا من باب السحر، ولا من باب إلقاء الشياطين والأرواح الخبيثة، وأن الشياطين لا يتمكنون من إلقاء شيء من ضلالتهم في أثناء هذا الوحي الظاهر، وأن هذا القرآن الكريم لم يغيَّر ولم يحرَّف. ﴿رُسُلِهِۦ﴾؛ أي: بأن لله رسلاً من البشر أمناء علىٰ وحيه معصومين من الذنوب، أرسلهم إلىٰ عباده المكلفين بشرائع وتكاليف، من أطاعهم دخل الجنة ومن عصاهم دخل النار. وقرأ يحيىٰ[1] بن يعمر شذوذاً: ﴿وكتْبه ورسْله﴾ بإسكان التاء والسين وروي ذلك عن نافع، وقرأ الحسن شذوذاً أيضاً: ﴿ورسْله﴾: بإسكان السين، وهي رواية عن أبي عمرو، وقرأ عبد الله شذوذاً أيضاً: ﴿وكتابه ولقائه ورسله﴾، وقرأ الجمهور ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بضم السين.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ بالنون؛ أي: حالة كون الرسول والمؤمنين يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله في الإيمان بهم كما فعلت اليهود والنصارىٰ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، بل نؤمن بجميع رسله تعالىٰ، ونثبت نبوة جميع الأنبياء، ولا نكفر بأحد منهم. والمقصود من هذا الكلام: إثبات النبوة لكلهم، لا ما ادَّعاه بعضهم من أن المقصود هو عدم

---

(١) البحر المحيط.

التفضيل بينهم.

وقرأ ابن جبير وابن يعمر وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ويعقوب: ﴿لا يفرق﴾ بالياء علىٰ لفظ كل. قال هارون: وهي في مصحف أُبي وابن مسعود: ﴿لا يفرقون﴾ وهو شاذ، حملاً علىٰ معنىٰ كل بعد الحمل علىٰ اللفظ.

﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: وقال المؤمنون أيضاً: ﴿سَمِعْنَا﴾؛ أي: أجبنا قولك يا إلٰهنا فيما كلفتنا به ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: امتثلنا أمرك يا مولانا في ذلك، وقدّم ﴿سَمِعْنَا﴾ علىٰ ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ لأن التكليف طريقهُ السمع، والطاعة بعده، وينبغي للمؤمن أن يكون قائلاً هذا دهره وحياته. ﴿غُفْرَانَكَ﴾؛ أي: نسألك غفرانك لذنوبنا يا ﴿رَبَّنَا﴾ وما قصرنا في حقك يا إلٰهنا ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا إلٰهنا لا إلىٰ غيرك ﴿الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع بعد الموت؛ يعني قالوا: إليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وفيه إقرار بالبعث والجزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ظاهره أنه إخبار من الله سبحانه وتعالىٰ مستأنف أخبر به أنه لا يكلف العباد من أفعال القلوب والجوارح إلا ما هو في وسع المكلف، والمعنى: أنكم إذا سمعتم وأطعتم ولم تتعمدوا والتقصير، فلو وقع منكم نوع تقصير علىٰ سبيل السهو والغفلة.. فلا تكونوا خائفين منه، فإن الله تعالىٰ لا يكلف نفساً ولا يلزمها من التكاليف والطاعات إلا وسعها وطاقتها؛ أي: إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمة منه تعالىٰ، فلا يتعبدها بما لا تطيق.

وقيل: هذا من كلام الرسول والمؤمنين؛ أي: وقالوا: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والمعنى: أنهم لما قالوا: سمعنا وأطعنا.. قالوا: كيف لا نسمع ذلك ولا نطيع وهو تعالىٰ لا يكلفنا إلا ما في وسعنا!.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿إلا وسعها﴾ جعله فعلاً ماضياً، وأوَّلوه علىٰ إضمار ﴿ما﴾ الموصولة؛ أي: إلا ما وسعها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعملت من الخير، أي: للنفس ثواب ما عملته من الخير وأجره ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: وعليها وزر ما عملته من الشر وعقابه؛ أي: لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشرِّ؛ لأن الاكتساب فيه اعتمال واشتهاء

وانجذاب، والشر تشتهيه النفس، وتنجذب إليه، فكانت أجد في تحصيله وأعمل، بخلاف الخير فإنه ثقيل عليها. وجاء في الخير بـ﴿اللام﴾؛ لأنه ما يفرح به ويسر، فأضيف إلىٰ ملكه، وجاء في الشر بـ﴿على﴾ من حيث هو أوزار وأثقال، فجعلت قد عَلَته، وصار تحتها يحملها، وهذا كما تقول: لي مال وعليَّ دين.

وقولوا في دعائكم: يا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾؛ أي: لا تعاقبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ طاعتك؛ أي: إن تركنا أمراً من أوامرك نسياناً ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ في أمرك إن تركنا الصواب فيه لا عن تعمد، كتأخير الصلاة عن وقتها في حالة الغيم جهلاً به، وكقتل الخطأ المشهور، وهذا تعليم منه سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين كيف يدعونه، ومعناه: قولوا في دعائكم: ربنا لا تؤاخذنا؛ أي: لا تعاقبنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين.

وقد[1] استشكل هذا الدعاء جماعة من المُفسِّرين وغيرهم قائلين: إن النسيان والخطأ مغفوران غير مؤاخذ بهما، فالدعاء بذلك من تحصيل الحاصل. وأجيب عن ذلك: بأن المراد طلب ترك المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلىٰ النسيان والخطأ من التفريط، وعدم المبالاة، لا من النسيان والخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما، كما يفيد ذلك قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه ابن ماجه وابن منذر وابن حبان في «صحيحه» والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في «سننه» وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إنه للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته. وقيل: سؤاله علىٰ سبيل إظهار النعمة والتحدث بها علىٰ حد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، والصحيح أنه يختلف ذلك باختلاف الوقائع، فقسمٌ: لا يسقط باتفاق، كالغرامات والدِّيات والصلوات المفروضات، وقسم: يسقط باتفاق، كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه: كمن أكل ناسياً في رمضان، أو حنث ساهياً، وما كان مثله مما يقع

(١) الشوكاني.

خطأً أو نسياناً، ويعرف ذلك في الفروع. انتهىٰ. ومن هنا إلىٰ آخر السورة سبع دعوات مستجابة.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾؛ أي: وقولوا يا ربنا لا تكلفنا بالأمور الشاقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ من بني إسرائيل؛ أي: لا تشدد علينا في التكاليف كما شددت علىٰ من قبلنا من اليهود. وفي قراءة أُبيّ بالتشديد شذوذاً في: ﴿ولا تحمِّل علينا إصراً﴾ إفادةً للتكثير.

قال المفسرون[1]: إن الله تعالىٰ فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة، وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة.. أمر بقطعها، وكانوا إذا نسوا شيئاً.. عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة.. حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم، ومن أصاب ذنباً.. أصبح وذنبه مكتوب علىٰ بابه، ونحو ذلك من الأثقال والآصار التي كتبت عليهم، فسأل المسلمون ربهم أن يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة، وقد أجاب الله دعائهم برحمته، وخفف عنهم بفضله وكرمه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾؛ أي: قوة ﴿لَنَا بِهِۦۖ﴾ من البلاء والعقوبة النازلة بمن قبلنا أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية، وهذا أعم من الإصر السابق؛ لتخصيصه بالتشبيه وعموم هذا، والتشديد في ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾: للتعدية. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾؛ أي: أمح أثار ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: واستر عيوبنا، ولا تفضحنا بالمؤاخذة بين رؤوس الأشهاد ﴿وَٱرْحَمْنَآۚ﴾؛ أي: تعطف بنا وتفضل علينا ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي؛ ناصرنا وحافظنا ولينا ومتولي أمورنا، ونحن عبيدك. ويقال: واعف عنا من المسخ كما مسخت قوم عيسىٰ، واغفر لنا من الخسف كما خسفت بقارون، وارحمنا من القذف كما قذفت قوم لوط، فلما دَعَوا بهذا الدعاء رفع الله عنهم ذنوب حديث النفس والنسيان والخطأ والاستكراه، وعفا عنهم من

---

(١) مراح خازن.

الخسف والمسخ والقذف. ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الجاحدين الذين عبدوا غيرك، وجحدوا وحدانيتك؛ أي: انصرنا عليهم في محاربتنا معهم، وفي مناظرتنا بالحجة معهم، وفي إعلاء دولة الإسلام علىٰ دولتهم، فإن من حق المولىٰ أن ينصر مواليه علىٰ الأعداء. روي أنه ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة: قد فعلت.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسري برسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم انتهىٰ به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض منها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال: فراشٌ من ذهب. قال: فأُعطي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر ـ لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً ـ المقحمات. أخرجه مسلم. المقحمات: الذنوب التي تولج مرتكبها النار، وأصل الاقتحام: الولوج.

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه» متفق عليه. معناه: كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان، فلا يقربه تلك الليلة. وقيل: كفتاه عن قيام الليل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عنده جبريل عليه السلام، إذ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل بصره إلىٰ السماء فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل من السماء إلىٰ الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشرْ بنورين أوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته. أخرجه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله كتب لنا كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب.

ولما مدح الله سبحانه وتعالىٰ المتقين في أول السورة.. بيّن في آخر السورة أنهم أمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ وهذا هو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ثم قال ها هنا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ وهو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهو المراد بقوله هناك: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكىٰ الله تعالىٰ عنهم هاهنا كيفية تضرعهم إلىٰ ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ إلىٰ آخر السورة، وهو المراد بقوله تعالىٰ هناك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها.

الإعراب

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾.

﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة و ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولىٰ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾: جار ومجرور صلة لها، أو صفة لها.

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم ﴿تُبْدُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية؛ لأنه معطوف علىٰ فعل الشرط

﴿يُحَاسِبْكُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواب الشرط ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿فَيَغْفِرُ﴾ الفاء بمعنىٰ الواو الاستئنافية ﴿يغفر﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو يغفر لمن يشاء، والجملة الاسمية مستأنفة. هذا علىٰ قراءة الرفع، وأما علىٰ قراءة الجزم فمعطوفٌ علىٰ يحاسبكم. وقرىء شذوذاً بالنصب كما مر علىٰ إضمار ﴿أن﴾؛ فينسبك منها مع ما بعدها مصدرٌ مرفوع معطوف علىٰ مصدر متصيَّد من ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ تقديره: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب، وهذه الأوجه الثلاثة قد جاءت في قول الشاعر:

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُوْ قَابُوْسَ يَهْلِكْ رَبِيْعُ ٱلنَّاسِ وَٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبُّ ٱلظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِنَامُ

يروى بجزم ونأخذ ورفعه ونصبه كما سبق. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾: معطوف علىٰ ﴿يغفر﴾ بالأوجه الثلاثة السابقة ﴿مَن﴾: اسم موصول مفعول ﴿يعذب﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: يشاء تعذيبه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود

علىٰ ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير النائب ﴿إِلَيْهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أيضاً، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه مرفوع بالفاعلية عطفاً علىٰ الرسول، فيكون الوقف عليه، ويكون قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ﴾ جملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر مستأنفة استئنافاً بيانياً تدل علىٰ أن جميع من تقدم ذكره آمن بما سيذكر بعدها.

والثاني: أن يكون المؤمنون مبتدأ أول، و ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ ثانٍ، و ﴿ءَامَنَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره: خبر عن المبتدأ الأول، وعلىٰ هذا فلا بد من رابط يربط بين الجملة الصغرىٰ والكبرىٰ، وهو محذوف تقديره: كلٌّ منهم، كقولهم: السَّمْنُ منوان بدرهمٍ، تقديره: منوانٍ منه ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾: معطوف علىٰ الجلالة ومضاف إليه، وكذا قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوفان علىٰ لفظ الجلالة.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾.

﴿لَا﴾: نافية ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿نُفَرِّقُ﴾، والجملة الفعلية مقول لقول محذوف تقديره: يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله، والقول المحذوف حال من الضمير المستتر في ﴿ءَامَنَ﴾ تقديره: كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله حالة كونهم قائلين لا نفرق بين أحد.

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ الواو عاطفة ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، وكذلك جملة ﴿أطعنا﴾: معطوفة علىٰ جملة ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿غُفْرَانَكَ﴾: مفعول لفعل محذوف ومضاف إليه تقديره: نسألك غفرانك،

والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَإِلَيْكَ﴾: الواو عاطفة ﴿إليك﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿سَمِعْنَا﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قالوا﴾ وفي «الجمل»: أنها معطوفة علىٰ مقدَّر؛ أي: فمنك مبدأنا، وإليك المصير.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

﴿لَا﴾: نافية ﴿يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَفْسًا﴾: مفعول أول ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿وُسْعَهَا﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. ﴿لَهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿نَفْسًا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾: الواو عاطفة ﴿عليها﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾. ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿نَفْسًا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما اكتسبته. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ إلىٰ آخر السورة: مقول محكي لقول محذوف تقديره: قولوا في دعائكم: ربنا لا تؤاخذنا، وجملة القول المحذوف مستأنفة، وإن شئت قلتَ: ﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: ﴿لَا﴾: دعائية جازمة ﴿تُؤَاخِذْنَآ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لَا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿نَّسِينَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتفصيل. ﴿أَخْطَأْنَا﴾: فعل وفاعل في محل

الجزم معطوف علىٰ ﴿نَّسِينَآ﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن نسينا أو أخطأنا لا تؤاخذنا بذلك النسيان أو الخطأ، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول للقول المحذوف.

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية. ﴿تَحْمِلْ﴾: مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: لا تؤاخذنا. ﴿عَلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَحْمِلْ﴾. ﴿إِصْرًا﴾: مفعول به ﴿كَمَا﴾: الكاف حرف جر ﴿ما﴾: مصدرية. ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَمَلْتَهُۥ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ولا تحمل علينا إصراً حملاً كائناً كحملك علىٰ الذين من قبلنا. ﴿مِن قَبْلِنَا﴾: ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿قَبْلِنَا﴾: مجرور ومضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: دعائية. ﴿تُحَمِّلْنَا﴾: فعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿لا﴾ الدعائية، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾. ﴿مَا لَا طَاقَةَ﴾؛ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿طَاقَةَ﴾: اسمها ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿طَاقَةَ﴾؛ لأنه اسم مصدر من: أطاق الرباعي، وجملة ﴿لَا﴾ من اسمها وخبرها صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱعْفُ﴾ الواو عاطفة، والجمل الثلاث معطوفات علىٰ جملة قوله: ﴿لَا

﴿تُؤَاخِذۡنَآ﴾، وكذا جملة قوله؛ ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ معطوفة عليها. ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الفاء: عاطفة سببية ﴿انصرنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿انصرنا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ من أبدىٰ الرباعي، يقال: أبدىٰ ما في ضميره إذا أظهره بفعله أو قوله. ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ من أخفىٰ الرباعي، يقال: أخفىٰ الشيء إذا أسره في نفسه، وقدِّم الإبداء هنا علىٰ الإخفاء؛ لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البادية، وأما تقديم الإخفاء في قوله تعالىٰ في آل عمران: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾؛ فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية والبادية علىٰ السوية، وقدم المغفرة علىٰ التعذيب؛ لكون رحمته سبقت غضبه.

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمصير[1]: مصدرٌ ميميٌّ من صار يصير صيرورة ومصيراً، وهو مبني علىٰ مفعِل بكسر العين، وقد اختلف النحويون في بناء المفعل مما عينه ياء نحو: يبيت ويعيش، فذهب بعضهم إلىٰ أنه كالصحيح نحو: يضرب يكون للمصدر بالفتح، وللمكان والزمان بالكسر نحو ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾؛ أي: عيشاً. والمصير بمعنى الصيرورة علىٰ هذا شاذ، وذهب بعضهم إلىٰ التخيير في المصدر بين أن تبنيه علىٰ مفعِل بكسر العين أو مفعَل بفتحها، وأما الزمان والمكان فبالكسر ذهب إلىٰ ذلك الزجاج، ورده عليه أبو علي، وذهب بعضهم إلىٰ الاقتصار علىٰ السماع، فحيث بنت العرب المصدر على مفعِل أو مفعل اتبعناه، وهذا المذهب أحوط.

﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ والوسع بتثليث الواو كما في «القاموس»: دون المجهود في

---

(١) أبو حيان.

المشقة، وهو ما يتسع له قدرة الإنسان، يقال: وسعه الشيء بالكسر يسعه سعة بالفتح، والسعة بالفتح الجدة والطاقة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ يقرأ[1] بالهمزة وهو من الأخذ بالذنب، ويقرأ بالواو ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الأخذ أيضاً، وإنما أبدلت الهمزة واو لانفتاحها وانضمام ما قبلها، وهو تخفيف قياسي.

ويحتمل أن يكون من: وَاخَذَهُ بالواو. قاله: أبو البقاء. وجاء هنا بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد وهو الله؛ لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله، فكأنه أعان من يعاقبه بذنبه، ويأخذ به علىٰ نفسه فحسنت المفاعلة، ويجوز أن يكون من باب سافرت وعاقبت وطارقت.

﴿إِصۡرٗا﴾ الإصر: العناء الثقيل الذي يأصر صاحبه؛ أي: يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة، ذكره أبو السعود. وفي «المختار»: أصره يأصره ـ من باب: ضرب ـ إصراراً إذا حبسه، ويطلق علىٰ كل ما يثقل علىٰ النفس كشماتة الأعداء.

﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: والطاقة القدرة علىٰ الشيء، وهي في الأصل مصدر جاء علىٰ حذف الزوائد، وكان من حقها إطاقة؛ لأنها من أطاق، ويصح أن تكون اسم مصدر لأطاق الرباعي.

﴿مَوۡلَىٰنَا﴾ المولىٰ: مفعل من: ولىٰ يلي، وهو هنا مصدر ميمي يراد به اسم الفاعل ويجوز أن يكون علىٰ حذف مضاف؛ أي: صاحب تولينا؛ أي: نصرتنا.

البلاغة

وقد تضمنت الآية من ضروب البلاغة أنواعاً:

---

(١) الجمل.

منها: الطباق بين قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وكذا بين ﴿فَيَغْفِرُ﴾، و ﴿وَيُعَذِّبُ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي بين: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ لأن ﴿لَهَا﴾ إشارة إلىٰ ما يحصل به نفع ﴿وَعَلَيْهَا﴾ إشارة إلىٰ ما يحصل به ضرر، وقدم ﴿لَهَا﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ علىٰ الفعلين؛ ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، وعليها لا علىٰ غيرها، وإنما كرر الفعل وخالف بين التصريفين تحسيناً للنظم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كرر ﴿ما﴾ تنبيهاً وتوكيداً للكلام.

ومنها: الجناس المغاير، ويسمىٰ جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: تكرير النداء بين المتعاطفات لإظهار مزيد الضراعة والالتجاء إلىٰ الرب الكريم.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

ومنها: الاستعارة المصرحة في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾؛ لأن الإصر في الأصل: الحمل الثقيل الذي يحبس صاحبه في مكانه، والمراد به هنا: التكاليف الشاقة.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي؛ آمنوا بالله ورسله. وفي مواضع أخرىٰ عديدة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

تتمة

وخلاصة ما في هذه السورة من أمهات الشريعة خمسة عشر:

الأول: دعوة الناس جميعاً إلىٰ عبادة ربهم.

والثاني: عدم اتخاذ أنداد له.

والثالث: ذكر الوحي والرسالة، والحجاج علىٰ ذلك بهذا الكتاب المنزل علىٰ عبده، وتحدي الناس كافة بالإتيان بمثله.

والرابع: ذكر أُسِّ الدين، وهو توحيد الله.

والخامس: إباحة الأكل من جميع الطيبات.

والسادس: ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.

والسابع: الأمر بإنفاق المال في سبيل الله.

والثامن: تحريم الخمر والميسر.

والتاسع: معاملة اليتامىٰ ومخالطتهم في المعيشة.

والعاشر: أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.

والحادي عشر: تحريم الربا والأمر بأخذ ما بقي منه.

والثاني عشر: أحكام الدَّين من كتابة وإشهاد، وشهادة وحكم النساء والرجال في ذلك.

والثالث عشر: وجوب أداء الأمانة.

والرابع عشر: تحريم كتمان الشهادة.

والخامس عشر: خاتمة ذلك كله الدعاء الذي طلب إلينا أن ندعوه به، وعلى الجملة فقد فُصلت فيها الأحكام وضُربت الأمثال وأقيمت الحجج، ولم تشتمل سورة علىٰ مثل ما اشتملت عليه، ومن ثمَّ سمُيت فسطاط القرآن.

خاتمة

قال محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: واعلم أن نزول المنسوخ بمكة كثير، والناسخ بالمدينة كثير، وليس في أم الكتاب شيء منهما، فأما سورة البقرة وهي مدنية، ففيها ستة وعشرون آية من المنسوخ.

الأولى منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية وهي منسوخة بقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ مدنية ٨٥.

والثانية منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ في براءة آية السيف: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ مدنية ٥.

والثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ في براءة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ مدنية: ٢٩.

والرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ هذا محكم، والمنسوخ منها قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ منسوخ بقوله تعالىٰ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة مدنية ١٤٤.

والخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية منسوخة بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ البقرة ١٥٩.

والسادسة: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ الآية، فنسخ منها بالسنَّة بعض الميتة وبعض الدم بقوله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال». وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، ثم رخص للمضطر إذا كان غير باغٍ ولا عاد بقوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

والسابعة: قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا الأخير موضع النسخ منها ـ أعني ـ والأنثى بالأنثى، وباقيها محكم وناسخها قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية المائدة ٤٥ وقيل: ناسخها قوله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ مدنية ٣٣، وقتل الحر بالعبد إسراف، وكذلك قتل المسلم بالكافر.

والثامنة: قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ «النساء مدنية: ١١».

والتاسعة: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنها منسوخة، وذلك أنهم كانوا إذا أفطروا أكلوا وشربوا وجامعوا النساء ما لم يصلوا العشاء الأخيرة أو يناموا قبل ذلك، ثم نسخ الله ذلك بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧ في شأن عمر رضي الله عنه والأنصاري؛ لأنهما جامعا معاً ونزل في صرفه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

والعاشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هذه الآية نصفها منسوخ، وناسخها قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ يعني: فمن شهد منكم الشهر حياً بالغاً حاضراً صحيحاً عاقلاً فليصمه.

والحادية عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ فإنّ خصوصها منسوخ بعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ التوبة مدنية: ٣٦.

والثانية عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فإنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ البقرة مدنية: ١٩١.

والثالثة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ وهذا من الأخبار التي معناها الأمر تأويله: فاغفروا لهم، واعفوا عنهم، ثم أخبار العفو منسوخة بآية السيف بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ التوبة مدنية: ٥.

والرابعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ نسخ عمومها بخصوص قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن

رَأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

والخامسة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية التوبة مدنية: ٦٠.

والسادسة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية التوبة مدنية: ٥.

والسابعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، فلما نزلت هذه الآية امتنع قوم عن شربها، وبقي قوم علىٰ شربها، ثم أنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣، وكانوا يشربون بعد العشاء الآخرة، ثم يرقدون، ثم يقومون من غد وقد صحوا، ثم يشربونها بعد الفجر إن شاؤوا فإذا جاء وقت الظهر لا يشربونها البتة، ثم أنزل الله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة مدنية: ٩٠؛ أي: فاتركوه.

والثامنة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ يعني: الفضل من أموالكم منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ الآية التوبة مدنية: ١٠٣.

والتاسعة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ نسخ عمومها الكتابيات والوثنيات بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ المائدة مدنية: ٥.

والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ هذه الآية جميعها محكم إلا كلاماً في وسطها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ نسخ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

الحادية والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ نسخ عمومها بالاستثناء بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

والثانية والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

نسخت بالاستثناء بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فصارت هذه الإرادة بالاتفاق ناسخة لحولين كاملين.

والثالثة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ الآية، نسخت بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وليس في كتاب الله آية تقدم ناسخها علىٰ منسوخها إلا هذه الآية وآية أخرىٰ في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية، نُسخت بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ الآية.

والرابعة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية، منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية التوبة مدنية: ٥.

والخامسة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

والسادسة والعشرون: قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا محكم ثم قال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، فشق نزولها عليهم فقال النبي ﷺ: «ولا تقولوا كما قالت اليهود سمعنا وعصينا، ولكن قولوا سمعنا وأطعنا»، فلما علم الله تسليمهم لأمره.. أنزل ناسخ هذه بقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وخفف الله مع الوسع بقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة مدنية: ١٨٥. انتهى[(١)].

والله أعلم

* * *

(١) وقد تم بحمد الله تعالىٰ وعونه تفسير سورة البقرة في الساعة الثالثة من اليوم الثامن من شهر ربيع الأول المبارك من شهور سنة سبع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية.
بقلم مؤلِّفه الراجي من ربه المنعم سبحانه أن يعينه علىٰ تمامه، وينفع به من شاء من عباده، ويجعله ذخيرة له عنده يوم وفوده إلىٰ دار الآخرة: محمد الأمين بن عبد الله الأرمي الأثيوبي الهرري غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وذريته وأحبابه ولجميع المسلمين. آمين يا رب آمين.

سورة آل عمران

مدنية، ومما يدل[1] علىٰ ذلك أن صدرها إلىٰ ثلاث وثمانين آية نزلت في وفد نصارىٰ نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها.

وآياتها: مئتان باتفاق العادِّين. وكلماتها: ثلاث آلاف وأربع مئة وستون كلمة. وحروفها: أربعة عشر ألفاً وخمس مئة وخمس وعشرون حرفاً.

المناسبة: ومناسبة[2] هذه السورة لما قبلها واضحة؛ لأنه لما ذكر آخر البقرة: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.. ناسب أن يذكر نصره تعالىٰ علىٰ الكافرين؛ حيث ناظرهم رسول الله ﷺ، وردَّ عليهم بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقص تعالىٰ أحوالهم، وردَّ عليهم في اعتقادهم، وذكر تنزيهه تعالىٰ عما يقولون، وبداءةَ خلق مريم وابنها المسيح إلىٰ آخر ما ردَّ عليهم.

ولما كان مفتتح آية آخر البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فكان في ذلك الإيمان بالله وبالكتب.. ناسب ذكر أوصاف الله تعالىٰ، وذكر ما أنزل علىٰ رسوله، وذكر المنزل علىٰ غيره صلوات الله وسلامه علىٰ نبينا وعليهم.

وذكر المراغي[3] في وجه مناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها خمسة أوجه:

الأول منها: أن كلاًّ منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس في الاهتداء، فقد ذكر في الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك، وفي الثانية

---

(١) شوكاني وابن كثير.

(٢) أبو حيان.

(٣) المراغي.

طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وطائفة الراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ويقولون: كلٌّ من عند ربنا.

والثاني منها: أن في الأولى تذكيراً بخلق آدم، وفي الثانية تذكيراً بخلق عيسىٰ، وتشبيه الثاني بالأول في أنه جرىٰ علىٰ غير سنة سابقة في الخلق.

والثالث منها: أن في كل منهما محاجَّة لأهل الكتاب، لكن في الأولىٰ إسهاب في محاجة اليهود واختصار في محاجة النصارىٰ، وفي الثانية عكس هذا؛ لأن النصارىٰ متأخرون في الوجود عن اليهود، فليكن الحديث معهم تالياً في المرتبة للحديث الأول.

والرابع منها: أن في آخر كلٍّ منهما دعاء إلا أن الدعاء في الأولىٰ ينحو نحو طلب النصر علىٰ جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق، وهذا مما يناسب بداءة الدين، والدعاء في الثانية يرمي إلىٰ قبول دعوة الدين، وطلب الجزاء علىٰ ذلك في الآخرة.

والخامس منها: أن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولىٰ؛ كأنها مُتَمِّمة لها؛ فبدُئت الأولىٰ بإثبات الفلاح للمتقين، وختمت هذه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

فائدة: قال محمد بن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»(١): سورة آل عمران كلها محكمة إلا خمس آيات:

الأولىٰ منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ فإنها منسوخة وناسخها آية السيف في سورة التوبة: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾.

والثانية والثالثة والرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ فهذه ثلاثة آيات نزلت في ستة رهط ارتدوا عن الإسلام بعد أن أظهروا الإيمان، ثم استثنىٰ واحداً من الستة وهو سويد بن الصامت، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ فهذه ـ أعني آية الاستثناء ـ

---

(١) الناسخ والمنسوخ.

ناسخة لتلك الثلاث.

والخامسة قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ لما نزلت.. لم يعلم ما تأويلها، فقالوا يا رسول الله، ما حق تقاته؟ فقال ﷺ: «حق تقاته أن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يذكر فلا ينسىٰ، وأن يُشكر فلا يكفر» فقالوا: يا رسول الله، ومَنْ يطيق ذلك؟ فانزعجوا لنزولها انزعاجاً عظيماً، ثم أنزل الله بعد مدة يسيرة آية تؤكد حكمها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ في سورة الحج، فكانت هذه أعظم عليهم من الأولىٰ، ومعناها: اعملوا لله حق عمله، فكادت عقولهم تذهل، فلما علم الله ما قد نزل بهم في هذا الأمر العسير.. خفف فنسخها بالآية التي في التغابن، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وهي مدنية، فكان هذا تيسيراً من التعسير الأول وتخفيفاً من التشديد الأول انتهىٰ.

ومما ورد في فضلها وفضل البقرة: ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال معاوية بن سلام: من رواته بلغني أن البطلة: السحرة.

وروىٰ مسلم أيضاً: عن النواس بن السمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهم رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ. قال «لأنهما غمامتان أو ظلَّتان سودوان بينهما شرق ـ أي: ضوء ـ أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

المناسبة

المناسبة بين هذه الآيات وبين السورة السابقة: فقد مرَّ بيانها آنفاً، فلا عود.

أسباب النزول

فقد روىٰ ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلىٰ نحو ثمانين آية نزلت في نصارىٰ نجران؛ إذ وفدوا علىٰ رسول الله ﷺ، وكانوا نحو ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم: عبد المسيح أميرهم، والأيهم مشيرهم، وأبو حارثة بن علقمة حبرهم. فقدموا علىٰ النبي ﷺ، وخاصموه، فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه ﷺ، فقالوا تارة: عيسىٰ هو الله؛ لأنه كان يحي الموتىٰ، وتارة هو ابن الله؛ إذ ليس له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة؛ لقوله تعالىٰ: فعلنا وقلنا، ولو كان واحداً لقال: فعلتُ وقلتُ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسىٰ يموت»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه»؟ قالوا: بلىٰ، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم علىٰ كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه، فهل يملك عيسىٰ شيئاً»

من ذلك؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما عُلِّم»؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، وأن عيسىٰ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث»؟ قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يكون هذا كما زعمتم» فعرفوا الحق وسكتوا، ثم أبوا إلا الجحود، فأنزل الله تعالىٰ من أول السورة ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ . . .﴾ إلىٰ نيف وثمانين آية.

ووجه الرد عليهم فيها: أنه تعالىٰ بدأ بذكر التوحيد لينفي عقيدة التثليث من أول الأمر، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً؛ أي: قامت به السموات والأرض، وهي وجدت قبل عيسىٰ، فكيف تقوم به قبل وجوده؟ ثم ذكر أنه تعالىٰ نزَّل الكتاب وأنزل التوراة ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل علىٰ من بعده، فليس هو المنزل للكتاب علىٰ الأنبياء، وإنما هو نبي مثلهم، ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذي وهب العقل للبشر؛ ليفرقوا بين الحق والباطل، وعيسى لم يكن واهباً للعقول، ثم قال: أنه لا يخفىٰ عليه شيء مطلقاً سواء أكان في هذا العالم أم في غيره من العوالم السماوية، وعيسى لم يكن كذلك، ثم بيَّن أن الإله هو الذي يصوِّر في الأرحام ليرد علىٰ ولادة عيسىٰ من غير أب؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً علىٰ الألوهية، فالمخلوق عبدٌ كيفما خلق، وإنما الإله هو الخالق الذي يصور الأرحام كيف يشاء، وعيسىٰ لم يصور أحداً في رحم أمه، ثم صرَّح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالىٰ بالعزة والحكمة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ①﴾ الله أعلم بمراده به، قال القرطبي في «تفسيره»: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرٌّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتُمرُّ

كما جاءت. وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

قال: وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله به عزّ وجلّ.

وذكر سيبويه في «الكتاب»[1]: أن فواتح السور التي لم تكن موازنة لمفرد، طريق التلفظ بها: الحكاية فقط، ساكنة الإعجاز علىٰ الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة علىٰ نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما علم أن مغتفر في باب الوقف فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها كما فعله الحسن والأعمش وغيرهما.

وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة علىٰ نمط التعديد.. فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسور.. فمحلها إما الرفع علىٰ أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب علىٰ تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما، وما بعدها كلام مستأنف. والله أعلم.

﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود المستحق منكم العبادة أيها العباد هو: الإله الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا ربَّ سواه. ﴿ٱلْحَىُّ﴾؛ أي: المتصف بالحياة الدائمة التي لا ابتداء لها ولا انتهاء ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾؛ أي: القائم بنفسه، المستغني عن غيره، أو القائم بتدبير خلقه ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم. وقرأ جماعة[2] من الصحابة كعمر وأُبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهم شذوذاً: ﴿القيام﴾، وقال خارجة[3] رحمه الله تعالى في مصحف عبد الله رضي الله عنه: ﴿القيم﴾ وروي هذا أيضاً عن علقمة وهو شاذ.

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

وقال الرازي رحمه الله تعالى[1]: مطلع هذه السورة عجيب؛ لأنهم لما نازعوا كأنه قيل: إما أن تنازعوا في معرفة الله، أو في النبوة، فإن كان في الأول: فهو باطل؛ لأن الأدلة العقلية دلت علىٰ أنه حيٌّ قيوم، والحي القيوم يستحيل أن يكون له ولد، وإن كان في الثاني: فهو باطل؛ لأن الطريق الذي عرفتم أن الله تعالىٰ أنزل التوراة والإنجيل هو بعينه قائم هنا، وذلك هو المعجزة. انتهىٰ.

هو سبحانه وتعالىٰ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن بالتدريج بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة، وإنما فسرنا كذلك؛ لأن فعَّل المضعف يدل علىٰ التكرير، وأتى[2] هنا بذكر المنزل عليه وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ ولم يأتِ بذكر المنزل عليه في التوراة، ولا في الإنجيل تخصيصاً له وتشريفاً بالذكر، وجاء بذكر الخطاب؛ لما في الخطاب من المؤانسة، وأتىٰ بلفظة ﴿علىٰ﴾ لما فيها من الاستعلاء كأن الكتاب تجلله وتغشاه ﷺ.

فإن قلت[3]: إن القرآن وقت نزول هذه الآية لم يتكامل نزوله؟

قلت: إما أن يراد بالكتاب ما نزل منه إذ ذلك، أو يقال: الفعل مستعمل في الماضي والمستقبل.

وقرأ الجمهور: ﴿نَزَّلَ﴾ مشدداً ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالنصب. وقرأ النخعي والأعمش وابن أبي عبلة رحمهم الله تعالى شذوذاً: ﴿نزلَ﴾ مخففاً و﴿الكتابُ﴾ بالرفع، وفي هذه القراءة تحتمل الآية وجهين:

أحدهما: أن تكون منقطعة.

والثاني: أن تكون متصلة بما قبلها؛ أي: نزل الكتاب عليك من عنده.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الجمل.

حالة كون ذلك الكتاب ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل فيما خصك به من شرف النبوة، وقيل: بالعدل في أحكامه أو بالصدق في أخباره عن القرون الماضية، وفي وعده ووعيده، وقيل. معنىٰ بالحق: بالبراهين القاطعة والحجج المحققة أنها من عند الله تعالىٰ، أو بالقول الفصل وليس بالهزل ولا بالمعاني الفاسدة المتناقضة.

وحالة كون ذلك الكتاب ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي؛ لما تقدمه من الكتب السالفة في الدعوة إلىٰ التوحيد والإيمان وتنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق بشأنه، وفي الأمر بالعدل والإحسان، وفي أنباء الأنبياء والأمم الخالية، وفي الشرائع التي لا تختلف فيها الأمم، وأما[1] في الشرائع المختلفة فيها فمن حيث أن أحكام كل واردة علىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلىٰ خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم.

وفائدة[2] تقييد التنزيل بهذه الحال ـ أعني: ﴿مُصَدِّقًا﴾ ـ حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل، وتنبيههم علىٰ وجوبه، فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتماً.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ جملة علىٰ موسىٰ بن عمران ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ جملة علىٰ عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تنزيل القرآن ﴿هُدًى﴾؛ أي: حال كونهما هاديين من الضلالة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ في زمانهما يعني بني إسرائيل فهو حال من التوراة والإنجيل، ولم يثنَّ؛ لأنه مصدر، ويصح كونه مفعولاً له، والعامل فيه ﴿أنزل﴾؛ أي: أنزل هذين الكتابين لأجل هداية الناس بهما.

وعبر فيهما بـ﴿أنزل﴾، وفي القرآن بـ﴿نَزَّلَ﴾ المقتضي للتكرير؛ لأنهما أنزلا دفعة واحدة بخلاف القرآن، قاله السيوطي رحمه الله تعالى. وقيل هذا التعليل منتقض بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

---

(١) أبو السعود.

(٢) الكرخي.

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ وبقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، وحينئذٍ فالأولى أن يقال: اختلاف التعبير في الموضعين للتفنن.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: وأنزل جميع الكتب الفارقة بين الحق والباطل، وذكره بعد ذكر الكتب الثلاثة أولاً ليعم ما عداها من بقية الكتب المنزلة، فكأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، فيكون من عطف العام علىٰ الخاص؛ حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة، ثم عمم الكتب كلها؛ ليختص المذكور أولاً بمزيد شرف، قاله الكرخي رحمه الله تعالى.

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى[1]: المراد بالفرقان القرآن، وكرر ذكره بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله.

وقيل الفرقان: كل أمر فرق بين الحق والباطل فيما قدم وحدث، فدخل في هذا التأويل طوفان نوح عليه الصلاة والسلام، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر وسائر أفعال الله المفرقة بين الحق والباطل، وقيل الفرقان: النصر.

وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالى[2]: المختار أن المراد بالفرقان: هو المعجزات التي قرنها الله تعالىٰ بإنزال هذه الكتب الثلاثة؛ لأنه لما أظهر الله تعالىٰ تلك المعجزات علىٰ وفق دعوىٰ الرسل حصلت المفارقة بين دعوىٰ الصادق ودعوى الكاذب، فالفرقان هي المعجزة، وقال ابن جرير: أنزل بإنزال القرآن الفصل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل، وقيل غير ذلك.

وقال المراغي رحمه الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: وأنزل العقل الذي يفرق به بين الحق والباطل في العقائد، وغيرها، وقال السدي[3] رحمه الله

---

(١) ابن عطية.

(٢) الفخر الرازي.

(٣) الخازن.

تعالى: في الآية تقديم وتأخير تقديره: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا وأنكروا وكذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الناطقة بتوحيده وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل المبشرة بنزول القرآن ومبعث رسول الله ﷺ، فكذبوا بالقرآن أولاً، ثم بسائر الكتب تبعاً لذلك وردوها بالباطل كوفد نصارىٰ نجران وغيرهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: عظيم أليم بسبب كفرهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالخلود في النار.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنه تعالىٰ لما قرر أمر الألوهية وأمر النبوة بذكر الكتب المنزلة.. توعَّد من كفر بآيات الله من كتبه المنزلة وغيرها بالعذاب الشديد من عذاب الدنيا؛ كالقتل والأسر والغلبة وعذاب الآخرة؛ كالنار. والذين كفروا عامٌّ داخل فيه من نزلت الآية بسببهم، وهم وفد نصارىٰ نجران، وغيرهم.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيع الجناب عظيم السلطان غالب لا يغلب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ أي: ذو عقوبة شديدة لمن كفر بآياته، والانتقام: المبالغة في العقوبة فالعزيز إشارة إلىٰ القدرة التامة علىٰ العقاب، وذو الانتقام إشارة إلىٰ كونه فاعلاً للعقاب.

والمعنىٰ[2]: أن الله بقدرته ينفذ سنته، وينتقم ممن خالفها بسلطانه الذي لا يعارض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾ ولا يستتر ﴿عَلَيْهِ﴾ ولا يغيب ولا يعزب عن علمه ﴿شَىْءٌ﴾ من الموجودات ولا أمر من أمور العالم كلّياً كان أو جزئياً إيماناً كان أو كفراً ﴿فِى﴾ جميع نواحي ﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ كائن ﴿فِى﴾ جميع أرجاء ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو مطلع علىٰ كل ما في الكون لا تخفىٰ عليه خافية ﴿يَعْلَمُ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾، ففيه إشارة إلىٰ كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات، فينزل لعباده من الكتب ما فيه صلاحهم إذا أقاموه، ويعلم سرهم وجهرهم، فلا يخفىٰ عليه حال الصادق في إيمانه ولا حال الكافر ولا حال من استبطن النفاق وأظهر الإيمان، ولا حال من أكره علىٰ الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وفي التعبير بعدم خفاء شيء عليه إشارة إلىٰ أن علمه لا يوازن علم المخلوقين، بل هو الغاية في الوضوح وعدم الخفاء.

وعبر[1] عن الكون بالأرض والسماء؛ إذ الحس لا يتجاوزهما وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ؛ ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، فهو كالدليل علىٰ كونه حياً.

و ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ الإله ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: يخلقكم في أرحام أمهاتكم ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ويجعلكم علىٰ صور مختلفة متغايرة، وأنتم في الأرحام من النطف إلىٰ العلق إلىٰ المضغ، ومن ذكورة وأنوثة، ومن حسن وقبح، ومن طول وقصر، ومن سعادة وشقاوة، ومن بياض وسواد، وكمال ونقصان. والمعنى: هو الذي يصوركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع، وذلك من نطفة، وكل هذا علىٰ أتم ما يكون دِقَّة ونظاماً. ومستحيل أن يكون هذا من قبيل الاتفاق والمصادفة، بل هو من صنع عليم خبير بالدقائق، وهذه الجملة كالدليل علىٰ القيومية. وقرىء شذوذاً[2]: ﴿تصوَّركم﴾، أي: صوَّركم لنفسِه وعبادته، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون

(١) البيضاوي.

(٢) البيضاوي.

بينه و بينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فكتب له ذلك في بطن أمه». متفق عليه.

وقيل[1]: إن هذه الآية واردة في الرد علىٰ النصارىٰ، وذلك أن النصارى ادعوا إلهية عيسىٰ بأمرين: بالعلم، والقدرة. فإن عيسىٰ كان يخبر عن الغيوب، فيقول لهذا: أنت أكلت في دارك كذا، ووضعت في دارك كذا، وكان يحيي الموتىٰ، ويبرِىء الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، ثم إنه تعالىٰ استدل علىٰ بطلان قولهم في إلهية عيسىٰ، وفي التثليث بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فالإله يجب أن يكون حياً قيوماً، وعيسىٰ لم يكن كذلك، فيلزم القطع بأنه لم يكن إلهاً، ولما قالوا إن عيسىٰ أخبر عن الغيوب.. فوجب أن يكون إلهاً ردَّ عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ والمعنى: لا يلزم من كونه عالماً ببعض المغيبات أن يكون إلهاً؛ لاحتمال أنه علم ذلك بتعليم الله تعالىٰ ذلك، ولما قالوا: إن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ فوجب أن يكون إلهاً ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ والمعنىٰ: إن حصول الإحياء علىٰ وفق قول عيسى في بعض الصور لا يدل علىٰ كونه إلهاً لاحتمال أن الله تعالىٰ أكرمه بذلك الإحياء إظهاراً لمعجزته وإكراماً له.

ولما قالوا: أنتم أيها المسلمون توافقونا علىٰ أن عيسى لم يكن له أب من البشر، فوجب أن يكون ابناً لله.. أجاب الله تعالىٰ عن ذلك أيضاً بقوله: ﴿هُوَ

---

(١) المراح.

﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فإن هذا التصوير إذا كان من الله تعالىٰ إن شاء صوَّره من نطفة الأب، وإن شاء صوَّره ابتداء من غير أب، ولما قالوا للرسول ﷺ: ألست تقول إن عيسىٰ روح الله وكلمته فهذا يدل علىٰ أنه ابن الله؟ أجاب الله عن ذلك: بأن هذا اللفظ من باب المتشابهات، فوجب رده إلىٰ التأويل وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ فظهر بذلك المذكور أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إشارة إلىٰ أن عيسى ليس بالإله، ولا بابن الإله، وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾.. فهو جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ جواب عن تمسكهم بقدرة عيسىٰ علىٰ الإحياء ونحوه؛ لأنه لو قدر علىٰ الإحياء لقدر على الإماتة، ولو قدر علىٰ الإماتة لأمات اليهود الذين قتلوه علىٰ زعم النصارىٰ، فثبت أن حصول الإحياء في بعض الصور لا يدل علىٰ كونه إلهاً، وهو جواب أيضاً عن تمسكهم بأن من لم يكن له أب من البشر.. وجب أن يكون ابناً لله، فكأنه تعالىٰ يقول: كيف يكون عيسى ولداً لله وقد صوَّرهُ في الرحم والمصور لا يكون أباً للمصور؟.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلىٰ آخر الآيات.. فهو جواب عن تمسكهم بما ورد في القرآن: أن عيسىٰ روح الله وكلمته، ثم إنه تعالىٰ لما أجاب عن شبهتهم.. أعاد كلمة التوحيد زجراً لسائر النصارىٰ عن قولهم بالتثليث فقال:

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا رب سواه منفرد بالألوهية والربوبية ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، فهو المنفرد بالإيجاد والتصوير، العزيز الذي لا يغلب علىٰ ما قضىٰ به علمه، وتعلقت به إرادته، الحكيم المنزه عن العبث، فهو يوجد الأشياء على مقتضىٰ الحكمة ومن ثَمَّ خلقكم علىٰ هذا النمط البديع الذي لا يتصور ما هو أدق منه وأحكم كما قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فالعزيز إشارة إلىٰ كمال القدرة، والحكيم إشارة إلىٰ كمال العلم، وهذا

إثبات لما تقدم من أن علم عيسىٰ ببعض الغيوب وقدرته على الإحياء في بعض الصور لا يكفي في كونه إلهاً فإن الإله لا بد وأن يكون كامل القدرة وهو العزيز وكامل العلم وهو الحكيم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن العظيم منقسماً إلىٰ قسمين: قسم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾؛ أي: واضحات الدلالة لا التباس فيها علىٰ أحد، أو محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال قطعية الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد ﴿هُنَّ﴾؛ أي: تلك المحكمات ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصل القرآن الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وعمدته التي ترد إليها الآيات المتشابهات، كقوله تعالىٰ في شأن عيسىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ وكقوله فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خَلْق من مخلوقات الله وعبد من عباده ورسول من رسل الله ﴿و﴾ قسم منه آيات ﴿أخر﴾ جمع أخرىٰ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾؛ أي: محتملات لمعانٍ متشابهة لا يتضح مقصودها؛ لإجمال أو مخالفة ظاهرة إلا بنظر دقيق وتأمل أنيق.

أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد؛ كقوله تعالىٰ في شأن عيسىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: ميل عن الحق إلىٰ الأهواء الباطلة وخروج عنه إلىٰ الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾؛ أي: فيتعلقون ويأخذون بالمتشابه من الكتاب الذي يمكنهم أن يحرفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم. عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه، فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾؛ أي: طلب الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون علىٰ بدعتهم بالقرآن، وهو

حجة عليهم لا لهم، أو طلب الفتنة في الدين وهي الضلال عنه فإنهم متىٰ أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفاً لبعض، وذلك يفضي إلىٰ الهرج والتقاتل ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: وطلب تأويل المتشابه علىٰ ما ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان وطلب تحريفه علىٰ ما يريدون.

وذلك كاحتجاج النصارىٰ علىٰ عقيدتهم الفاسدة بأن القرآن قد نطق بأن عيسىٰ روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾؛ أي: والحال أنه ما يعلم تأويل المتشابه وتفسيره حقيقة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسير القرآن علىٰ أربعة أنحاء: تفسير لا يسع لأحد جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالىٰ. انتهى.

وقال المراغي قوله(١): ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ معناه: فأما الذين يميلون عن الحق ويتبعون أهواءهم الباطلة، فينكرون المتشابه وينفِّرون الناس منه، ويستعينون علىٰ ذلك بما في غرائز الناس وطبائعهم من إنكار ما لم يصل إليه علمهم، ولا يناله حسهم؛ كالإحياء بعد الموت، وجميع شؤون العالم الأخروي، ويأخذونه علىٰ ظاهره بدون نظرٍ إلىٰ الأصل المحكم؛ ليفتنوا الناس بدعوته إلىٰ أهوائهم.. فيقولون: إن الله روح، والمسيح روح منه، فهو من جنسه، وجنسه لا يتجزأ فهو هو، ومعنىٰ ابتغاء تأويله: أنهم يرجعونه إلىٰ أهوائهم وتقاليدهم، لا إلىٰ الأصل المحكم الذي بُني عليه الاعتقاد، فيحولون خبر الإحياء بعد الموت وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها، ويصرفونها إلىٰ معانٍ من أحوال الناس في الدنيا ليخرجوا الناس

---

(١) المراغي.

عن دينهم، والقرآن مليء بالرد عليهم من نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. انتهىٰ.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: والذين رسخوا وثبتوا في العلم وتمكنوا فيه وعضوا فيه بضرس قاطع، وهذا كلام مستأنف عند الجمهور، والوقف عندهم علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وهو مبتدأ عندهم، والخبر قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بالمتشابه أنه من عند الله، ولا نعلم معناه، وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم لظهوره ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾؛ أي: من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه.

والراسخ في العلم[١]: هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل القطعية اليقينية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالىٰ بالدلائل اليقينية، وعرف أنه تعالىٰ لا يتكلم بالباطل والعبث، فإذا رأىٰ شيئاً متشابهاً، ودل الدليل القطعي علىٰ أن الظاهر ليس مراداً لله تعالى.. علم حينئذٍ قطعاً أن مراد الله شيء آخر سوىٰ ما دل عليه ظاهره، ثم فوض تعيين ذلك المراد إلىٰ علمه تعالىٰ، وقطع بأن ذلك المعنىٰ علىٰ أيِّ شيءٍ كان فهو الحق والصواب؛ لأنه علم أن ذلك المتشابه لا بد وأن يكون له معنىٰ صحيح عند الله تعالىٰ.

وقيل الراسخ في العلم[٢]: من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى فيما بينه وبين الله تعالىٰ، والتواضع فيما بينه وبين الناس، والزهد فيما بينه وبين الدنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النفس. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وما يتعظ بما في القرآن وما يتيقظ له ويتدبر له إلا أصحاب العقول الكاملة المستنيرة الخالصة عن الركون إلىٰ الأهواء الزائغة، وهذا مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر.

ولما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالىٰ من المحكمات

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

والمتشابهات.. تضرعوا إلى الله تعالىٰ بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿لَا تُزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن الحق والهدىٰ، كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ؛ أي: لا تمل قلوبنا عن دينك. قراءة الجمهور: بضم التاء ونصب القلوب، وقرىء شذوذاً بفتح التاء ورفع القلوب علىٰ نسبة الفعل إليها ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ أي: وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك، أو يقال: يا ربنا لا تجعل قلوبنا مائلة إلىٰ الباطل بعد أن تجعلها مائلة إلىٰ الحق ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: أعطنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها علىٰ دينك الحق والإيمان بكتابك، أو المعنىٰ: أعطنا من عندك نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب ونور الطاعة والعبودية والخدمة في الأعضاء، وسهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفافة في الدنيا، وسهولة سكرات الموت عند الموت، وسهولة السؤال والظلمة في القبر، وغفران السيئات وترجيح الحسنات في القيامة. ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا ربنا ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ الهبة العظيمة الخالية عن الأعواض والأغراض، فإن هذا الذي طلبنا منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلينا، لكنه حقير بالنسبة إلىٰ كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك. والوهاب في أسماء الله: هو الذي يعطي كل أحد علىٰ قدر استحقاقه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرِّف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك» أخرجه مسلم.

وهذا الحديث من أحاديث الصفات، يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه، بل نؤمن به كما جاء وأنه حق، ونكل علمه إلىٰ مراد الله ورسوله ﷺ، وهذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم وهو الأعلم الأسلم الذي نعض عليه بالنواجذ ويقولون أيضاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي؛ يا ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك في وقوعه فجازنا فيه أحسن الجزاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

سبحانه وتعالىٰ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لا يترك وفاء ما وعده لعباده، وهذا من بقية كلام الراسخين في العلم؛ وذلك لأنهم لما طلبوا من ربهم أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية وأنواع الرحمة.. فكأنهم قالوا: ليس غرضنا من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقرضة، وإنما غرضنا الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة، فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ونعلم أن وعدك بالجزاء والحساب والميزان والصراط والجنة والنار لا يكون خلفاً، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته الهداية والرحمة بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد.

تنبيهات

الأول منها: اختلفت عبارة العلماء في تفسير[1] المحكم والمتشابه علىٰ أقوال فقيل: إن المحكم ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه ما لم يكن لأحد إلىٰ علمه سبيل، ومن القائلين بهذا القول: جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري قالوا: وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقيل: المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً. فإذا ردت إلىٰ وجه واحد وأبطل الباقي.. صار المتشابه محكماً، وقيل: إن المحكم: ناسخة وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه، والمتشابه: منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به. ورُوي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المحكم: الناسخ. والمتشابه: المنسوخ وبه قال: ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك. وقيل: المحكم: الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له. والمتشابه: ما فيه تصريف وتحريف وتأويل، وبه قال: مجاهد وابن إسحاق. قال ابن عطية: وهذا أحسن الأقوال. وقيل: إن المحكم ما أطلع الله عباده علىٰ معناه. والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلىٰ معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة؛ مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول

---

(١) الشوكاني.

عيسى وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة، فجميع هذا ما استأثر الله بعلمه.

وبهذا القول اختار القرطبي والطبري، وقيل: إن المحكم: سائر القرآن. والمتشابه: هي الحروف المقطعة في أوائل السور إلىٰ غير ذلك.

والثاني منها: ما قيل[1]: إن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل القرآن هنا محكماً ومتشابهاً، وجعله في موضع آخر كله محكماً، كقوله في أول سورة هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وجعله في موضع آخر كله متشابهاً، كقوله في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ قلت: حيث جعله كله محكماً أراد به أنه كله حق وصدق، ليس فيه عبث ولا هزل. وحيث جعله متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والحق والصدق. وحيث جعله هنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً فقد اختلفت عبارات العلماء في تفسيرهما آنفاً.

والثالث منها[2]: سؤال يخطر بالبال، وهو: لم كان في القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم، ولم يكن كله محكماً يتساوىٰ في فهمه جميع الناس، لأنه نزل لإرشاد العباد هادياً لهم، والمتشابه يحول دون الهداية؛ لوقوع اللبس في فهمه وفتح باب الفتنة في تأويله لأهل التأويل؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة:

منها: أن في إنزال المتشابه امتحاناً لقلوبنا، في التصديق به؛ إذ لو كان ما جاء في الكتاب معقولاً لا شبهة فيه لأحد.. لما كان في الإيمان به شيء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله.

ومنها: أن في وجود المتشابه في القرآن حافزاً لعقول المؤمنين إلىٰ النظر

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

فيه؛ كيلا تضعف وتموت، إذ السهل الجلي لا عمل للعقل فيه، وإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث.. مات. والدين أعز شيء علىٰ الإنسان فإذا ضعف عقله في فهمه.. ضعف في كل شيء، ومن ثم قال: والراسخون في العلم، ولم يقل: والراسخون في الدين؛ لأن العلم أعم وأشمل، فمن رحمته أن جعل في الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه؛ إذ بحثه يستلزم النظر في الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ليصل إلىٰ فهمه ويهتدي إلىٰ تأويله.

ومنها: أن الأنبياء بعثوا إلىٰ الناس كافة، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وكان من المعاني الحكم الدقيقة التي لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها، فجعل فهم هذا من حظ الخاصة، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلىٰ الله والوقوف عند فهم المحكم؛ ليكون لكل نصيبه علىٰ قدر استعداده فإطلاق كلمة الله، وروح الله علىٰ عيسىٰ يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة، ومن ثم فتُن النصارىٰ بمثل هذا التعبير؛ إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾.

ومنها: أن القرآن نزل بألفاظ العرب وعلىٰ أسلوبهم وكلامهم علىٰ ضربين:

الأول: الموجز الذي لا يخفىٰ على سامع وهذا هو الضرب الأول.

والثاني: المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات، وهذا الضرب هو المستحسن عندهم، فأنزل القرآن على الضربين ليتحقق عجزهم، فكأنه قال: عارضوه بأي الضربين شئتم. ولو نزل كله محكماً لقالوا؛ هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا.

والرابع منها: اختلف في الوقف في قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ فذهب الجمهور إلى أن الوقف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ فالواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ للاستئناف، وهو قول أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير وغيرهم، ويؤيد هذا القول قراءة أبي وابن عباس فيما رواه طاووس عنه شذوذاً: ﴿إلا الله

ويقول الراسخون في العلم آمنا به﴾، وقراءة عبد الله: (ابتغاء تأويله إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون) وهي شاذة ومعناه: إن الله استأثر بعلمه تأويل المتشابه وحينئذٍ فحال الراسخين التصديق به.

وجرىٰ قوم على أن ﴿الراسخون﴾ معطوف علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، ويقولون حال من الراسخون، فالوقف حينئذٍ علىٰ أولو الألباب؛ لتعلق ما قبل ذلك بعضه ببعض، وروي هذا القول: عن ابن عباس أيضاً ومجاهد والربيع بن أنس وغيرهم، والمعنى: إن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم، فالمراد ما للفكر والنظر فيه مجال.

قال البغوي: والقول الأول أقيس بالعربية وأشبه بظاهر الآية، وقال الفخر الرازي: في الثاني لو كان الراسخون في العلم عالمين بتأويله.. لما كان لتخصيصهم بالإيمان وجه، فإنهم لما عرفوه بالدلائل.. صار الإيمان كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الإيمان به بخصوصه مزيد مدح.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

اعلم أن فواتح السور إن جعلت مسرودة علىٰ نمط التعديد.. فلا محل لها من الإعراب، وإن جعلت أسماء للسور.. فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب علىٰ تقدير أفعال يقتضيها المقام؛ كأذكر أو أقرأ أو نحوهما؛ كعليك والزم كما سبق ذلك كله في مبتدأ تفسير هذه السورة، وقد تقدم الكلام في إعرابه أيضاً في أول البقرة فراجعه. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿لَآ﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لَآ﴾ بدل الشيء من الشيء، وجملة ﴿لَآ﴾ من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: خبران آخران

للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الحي القيوم. وقيل: إنهما صفتان للفظ الجلالة، أو بدلان منه أو من الخبر.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾.

﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الجلالة ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية إما مستأنفة، أو خبر آخر للفظ الجلالة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الكتاب تقديره: ملتبساً بالحق ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال ثانية من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مؤكِّدة؛ لأنه لا يكون إلا مصدقاً، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم كونه منتقلة علىٰ معنىٰ أنه مصدق لنفسه ولغيره. قال أبو البقاء: وإن شئت جعلته بدلاً من موضع قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في المجرور. انتهىٰ. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اللام حرف جر ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر باللام متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿بَيْنَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف. ﴿يدي﴾: مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بالمثنى نظير: لبيك، وهو مضاف، والهاء: مضاف إليه، والظرف إما صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: الواو عاطفة. ﴿أنزل﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نزل﴾، ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: مفعول به ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف عليه.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنزل﴾. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ﴿هُدًى﴾: حال من ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، ولم يثنَّ، لأنه مصدر كما مر، ولكنه في تأويل المشتق تقديره: حالة كونهما هاديين. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بهدىٰ، أو صفة له. وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الإنجيل﴾، ودل علىٰ حال للتوراة محذوف؛ كما يدل أحد الخبرين علىٰ الآخر. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ الواو عاطفة ﴿أنزل﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿نزل﴾ كالجملة التي قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إن مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول ﴿ذُو﴾: خبر ثانٍ مرفوع بالواو، وهو مضاف، ﴿ٱنتِقَامٍ﴾ مضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿شَىْءٌ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿شَىْءٌ﴾، أو متعلق بـ﴿يَخْفَىٰ﴾ ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: الواو عاطفة ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ الجار والمجرور في قوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: متعلق بـ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أو حال من ضمير المخاطبين؛ أي: يصوركم وأنتم في الأرحام مضغ، قاله العُكْبَري. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾: اسم[1] شرط غير جازم لعدم دخول: ﴿ما﴾ عليه في محل النصب علىٰ الحالية بـ﴿يَشَآءُ﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ومفعول ﴿يَشَآءُ﴾: محذوف معلوم مما قبله تقديره: كيف يشاء تصويركم، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ فعل شرط ﴿كَيْفَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط

(١) الجمل.

معلوم مما قبله تقديره: كيف يشاء تصويركم يصوركم، وجملة ﴿كَيْفَ﴾ مستأنفة، وإن كانت في المعنىٰ متعلقة بما قبلها نظير قولهم: أنت ظالم إن فعلت، التقدير: أنت ظالم إن فعلت فأنت ظالم، وعند من يجيز تقديم الجزاء علىٰ الشرط الصريح يجعل: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ المتقدم هو الجزاء و ﴿كَيْفَ﴾: منصوب علىٰ الحال بالفعل بعده، والمعنىٰ: على أي حال شاء أن يصوركم صوركم، وقال بعضهم[1]: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ في موضع الحال معمول ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، ومعنىٰ الحال؛ أي: يصوركم في الأرحام قادراً علىٰ تصويركم مالكاً ذلك، وقيل التقدير: في هذه الحال يصوركم علىٰ مشيئته؛ أي: مريداً، فيكون حالاً من ضمير اسم الله، ذكره أبو البقاء، وجوز أن يكون حالاً من المفعول؛ أي: من كاف المخاطبين؛ أي: يصوركم متقلبين علىٰ مشيئته، وقال الحوفي: يجوز أن تكون الجملة في موضع المصدر، المعنى: يصوركم في الأرحام تصوير المشيئة وكما يشاء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَآ﴾: نافية ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾: محذوف جوازاً تقديره: موجود، وجملة ﴿لَآ﴾ مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لَآ﴾ بدل الشيء من الشيء ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خبران لمبتدأ محذوف، أو بدلان من ﴿هُوَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ءَايَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ وخبر مضاف إليه، والجملة في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وقال الشيخ السمين: وأخبر بلفظ المفرد ـ وهو ﴿أُمُّ﴾ ـ عن

---

(١) البحر المحيط.

الجمع وهو هن، إما لأن المراد أن كل واحدة منهن ﴿أمٌ﴾، وإما لأن المجموع بمنزلة أم واحدة، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وإما لأنه مفرد واقع موقع الجمع، وقيل: لأنه بمعنىٰ أصل الكتاب، والأصل يوحد ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾: الواو عاطفة ﴿وَأُخَرُ﴾: معطوف علىٰ ﴿ءَايَٰتٌ﴾، ولكنه علىٰ حذف موصوف تقديره: ومنه آيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾: صفة لـ﴿أخر﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية علىٰ الفتح؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت انقسام، الكتاب إلىٰ نوعين، وأردت بيان أقسام من يتبعه.. فأقول لك ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم ﴿زَيْغٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، و العائد ضمير الجمع ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها ﴿يتبعون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: فأما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿مَا تَشَٰبَهَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يتبعون﴾. ﴿تَشَٰبَهَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ما﴾، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير الفاعل ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور حال، من فاعل ﴿تَشَٰبَهَ﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله وهو مضاف ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾: مضاف إليه ﴿وَٱبْتِغَآءَ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ الأول، وهو مضاف ﴿تَأْوِيلِهِۦۗ﴾ مضاف إليه، تأويل مضاف، والهاء: مضاف إليه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ الواو حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ فاعل،

والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في قوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.
﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: الواو استئنافية ﴿الراسخون﴾: مبتدأ ﴿فِي ٱلْعِلْمِ﴾: متعلق به ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، وإن شئت قلت: الواو عاطفة ﴿الراسخون﴾: معطوف على الجلالة، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ﴿الراسخون﴾. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: جار ومجرور ومضافان إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فاعل ومضاف إليه مرفوع بالواو، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مقول محكى لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿لَا تُزِغْ﴾: ﴿لَا﴾: دعائية ﴿تُزِغْ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿قُلُوبَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول علىٰ كونها جواباً للنداء. ﴿بَعْدَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية متعلق بـ﴿تُزِغْ﴾ ﴿إِذْ﴾: حرف زائد بين المضاف والمضاف إليه لا معنىٰ له ﴿هَدَيْتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿بَعْدَ﴾ ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ الواو عاطفة، ﴿هب﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿لَا تُزِغْ﴾ علىٰ كونها جواب النداء. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿هب﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾. ﴿مِن﴾ حرف جر، ﴿لدن﴾ ظرف مكان بمعنىٰ: عند في محل الجر بـ﴿مِن﴾ مبني علىٰ السكون لشبهه با لحرف شبهاً افتقارياً. ﴿لدن﴾ مضاف، والكاف: مضاف إليه والظرف متعلق بـ﴿تُزِغْ﴾ ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول به. ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، والكاف اسمها. ﴿أَنتَ﴾: ضمير

فصل أو مؤكد لاسم إن ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾: خبر إن، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف نصب واسمها ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ خبر (إن) ومضاف إليه، وجملة (إن) جواب النداء في محل النصب مقول القول ﴿لِيَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَامِعُ﴾، واللام فيه بمعنىٰ: في ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾: ﴿لَّا﴾ نافية ﴿رَيْبَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿فِيهِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾ تقديره: لا ريب موجود فيه وجملة ﴿لَّا﴾ من اسمها وخبرها في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها ﴿لَا يُخْلِفُ﴾: ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يُخْلِفُ﴾؛ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: مفعول به وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول لـ﴿يَقُولُونَ﴾ أو مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

واختلف في: عمران الذي سميت به هذه السورة، فقيل المراد به: أبو موسىٰ وهارون، فآله: هم موسىٰ وهارون، وقيل المراد به: أبو مريم فالمراد بآله: مريم وابنها عيسىٰ، ويرجح هذا القول ذكرُ قصتهما إثر ذكره وبين عمران أبي موسىٰ وهارون، وعمران أبي مريم ألف وثمان مئة عام.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: واختلف الناس في هذين اللفظين هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف أم لا لكونهما أعجميين؟ فذهب جماعة إلىٰ الأول، فقالوا: التوراة مشتقة من قولهم: وري الزند يري إذا قدح فخرج منه نار، فلما كانت التوراة فيها ضياء ونور يخرج به من الضلال إلىٰ الهدىٰ كما يخرج بالنار من الظلام إلىٰ النور. سمي هذا الكتاب بالتوراة. فأصلها[1]: وورية فأبدلت الواو

(١) العكبري.

الأولىٰ تاء وأبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها. وقال الفراء: أصلها تورية علىٰ وزن تفعلة كتوصية من وري في كلامه تورية، ثم أبدلت من الكسرة الفتحة، فانقلبت الياء ألفاً كما قالوا في ناصية: ناصاة. ويجوز إمالتها؛ لأن أصل ألفها ياء.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: إفعيل من النجل، وهو التوسعة من قولهم نجلت الإهاب إذا شققته ووسعته، ومنه عين نجلاء، أي: واسعة الشق فسمي الإنجيل بذلك؛ لأنَّ فيه توسعة لم تكن في التوراة؛ إذ حلل فيه أشياء كانت محرمة فيها، والصحيح أنهما ليسا مشتقين بل اسمان عبرانيان، وقرأ الحسن شذوذاً: (الأنجيل) ـ بفتح الهمزة ـ ولا يعرف له نظير؛ إذ ليس في الكلام أفعيل إلا أن الحسن ثقة فيجوز أن يكون سمعها.

﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: فعلان من الفرق وهو في الأصل مصدر، فيجوز أن يكون بمعنىٰ الفارق، أو المفروق، ويجوز أن يكون التقدير: ذا الفرقان.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ الانتقام: افتعال من النقمة، وهي السطوة والانتصار، وقيل: هي المعاقبة علىٰ الذنب مبالغة في ذلك، ويقال: نقم ونقم إذا أنكر وانتقم إذا عاقبه بسبب ذنب تقدم منه.

﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ يقال: صوَّره إذا جعل له صورة، والصورة الهيئة التي يكون عليها الشيء بالتأليف وهو بناء مبالغة من صاره إلىٰ كذا يصوره إذا أماله إليه، فالصورة مائلة إلىٰ هيئة وشبه مخصوص، وقال المروزي: التصوير ابتداء مثال من غير أن يسبقه نظير.

و ﴿الأرحام﴾: جمع رحم مشتق من الرحمة؛ لأنه مما يتراحم به.

﴿زَيۡغٞ﴾. الزيغ مصدر زاغ يزيغ زيغاً من باب باع، ومعناه: الميل ومنه: زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، وقال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلىٰ أحد الجانبين.

﴿ابتغاء تأويله﴾ التأويل مصدر أوَّل من باب: فعَّل المضعف، ومعناه آخر

الشيء ومآله ﴿الراسخون﴾: جمع راسخ اسم فاعل من رسخ ـ من باب خضع ـ يرسخ رسوخاً، والرسوخ: الثبوت.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة والفصاحة أنواعاً كثيرة[1]:

منها: حسن الإبهام؛ وهو فيما افتتحت به لينبه الفكر إلىٰ النظر فيما بعده من الكلام.

ومنها: مجاز التشبيه في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؛ لأن حقيقة التنزيل طرح جرم من علو إلىٰ أسفل، والقرآن مثبت في اللوح المحفوظ، فلما أثبت في القلب صار بمنزلة جرم ألقي من علو إلىٰ أسفل، فشبِّه به وأُطلق عليه لفظ التنزيل.

وعبر أيضاً عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيذاناً بكمال تفوقه علىٰ بقية الكتب السماوية، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

وفي قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ شبَّه القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب بالإنسان الذي بين يديه شيء يناله شيئاً فشيئاً.

وفي قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أقام المصدر فيه مقام اسم الفاعل، فجعل التوراة كالرجل الذي يوري عنك أمراً؛ أي: يستره لما فيها من المعاني الغامضة، وشبه الإنجيل لما فيه من اتساع الترغيب والترهيب والمواعظ والخضوع بالعين النجلاء، وجعل ذلك هدىٰ لما فيه من الإرشاد كالطريق الذي يهديك إلىٰ المكان الذي ترومه.

وفي قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾؛ لأنه شبه الفرقان بالجرم الفارق بين جرمين.

وفي قوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ شبه أمره بقوله: كن، أو تعلق إرادته بكونه جاء

---

(١) البحر المحيط.

علىٰ غاية من الإحكام والصنع بمصوِّر يمثِّل شيئاً فيضم جرماً إلىٰ جرم ويصور منه صورة.

وفي قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ شبه القلب المائل عن القصد بالشيء الزائغ عن مكانه، وفي غير ذلك، وقيل: هذه كلها استعارات ولا تشبيه فيها؛ لأنه لم يصرح فيها بذكر أداة التشبيه.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ علىٰ تفسير من فسَّره بالزبور، واختص الأربعة دون بقية ما أنزل؛ لأن أصحاب الكتب، إذ ذاك المؤمنون واليهود والنصارى. وفي قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما أكبر مخلوقاته الظاهرة لنا. وفي قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ اختصهم بخصوصية الرسوخ في العلم بهم وفي قوله: ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ لأن العقلاء لهم خصوصية التمييز والنظر والاعتبار وفي قوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ اختص القلوب؛ لأن بها صلاح الجسد وفساده وليس كذلك بقية الأعضاء؛ ولأنها محل الإيمان إلىٰ غير ذلك ومنها الالتفات في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ⑨﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

لما حكىٰ الله تعالىٰ عن المؤمنين دعاءهم أن يثبتهم الله علىٰ الإيمان.. حكىٰ عن الكافرين سبب كفرهم وهو: اغترارهم في هذه الحياة الدنيا بكثرة المال والبنين، وبين أنها لن تدفع عنهم عذاب الله كما لم تغنِ عنهم شيئاً في الدنيا. وضرب علىٰ ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقىٰ فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالىٰ ذلك بذكر شهوات الدنيا، ومُتع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خير للأبرار.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ...﴾ سبب نزوله[1]: ما روىٰ

---

(١) لباب النقول.

أبو داود في «سننه» والبيهقي في «الدلائل» من طريق أبي إسحاق عن محمد ابن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما أصاب قريشاً ببدر ورجع إلىٰ المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبي مرسل، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ـ يعني: جهالاً لا علم لهم بالحرب ـ إنك والله لو قاتلتنا.. لعرفت أنا نحن الرجال، وأنك لم تلقَ مثلنا، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية إلىٰ قوله: ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وأخرج ابن جرير[1] عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ قال هذا يوم بدر نظرنا إلىٰ المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: أنزلت في التخفيف يوم بدر علىٰ المؤمنين كانوا يومئذٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون مثليهم ست مئة وستة وعشرين، فأيد الله المؤمنين.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا ما قد عرفوه من نبوة محمد ﷺ سواء كانوا من بني إسرائيل، أم من كفار العرب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لن تدفع عنهم ولن تنجيهم، ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار ﴿وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ الذين يتناصرون ويتفاخرون بهم في مهام أمورهم ويعولون عليهم في الخطوب النازلة ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الكفرة ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾؛ أي: حطب النار الذي تسجر

---

(١) الشوكاني.

وتسعر به؛ أي: سيكونون يوم القيامة حطباً لجهنم التي تُسعَّر بهم.

وقيل: المراد بهؤلاء الكفرة: وفد نجران، وذلك لأن أبا حارثة بن علقمة قال لأخيه كرز: إني لأعلم أن محمداً رسول الله حقاً، وهو النبي الذي كنا ننتظره، ولكني إن أظهرت إيماني بمحمد أخذ ملوك الروم مني ما أعطوني من المال الكثير والجاه، فالله تعالىٰ بين أن أموالهم وأولادهم لا تدفع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وقرأ أبو عبد الرحمٰن ﴿لن يغني﴾ بالياء علىٰ تذكير العلامة، وقرأ علي: (لن تغنيْ) بسكون الياء، وقرأ الحسن ﴿لن يغنيْ﴾ بالياء أولاً وبالياء الساكنة آخراً وذلك لاستثقال الحركة في حرف اللين، وإجراء المنصوب مجرىٰ المرفوع، وبعض النحويين يخص هذا بالضرورة وينبغي أن لا يخص بها إذ كثر ذلك في كلامهم وكل هذه القراءة شاذ عدا قراءة الجمهور ﴿تغنيَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقُودُ﴾ بفتح الواو بمعنىٰ: الحطب الذي توقد به النار، وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف شذوذاً: ﴿وُقُود﴾ بضم الواو وهو مصدر: وقدت النار تقد وقوداً، ويكون على حذف مضاف؛ أي: أهل وقود النار أو حطب وقود النار، أو جعلهم نفس الحطب مبالغة، وقد قيل في المصدر أيضاً: وَقود بفتح الواو، وهو من المصادر التي جاءت علىٰ فعول بفتح الواو فيحتاج إلىٰ تقدير مضاف؛ أي: هم أهل وقود النار.

ولما ذكر سبحانه وتعالىٰ أن من كفر وكذب بالله، مآله إلىٰ النار، ولن يغني عنه ماله ولا ولده.. ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتب العذاب علىٰ كفرهم كشأن من تقدم من كفار الأمم الماضية وأخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها، ونبه علىٰ آل فرعون؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل، وهم يعرفون ما جرىٰ لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلىٰ النار وظهور بني إسرائيل عليهم وتوريثهم أماكن ملكهم، ففي هذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ولمن آمن به: أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال، وفي الآخرة إلىٰ النار، كما جرىٰ لآل فرعون؛ أُهلكوا في الدنيا وصاروا إلىٰ النار، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ

﴿فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: شأن هؤلاء الكفرة في تكذيبهم محمداً ﷺ وكفرهم بشريعته وصنيعهم وعادتهم، كدأب آل فرعون، أي: كشأن فرعون وقومه وعادتهم في تكذيبهم موسىٰ وشريعته ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: وكدأب الأمم الذين من قبل قوم فرعون من كفار الأمم الماضية في تكذيبهم أنبياءهم كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وغيرهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: قد كذب آل فرعون ومن قبلهم بآياتنا ومعجزاتنا الدالة علىٰ صدق رسلنا وأنكروها، ومتى كذبوا بها. فقد كذبوا الأنبياء بلا شك ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: عاقب الله آل فرعون ومن قبلهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أهلكهم بتكذيبهم المعجزات الدالة علىٰ صدق الرسل، وإنكارها، ونَصَر الرسل ومن آمن معهم ولم يجدوا من بأس الله محيصاً ولا مهرباً؛ إذ عقابه أثر طبيعي لاجتراح الذنوب وارتكاب الموبقات. وجملة ﴿كَذَّبُوا﴾؛ إلىٰ آخرها تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم.

وإنما استعمل الأخذ في العقاب؛ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأسور المأخوذ الذي لا يقدر علىٰ التخلص ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فلما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم.. فكذا لن تنفع هؤلاء، وفي هذه الجملة إشارة إلىٰ شدة سطوة الله علىٰ من كفر بآياته وكذب بها، ثم تهددهم وتوعدهم بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ليهود المدينة ومشركي مكة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾؛ أي: يغلبكم المسلمون عن قريب في الدنيا وقد صدق الله تعالىٰ وعده بقتل بني قريظة، فقد قتل منهم النبي ﷺ في يوم واحد ست مئة، جمعهم في سوق بني قينقاع وأمر السياف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها، وبإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية علىٰ أهلها وبالأسر علىٰ بعض ولله الحمد. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تجمعون وتساقون ﴿إِلَىٰ﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ أي: قبح المهاد والفراش الذي مهدتموه وفرشتموه لأنفسكم، والمخصوص بالذم نار جهنم، ودلت الآية علىٰ حصول البعث في يوم القيامة والنشر والحشر وعلىٰ أن مرد الكافرين النار.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف[1]: ﴿سيغلبون ويحشرون﴾ بالياء على الغيبة. وقرأ باقي السبعة: بالتاء خطاباً؛ أي: قل لهم في خطابك إياهم ستغلبون وتحشرون. فتكون الجملتان مقولاً لـ ﴿قُل﴾، وعلىٰ قراءة الياء لا تكون الجملة محكية بـ ﴿قُل﴾ بل محكية بقول آخر تقديره: قل لهم قولي: سيغلبون وإخباري أنه يقع عليهم الغلبة والهزيمة.

والفرق بينهما[2]: أنه على الخطاب يكون الإخبار بمعنىٰ كلام الله تعالىٰ، وعلى الغيبة يكون بلفظه. ثم حذرهم وأنذرهم بأن لا يغتروا بكثرة العَدَد والعُدَّة فلهم مما يشاهدون عبرة فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾. وهذه الجملة جواب قسم محذوف، وهي من تمام القول المأمور به لتقدير مضمون ما قبله، ولم يقل: كانت؛ لأن التأنيث غير حقيقي، وقال الفراء: إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله: لكم، وقال ابن جرير: الخطاب فيه لليهود والمعنىٰ: قل يا محمد لليهود: واللّهِ لقد كانت وحصلت لكم علامة عظيمة دالة علىٰ صدق ما أقول لكم من أنكم ستغلبون ﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾؛ أي في فرقتين اجتمعتا يوم بدر للقتال ﴿فِئَةٌ﴾؛ أي: فرقة منهما ﴿تُقَٰتِلُ﴾ وتجاهد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله؛ لإعلاء كلمته، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومئتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان فيهم سبعون بعيراً بين كل أربعة منهم بعير واحد ومن الخيل فرسان للمقداد بن عمرو ولمرثد بن أبي مرثد، وكان معهم من السلاح ستة دروع وثمانية سيوف. وقراءة العامة: ﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: إحداهما. وقرأ الحسن ومجاهد وحميد شذوذاً: ﴿فئةٍ﴾ بالجر علىٰ البدلية من فئتين. وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً أيضاً: ﴿فئة﴾ بالنصب، فيكون نصب الأولى علىٰ المدح، والثاني علىٰ الذم، وكأنه قال: أمدح فئة تقاتل

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

في سبيل الله، وأذم أخرىٰ كافرة. وقرأ الجمهور: ﴿تُقَٰتِلُ﴾ بالتاء علىٰ تأنيث الفئة، وقرأ مجاهد ومقاتل شذوذاً: ﴿يقاتل﴾ بالياء علىٰ التذكير نظراً لكون الفئة بمعنىٰ القوم ﴿و﴾ فرقة ﴿أخرى كافرة﴾ بالله ورسوله وهم مشركوا مكة، وكانوا تسع مئة وخمسين رجلاً من المقاتلة، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان فيهم مئة فرس، وكانت معهم من الإبل سبع مئة وأهل الخيل كلهم كانوا دارعين وكان في الرجال دروع سوىٰ ذلك، وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بعد الهجرة ﴿يَرَوْنَهُم﴾؛ أي: يرىٰ المشركون المؤمنين بعد ما شرعوا في القتال ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾؛ أي: مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾؛ أي: في رأي العين؛ أي: رؤية ظاهرة محققة بالعين لا بالوهم والخيال، وذلك أنه تعالىٰ كَثَّر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا ويجبنوا عن قتالهم ولا يعارض هذا ما قال في سورة الأنفال: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾؛ لأنهم قللوا أولاً في أعينهم حتىٰ اجترؤوا علىٰ قتالهم، فلما اجتمعوا. كثروا في أعينهم حتىٰ غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين ونظيره من المجمول علىٰ اختلاف الأحوال قوله تعالىٰ لها: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرىٰ في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية.

وهذا[1] علىٰ قراءة الجمهور بالياء التحتانية، وقرأ نافع وأبان عن عاصم من السبعة وسهل ويعقوب ﴿ترونهم﴾ بالتاء علىٰ الخطاب، والمعنىٰ: ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة، ومع ذلك غلبهم المؤمنون مع قلتهم جداً، فيكون هذا أبلغ في إكرام المؤمنين وعناية الله بهم، وقرأ ابن عباس وطلحة ﴿تُرَونهم﴾ بضم التاء علىٰ الخطاب، وقرأ السلمي: بضم الباء علىٰ الغيبة.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ ويقوي ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ وعونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ويريد نصره علىٰ عدوه ولو بدون الأسباب العادية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النصر لمحمد ﷺ وأصحابه يوم بدر مع قلتهم عَدَداً وعُدَداً أو رؤية القليل كثيراً، أو في غلبة القليل العديم العدة علىٰ الكثير الشاكي السلاح ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة؛ أي: لعظة عظيمة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة والأفكار السليمة المستقيمة والمعنىٰ: إن في هذا النصر مع قلة عددهم وكثرة عدوهم عظةٌ لمن عقل وتدبر فعرف الحق وثلج قلبه ببرد اليقين.

ووجه[1] نظم هذه الآية أن الآية المتقدمة وهي قوله تعالىٰ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ نزلت في شأن اليهود وأن رسول الله ﷺ لما دعاهم إلىٰ الإسلام.. أظهروا التمرد، وقالوا: لسنا أمثال قريش في الضعف وقلة المعرفة بالقتال، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما يغلب كل من ينازعنا، فالله تعالىٰ قال لهم: إنكم وإن كنتم أقوياء وأرباب العدد والعدة.. فإنكم ستغلبون، ثم ذكر الله تعالىٰ ما يجري مجرىٰ الدلالة علىٰ صحة ذلك القول فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾.

وروي أنه ﷺ لما دعا اليهود إلىٰ الإسلام بعد غزوة بدر.. أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبين الله تعالىٰ أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا زائلة، وأن الآخرة خير وأبقى، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: حسن لجنس الناس والآدميين. قرأ الجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ الضحاك: ﴿زَيَّنَ﴾ بالبناء للفاعل، والشهوات: جمع شهوة وهو توقان النفس إلىٰ الشيء المشتهىٰ، وهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول؛ أي: حسن لهم حب المشتهيات المذكورة، سماها شهوات مبالغة وإيماء إلىٰ أنهم انهمكوا في محبتها حتىٰ أحبوا شهوتها كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾، والمزيِّن لها هو الله تعالىٰ عند أهل السنّة لا الشيطان كما قالت المعتزلة؛ لأنه

---

(١) المراح.

تعالىٰ خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه، ولعله زينه ابتلاءً، أو لأنه يكون وسيلة إلىٰ السعادة الأخروية إذا كان علىٰ وجه يرتضيه الله تعالىٰ، ولأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع الإنساني. وتزيين الله: عبارة عن جعل القلوب متعلقة بها مائلة إليها، وتزيين الشيطان ووسوسته وتحسينه الميل إليها حالة كون تلك المشتهيات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، والإماء داخلة فيها وإنما بدأ بذكر النساء؛ لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان ﴿و﴾ من ﴿البنين﴾: جمع ابن، وإنما خص البنين بالذكر؛ لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثىٰ؛ لأنه يتكثر به ويعضده، ويقوم مقامه، وقد جعل الله تعالىٰ في قلب الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة، وهي بقاء التوالد. ولولا تلك المحبة لما حصل ذلك ﴿و﴾ من ﴿القناطير﴾؛ أي: ومن الأموال الكثيرة والكنوز الوفيرة ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾؛ أي: المجموعة أو المضروبة المنقوشة حتىٰ صارت دراهم ودنانير، وإنما كانا محبوبين؛ لأنهما جعلا ثمن جمع الأشياء، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير، أو حال منه، والواو فيه بمعنىٰ: أو المانعة الخلو فتجوز الجمع. قيل: سمُي الذهب ذهباً؛ لسرعة ذهابه بالإنفاق، والفضة فضة لأنها تنفض؛ أي: تتفرق بالإنفاق، والفض: التفرق ﴿و﴾ من ﴿الخيل المسومة﴾؛ أي: المرعية في المروج والمسارح، يقال: سامت الدابة إذا سرحت ورعت، والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها، أو المعلمة بعلامة خلقية بأن تكون غراً محجلة، أو بعلامة طارئة لتتميز عن غيرها كالكي، وقيل: الحسان المعدة للجهاد ﴿و﴾ من ﴿الأنعام﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم؛ لأن منها المركب والمطعم والزينة ﴿و﴾ من ﴿الحرث﴾؛ أي: ومن المزروع والمغروس وهو مصدر بمعنىٰ: المحروث الشامل للمغروس؛ لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأصناف السابقة ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما يتمتع ويتنعم به مدة الحياة الدنيا، ثم يذهب ولا يبقىٰ ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾؛ أي: المآب الحسن؛ أي؛ المرجع الحسن الدائم الذي لا يفنىٰ في الآخرة وهو الجنة، لمن ترك ذلك. وفيه تزهيد من الدنيا وترغيب في الآخرة، وقيل: فيه إشارة إلىٰ

أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة؛ لأنها السعادة القصوىٰ.

إيضاح معنىٰ الآية: معنىٰ تزيين حب الشهوات للناس: أن حبها مستحسن لديهم، لا يرون فيه قبحاً ولا غضاضة، ومن ثمَّ لا يكادون يرجعون عنه، وهذا أقصىٰ مراتب الحب، وصاحبه قلما يفطن لقبحه أو ضرره إن كان قبيحاً أو ضاراً، ولا يحب أن يرجع عنه وإن تأذىٰ به وقد يحب الإنسان شيئاً وهو يراه شيناً لا زيناً، وضاراً لا نافعاً، كما يحب بعض الناس شرب الدخان علىٰ تأذيه منه، ومن أحب شيناً ولم يزين له يوشك أن يرجع عنه يوماً ما، ومن زين له حبه فلا يكاد يرجع عنه.

والمعنىٰ: أن الله تعالىٰ فطر الناس علىٰ حب هذه الشهوات الستة المبينة في الآية وغيرها كآلات الملاهي:

فأولها: النساء: وهي موضع الرغبة ومطمح الأنظار، وإليهن تسكن النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال بكدهم وجدهم، فهم القوامون عليهن لقوتهم وقدرتهم علىٰ حمايتهن، فإسرافهم في حبهن له الأثر العظيم في شؤون الأمة وفي إضاعة الحقوق أو حفظها.

وقدم حب النساء علىٰ حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول؛ لأن حب الولد لايعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة، فكم من رجل جنىٰ حبه للمرأة علىٰ أولاده، فكثير ممن تزوجوا فوق الواحدة أفرطو في حب واحدة وقلوا أخرىٰ وأهملوا تربية أولاد المبغوضة وحرموهم سعة الرزق، وقد وسعوه على أولاد المحبوبة. وكم من غني عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، وليس لهذا من سبب إلا حب والدهم لغير أمهم، فهو يفعل ذلك للتقرب عندها وابتغاء الزلفىٰ إليها.

وثانيها: البنون: والمراد بهم الأولاد مطلقاً كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وفي الحديث: «الولد مجبنة مبخلة».

والعلة في حب الزوجة والولد واحدة: وهي تسلسل النسل وبقاء النوع، وهي حكمة مطردة في غير الإنسان من الحيوانات الأخرىٰ.

وحب البنين أقوىٰ من حب البنات لأسباب كثيرة:

ومنها: أنهم عمود النسب الذي به تتصل سلسلة النسل، وبه يبقىٰ ما يحرص عليه الإنسان من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس.

ومنها: أمل الوالد في كفالتهم له حين الحاجة إليهم لضعف أو كبر.

ومنها: أنه يرجي بهم من الشرف ما لا يرجي من الإناث كنبوغ في علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة.

ومنها: الشعور بأن الأنثىٰ حين الكبر تنفصل من عشيرتها، وتتصل بعشيرة أخرىٰ.

وثالثها: **القناطير المقنطرة من الذهب والفضة**: والعرب تريد بالقنطار المال الكثير والمقنطرة مأخوذة منه علىٰ سبيل التوكيد، وقد جرت عادتهم بأن يصفوا الشيء بما يشتق منه مبالغة، كما قالوا: ألوف مؤلفة، وظل ظليل، وليل أليل وهذا التعبير يشعر بالكثرة التي تكون مظنة الافتتان، والتي تشغل القلب للتمتع بها وتستغرق في تدبيرها الوقت الكثير حتىٰ لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلىٰ نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة.

ومن ثمَّ كان الأغنياء في كل الأمم لدىٰ بعثة الرسل أول الكافرين المستكبرين عن تلبية دعوتهم وإن أجابوها وآمنوا.. فهم أقل الناس عملاً وأكثرهم بعداً عن هدي الدين أنظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

وحب المال مما أودع في غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم، وسر هذا: أنه وسيلة إلىٰ جلب الرغائب وسبيل إلىٰ نيل اللذات والشهوات، ورغبات الإنسان

غير محدودة، ولذاته لا عد لها ولا حصر، وكلما حصل علىٰ لذة طلب المزيد منها، وما وصل إلىٰ غاية في جمع المال إلا تاقت نفسه إلىٰ ما فوقها حتىٰ يبلغ به النهم في جمعه أن ينسىٰ أن المال وسيلة لا مقصد، فيتفنن في الوصول إليه الفنون المختلفة والطرق التي تعن له، ولا يبالي أمن حلال كسب أم من حرام؟

روىٰ البخاري ومسلم عن ابن عباس قوله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب.. لتمنى أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله علىٰ من تاب» ولقد أعمَّتْ فتنة المال كثيراً من الناس، فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق الأمة والوطن، بل عن حقوق من يعاملهم، بل عن حقوق بيوتهم وعيالهم، بل عن أنفسهم، ومنهم من يقصر في النفقة علىٰ نفسه وعياله بالقدر الذي يزري بمروءته، فيظهر بمظهر المسترذل بين الناس في مأكله ومشربه وملبسه، ومنهم من يثلم بشرفه ويفتح ثغره للطاعنين والقائلين فيه بالحق وبالباطل؛ لأجل المال ومن ثم قالوا: المال ميّال.

ورابعها: ﴿الخيل المسومة﴾ التي ترعىٰ في الأودية يقال: سام الدابة: رعاها وأسامها أخرجها إلىٰ المرعىٰ وكل من الخيل الراعية التي تقتنىٰ للتجارة والمعلمة التي يقتنيها العظماء والأغنياء، من المتاع الذي يتنافس فيه الناس ويتفاخرون حتىٰ لقد يتغالىٰ بعضهم في ذلك إلىٰ حد هو أشبه بالجنون.

وخامسها: ﴿الأنعام﴾: وهي مال أهل البادية، ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم ومرافقهم، وبها تفاخرهم وتكاثرهم، وقد امتن الله بها علىٰ عباده بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وسادسها: ﴿الحرث﴾ وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان في البدو والحضر والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة، والانتفاع به أتم منها، لكنه أخر عنها لأنه لما عم الارتفاق به.. كانت زينته في القلوب أقلَّ، وقلما يكون الانتفاع به صادراً عن الاستعداد لأعمال الآخرة، أو مانعاً من نصرة الحق.

وهناك ما هو أعم نفعاً وأعظم فائدة في الحياة وهو: الضوء والهواء، فلا

يستغني عنهما حي من الأحياء، ومع ذلك قلما يلتفت الإنسان إليهما، ولا يفكر في غبطته بهما.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ أي: هذا الذي ذكر من الأصناف الستة المتقدمة هو ما يتمتع به الناس قليلاً في هذه الحياة الفانية، ويجعلونه وسيلة في معايشهم وسبباً لقضاء شهواتهم، وقد زين لهم حبها في عاجل دنياهم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ في الحياة الآخرة التي تكون بعد موتهم وبعثهم، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لخير الآجل، وفي هذه الجملة دلالة علىٰ أنه ليس فيما عدد عاقبة محمودة، فعلىٰ المؤمن أن لا يفتن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه، والشغل الشاغل له عن آخرته، فإذا استمتع بها بالقصد والاعتدال، ووقف عند حدود الله.. سَعِد في الدارين، ووفق لخير الحياتين كما قال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد للكفار أو للناس عامة، وهو أمر للنبي ﷺ بتفصيل ما أجمل أولاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾. ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾؛ أي: هل أخبركم أيها الناس بشيء أفضل من ذلكم المذكور من النساء والبنين إلىٰ آخره. وجيء بالكلام على صورة الاستفهام التشبيثي لتوجيه النفوس إلىٰ الجواب، وتشويقها إليه. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أأنبئكم﴾ - بتحقيق الهمزة الأولىٰ، وتسهيل الثانية ـ. والباقون: بالتحقيق فيهما، مع زيادة مد بينهما لبعضهم، وبدون زيادة لبعض آخر فالقراءات ثلاث، وليس في القرآن همزة مضمومة بعد مفتوحة إلا ما هنا، وما في صٓ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وما في اقتربت: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾. وقوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ يشعر بأن تلك الشهوات خير في ذاتها، ولا شك في ذلك؛ إذ هي من أجل النعم التي أنعم الله بها علىٰ الناس، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض في سائر نعم الله علىٰ عباده كالحواس والعقول وغيرها، فما مثل المسرف في حب النساء حتىٰ يعطي امرأته حق غيرها، أو يهمل لأجلها تربية أولاده.. إلا مثل من يستعمل عقله في استنباط الحيل ليبتز

حقوق الناس ويؤذيهم فسلوك الناس في الانتفاع بالنعم لا يدل علىٰ أنها هي في ذاتها شرٌّ، ولا كون حبها شراً مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة.
ثم أجاب عن هذا الاستفهام علىٰ نظير قولك: هل أدلك علىٰ تاجر عظيم في السوق يصدق في المعاملة، ويرخص السعر، ويفي بالوعد هو: فلان، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان ما هو خير؛ أي: للذين اجتنبوا الشرك والمعاصي والشهوات النفسانية، وتبتلوا إلىٰ طاعة الله، وأعرضوا عما سواها.. فلا تشغلهم الزينة عن طاعة الله تعالىٰ، بساتينُ مؤبدة، وحدائق منضدة حالة كونها مدخرة لهم عند ربهم. وقرأ يعقوب: ﴿جناتٍ﴾ بالجر بدلاً من قوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾. ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ أي: تسيل وتطرد من تحت أشجارها ومساكنها أنهار الخمر والعسل واللبن والماء حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقيمين في الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿و﴾ لهم فيها ﴿أزواج مطهرة﴾؛ أي: زوجات منظفة مهذبة من الحيض والنفاس والبصاق والمني وتشويه الخلقة وسوء العشرة والأخلاق الذميمة وسائر ما يستقذر لا يغوطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: ولهم فيها رضا ربهم أكبر ما فيهم، فيه من النعيم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً». متفق عليه.

وقيل: إن العبد إذا علم أن الله تعالىٰ قد رضي عنه.. كان أتم لسروره وأعظم لفرحه.

وجاء في معنىٰ هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ

أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن: ﴿رُضوان﴾ بضم الراء ما عدا الثاني في سورة المائدة وهو قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ففيه عنه خلاف. وقرأ باقي السبعة: بالكسر، وهما لغتنان.

وخلاصة المعنى: أن للذين اتقوا وأخبتوا إلىٰ ربهم، وأنابوا إليه نوعين من الجزاء: .

أحدهما: جسماني: وهو الجنات وما فيها من النعيم والخيرات والأزواج المبرأة من العيوب التي في نساء الدنيا خَلْقاً وخُلُقاً.

وثانيهما: روحاني عقلي: وهو رضوان الله الذي لا يشوبه سخط، ولا يعقبه غضب، وهو أعظم اللذات كلها في الآخرة عند المتقين.

وفي الآية إيماء إلىٰ أن أهل الجنة مراتب وطبقات، كما نرىٰ ذلك في الدنيا، فمنهم من لا يفقه لرضوان الله معنىٰ، ولا يكون ذلك باعثاً له علىٰ فعل الخير وترك الشر، وإنما يفقه اللذات الحسية التي جربها في الدنيا ففي مثلها يرغب.

ومنهم من ارتقىٰ إدراكه وعظم قربه من ربه، فيتمنىٰ رضاه، ويجعله الغاية القصوىٰ والسعادة التي ليس وراءها سعادة.

وقد نبه بهذه الآية علىٰ نعمه، فأدناها متاع الدنيا، وأعلاها رضوان الله تعالىٰ؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾، وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ أي: بصير بأعمالهم مطلع عليها عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا، فيجازي كلاً بعمله، فيثيب ويعاقب علىٰ قدر

الأعمال، فلا تخفىٰ عليه خافية من أمرهم، وهو المجازي كل نفس بما كسبت من خير أو شر.

وقد ختم سبحانه وتعالىٰ هذه الآية بتلك الجملة؛ ليحاسب الإنسانُ نفسه علىٰ التقوىٰ، فليس كل من ادعاها لنفسه أو تحرك بها لسانه يعد متقياً، وإنما المتقي من يعلم منه ربه التقوىٰ، ولما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ أن الجنة للمتقين.. ذكر شيئاً من صفاتهم فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوىٰ وأساسه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين يقولون في الدنيا ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا بك وبرسولك إجابةً لدعوتك ﴿فَٱغْفِرْ﴾ اللهم ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ واسترها وتجاوز عنا بعفوك عنها وترك العقوبة عليها ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: وادفع عنا عذاب النار بفضلك وكرمك إنك أنت الغفور الرحيم، وقد خصوا هذا العذاب بالمسألة؛ لأن من زحزح عن النار يومئذٍ.. فقد فاز بالنجاة وحسن المآب، ثم ذكر من أوصافهم ما امتازوا به عن غيرهم، وبه استحقوا المثوبة عند ربهم فقال: أمدح ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ تكاليف امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وفي البأساء والضراء وحين البأس ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم ونياتهم ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ أي: المطيعين لربهم المواظبين على العبادات وقيل هم المصلون. ﴿المنفقين﴾؛ أي: الباذلين أموالهم في وجوه الخير، ويدخل فيه نفقة الرجل علىٰ نفسه وعلىٰ أهله وأقاربه وصلة رحمه، والزكاة والنفقة في جميع القربات ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾؛ أي: الطالبين من ربهم مغفرة الذنوب في أواخر الليل؛ لأنها وقت إجابة الدعاء، ووقت الخلوة والفراغ. قال لقمان لابنه: يا بني لا يكن الديكُ أكيس منك ينادي بالأسحار، وقيل: المصلين التهجد: في آخر الليل، وهو الوقت الذي يطيب فيه النوم، ويشق فيه القيام، وتكون النفس فيه أصفىٰ، والقلب أفرغ من الشواغل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الأخير، فيقول: مَنْ يدعوني.. فأستجيب له، مَنْ يسألني.. فأعطيه، مَنْ يستغفرني.. فأغفر له» متفق

عليه. وفي لفظ مسلم: «فيقول: أنا الملك أنا الملك مَنْ ذا الذي يدعوني. . .» الحديث، وله في رواية أخرىٰ: «فيقول: هل من سائل فيُعطىٰ، هل من داعٍ فيستجابَ له، هل من مستغفر فيغفر له؟ حتىٰ ينفجر الصبح». وهذا الحديث من أحاديث الصفات، فمذهب السلف فيه الإيمان به وإجراؤه علىٰ ظاهره ونفي الكيفية عنه، وهو الأسلم الأعلم، وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم. . أقبل علىٰ الدعاء والاستغفار حتىٰ يصبح. رواه ابن أبي حاتم.

وخلاصة الكلام: أن المتقين هم الذين جمعوا هذه الصفات المذكورة التي لكل منها درجة في الفضل وشرف ورفعة، وبها نالوا هذا الوعد وهي خمسة:

إحداها: **الصبر**، وأكمل أنواعه: الصبر على أداء الطاعات، وترك المحرمات، فإذا هبت أعاصير الشهوات، وجمحت بالنفس إلىٰ ارتكاب المعاصي، فلا سبيل لردعها إلا بالصبر، فهو الذي يثبت الإيمان ويقف بها عند حدودالشرع، وهو الحافظ لشرف الإنسان في الدنيا عند المكاره، ولحقوق الناس أن تغتالها أيدي المطامع، وهو كالشرط في كل ما يذكر بعده من الصدق والقنوت والاستغفار بالأسحار.

ثانيتها: **الصدق**، وهو منتهىٰ الكمال، وحسبك في بيان فضيلته قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وثالثتها: **القنوت**، وهو المداومة علىٰ الطاعة والإخبات إلىٰ الله مع الخشوع والخضوع وهو لبُّ العبادة وروحها وبدونه تكون العبادة جسماً بلا روح وشجرة بلا ثمرة.

ورابعتها: **الإنفاق للمال** في جميع السبل التي حث عليها الدين سواء أكانت النفقة واجبة أم مستحبة فالإنفاق في وجوه الخير جميعاً مما حث عليه الشارع وندب إليه.

وخامستها: **الاستغفار بالأسحار**؛ أي: التهجد في آخر الليل، وهو الوقت الذي يطيب فيه النوم ويشق القيام وتكون النفس فيه أصفىٰ والقلب فارغاً والاستغفار المطلوب: هو ما يقرن بالتوبة النصوح والعلم علىٰ ميزان الشرع، ولا يكفي الاستغفار باللسان مع الإدمان علىٰ فعل المنكر، فإن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بربه، ولا يغتر بمثل هذا الاستغفار إلا جاهل بدينه أو غر في معاملته لربه، ومن ثمَّ أثر عن بعضهم قوله: إنَّ استغفارنا يحتاج إلىٰ استغفار.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ⑩﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿لَن﴾: حرف نصب ونفي. ﴿تُغْنِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ معطوف علىٰ ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من شيئاً؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. (أولئك): مبتدأ أول ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ثانٍ، أو ضمير فصل، ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لعدم الإغناء، أو معطوفة علىٰ خبر (أن) وعلىٰ كلا الاحتمالين ففيها تعيين للعذاب الذي بين أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئاً، ذكره أبو السعود.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، آل مضاف، ﴿فِرْعَوْنَ﴾: مضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دأبهم كدأب

آل فرعون، والجملة مستأنفة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل الجر معطوف علىٰ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِمْۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة الموصول.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿كَذَّبُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسِّرة لـ(دأب آل فرعون)، أو في محل النصب حال من ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، ولكنه علىٰ تقدير: قد، ويحتمل كون ﴿الذين من قبلهم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء عاطفة سببية (أخذهم الله): فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ ﴿بِذُنُوبِهِمْۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ(أخذهم). ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة مفيدة لتعليل ما قبلها، والإضافة فيه من إضافة الصفة المشبهة إلىٰ مرفوعها والأصل: والله شديد عقابه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: جار ومجرور وصلة الموصول متعلق بـ﴿قُل﴾ ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُل﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعله، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ جملة فعلية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ﴾: ﴿إِلَىٰ﴾: حرف جر ﴿جَهَنَّمَۖ﴾: مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي؛ لأنه بمعنىٰ: الطبقة، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تحشرون﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿بئس﴾: فعل ماضٍ، وهو من أفعال الذم ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف هو المخصوص بالذم تقديره: بئس المهاد جهنم، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، أو جملة مستأنفة.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، أو تام ﴿ءَايَةٌ﴾ اسمها مؤخر، أو فاعل ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبرها مقدم علىٰ اسمها أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾. ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: في قصة فئتين، أو متعلق بـ﴿كَانَ﴾، والتقدير علىٰ كونها ناقصة: قد كانت آية حاصلة في قصة فئتين كائنة لكم، وعلى كونها تامة: قد كان وحصل لكم في فئتين آية دالة علىٰ صدق ما أقول لكم من قول: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ من اسمها وخبرها، أو من الفعل والفاعل: جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾، والتقدير: قل لهم يا محمد: واللّهِ قد كان لكم آية في فئتين. . . إلىٰ آخر الآية. ﴿ٱلْتَقَتَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿فِئَتَيْنِ﴾ تقديره: فئتين ملتقيتين.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

﴿فِئَةٌ﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل، ﴿تُقَٰتِلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿فِئَةٌ﴾ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُقَٰتِلُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: فئة مقاتلة في سبيل الله، والجملة الاسمية في محل الجر بدل من ﴿فِئَتَيْنِ﴾ بدل تفصيل من مُجمل، وأما علىٰ قراءة الجر فبدل من ﴿فِئَتَيْنِ﴾، وعلى قراءة النصب فمنصوب علىٰ المدح بفعل محذوف. ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾: الواو عاطفة ﴿أخرى﴾: مبتدأ، ولكنه علىٰ حذف موصوف تقديره: وفئة أخرى. ﴿كَافِرَةٌ﴾: خبره، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ كونها بدلاً من ﴿فِئَتَيْنِ﴾.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

﴿يَرَوْنَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأن رأىٰ بصرية. ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾: حال من مفعول (يرون) منصوب بالياء، والضمير مضاف إليه، ولكنه علىٰ تأويله بمشتق

تقديره: حالة كون الفرقة المسلمة مماثلين للفرقة الكافرة، وجملة (يرون)[1] من الفعل والفاعل خبر ثانٍ لقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أو صفة له، أو نعت لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذه الاحتمالات علىٰ قراءة الياء التحتية، وأما علىٰ قراءة التاء الفوقية، فتكون الجملة مستقلة ومستأنفة راجعة لقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾، وأياً ما كان. فالقصد من هذا الوصف تقرير الآية التي في الفئتين وفي التقائهما واجتماعهما. تأملْ ذكره في «الفتوحات الآلهية». ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾: مصدر مؤكد لعامله منصوب علىٰ المفعولية المطلقة بـ(يرون) و﴿ٱلْعَيْنِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿يُؤَيِّدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿قَدْ كَانَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾، ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُؤَيِّدُ﴾ ﴿مَن يَشَآءُ﴾: ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُؤَيِّدُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: يشاؤه، وهو العائد علىٰ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ مقدم علىٰ اسمها. ﴿لَعِبْرَةً﴾ اللام حرف ابتداء، عبرةً: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة ﴿لَعِبْرَةً﴾ تقديره: إن عبرة كائنة لأولي الأبصار لكائنةٌ في ذلك المذكور.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾.

﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق

(١) الجمل.

بـ﴿زُيِّنَ﴾ ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: معطوف علىٰ النساء أيضاً، ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ صفة لـ﴿قناطير﴾ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿القناطير﴾ ﴿وَٱلْفِضَّةِ﴾: معطوف عليه. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: صفة للخيل ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: معطوف عليه جرياً علىٰ القاعدة المشهورة عند النحاة: أن المعطوفات إذا كثرت، وكان العطف بغير مرتب.. يكون العطف علىٰ الأول لا غير. كما ذكرته في «الباكورة الجنية على متن الآجرومية».

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: خبر ومضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿الحياة﴾، والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ أول ﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ الثاني تقدير الكلام: والله حسن المآب كائن عنده، والجملة مستأنفة.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة، ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: الهمزة للاستفهام التقريري مبنية علىٰ الفتح، ولكن ليس[1] المراد هنا بالتقرير: طلب الإقرار والاعتراف من المخاطبين، كما هو معنىٰ الاستفهام التقريري في الأصل، بل المراد به هنا: التحقيق والتثبيت في نفوس المخاطبين؛ أي: تحقيق خيرية ما عند الله وأفضليته علىٰ شهوات الدنيا، (أنبئكم): فعل

---

(١) الجمل.

مضارع ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ ﴿بِخَيْرٍ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نبأ﴾، ونبأ هنا[1] تعدَّتْ إلىٰ مفعولين: أحدهما: بنفسه، والآخر: بحرف الجر، قاله أبو حيان في «النهر» ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بِخَيْرٍ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿ٱتَّقَوْا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ـ أعني قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ ـ ويجوز أن يكون الظرف حالاً من ﴿جَنَّٰتٌ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها فتنصب حالاً ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جواب للاستفهام السابق في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾.

ويقرأ شذوذاً[2]: ﴿جناتٍ﴾ بكسر التاء، وفيه حينئذٍ وجهان:

أحدهما: هو مجرور بدلاً من (خير)، فيكون: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ علىٰ هذا صفة لـ(خير).

والثاني: أن يكون منصوباً علىٰ إضمار: أعني، أو بدلاً من موضع ﴿بِخَيْرٍ﴾، ويجوز أن يكون الرفع علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو جنات.

﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآتي، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جَنَّٰتٌ﴾ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَجْرِي﴾ أو حال من فاعل ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: تجري الأنهار حالة كونها كائنة تحتها. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿الذين اتقوا﴾، والعامل فيها الاستقرار المحذوف. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة لـ﴿أزواج﴾، وكذا قوله؛ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾: معطوف علىٰ ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رضوان﴾. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: الواو استئنافية ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرٌۢ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ متعلق بـ﴿بَصِيرٌۢ﴾.

---

(١) النهر. (٢) العكبري.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾: في محل الجر بدل من (الذين اتقوا)، أو نعت له ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئتَ قلتَ: ﴿رب﴾: منادىٰ مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿إِنَّنَآ﴾: (إنَّ) حرف نصب، ونا اسمها، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول القول. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾: الفاء عاطفة. ﴿اغفر﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. قال الكرخي: وفي ترتيب هذا السؤال علىٰ مجرد الإيمان دليل علىٰ أنه كافٍ في استحقاق المغفرة، وفيه ردٌّ علىٰ أهل الاعتزال؛ لأنهم يقولون: إن استحقاق المغفرة لا يكون بمجرد الإيمان. انتهىٰ. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَقِنَا﴾: الواو عاطفة ﴿قِ﴾: فعل دعاء مبني علىٰ حذف حرف العلة، وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها؛ لأنه من وقىٰ يقي، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله و﴿نا﴾: مفعول أول ﴿عَذَابَ﴾: مفعول ثانٍ ﴿النَّارِ﴾: مضاف إليه، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾: نعت ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أو لـ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مجرور بالياء، وقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ كلها معطوفات علىٰ ﴿الصَّابِرِينَ﴾. ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾: متعلق بـ﴿المستغفرين﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾: من أغنىٰ الرباعي يغنىٰ إغناءً، والإغناء: الدفع والنفع، وفلان عظيم الغنىٰ؛ أي: الدفع والنفع. ﴿وَقُودُ﴾: الوقود: بفتح الواو علىٰ قراءة الجمهور اسم لما توقد به النار من الحطب، وبضمها مصدر: وقدت

النار تَقِدُ وقوداً إذا اتقدت.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: والدأب: الاجتهاد، وهو مصدر: دأب الرجل في عمله يدأب ـ من بابي: قطع وخضع ـ دأباً ودؤباً، إذا جدَّ واجتهد وتعب فيه، وغلب استعماله في العادة والشأن والحال، والمراد به هنا: كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾: تثنية: فئة، والفئة: الجماعة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها: فئات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص، وسميت الجماعة من الناس فئة؛ لأنها يفاء إليها عند الشدة؛ أي: يرجع إليها في وقت الشدة.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾: هو مصدر مؤكد ورأىٰ هنا بصرية. ﴿يُؤَيِّدُ﴾؛ أي: يقوي، مضارع أيده تأييداً إذا نصره وأعانه. ﴿لَعِبْرَةً﴾: العبرة: الاتعاظ، وهو اسم مصدر لاعتبر اعتباراً، والاعتبار: الانتقال من حالة الجهل إلىٰ حالة العلم، واشتقاقها من العبور، وهي مجاوزة الشيء إلىٰ الشيء ومنه: عبور النهر، وفي «الخازن»: العبرة: الدلالة الموصلة إلىٰ اليقين المؤدية إلىٰ العلم، وأصلها من العبور كالجلسة من الجلوس، كأنه طريق يعبرونه، فيوصلهم إلىٰ مرادهم، وقيل: العبرة: هي التي يعبر عنها من منزلة الجهل إلىٰ منزلة العلم. انتهىٰ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: والتزيين: تحسين الشيء وتجميله في أعين الناس، والشهوات: جمع شهوة: اسم مصدر من اشتهىٰ اشتهاءً، والشهوة: ثوران النفس وميلها إلىٰ الشيء المشتهىٰ، فالمصدر هنا بمعنىٰ: اسم المفعول، عبر به عنه مبالغة في كونها مشتهاة مرغوباً فيها كأنها نفس الشهوات.

﴿القناطير﴾: جمع قنطار: وهو في الأصل عقد الشيء وإحكامه، يقال: قنطرتُ الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة؛ أي: المحكمة الطاق، وفي نونه قولان:

أحدهما: وهو قول جماعة أصلية، فوزنه فعلال كقرطاس.

الثاني: أنها زائدة فوزنه: فنعال، والمراد به هنا: المال الكثير، واختلفوا فيه هل هو محدود أم لا؟ علىٰ قولين، وعلىٰ الأول اختلفوا في حده، فقيل: هو مئة رطل، وقيل: ألف ومئتا أوقية، وقيل: اثنا عشر ألف أوقية، وقيل: ألف ومئتا دينار، وكل هذه الأقوال رويت عن النبي ﷺ، وعلى الثاني قال أبو عبيدة: القنطار وزن لا يحد، وقال ابن عطية: القنطار معيار يوزن به كما أن الرطل معيار.

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: والخيل فيه قولان:

أحدهما: أنه جمع لا واحد له من لفظه، بل مفرده: فرس، فهو نظير قوم ورهط ونساء.

والثاني: أن مفرده: خائل، فهو نظير ركب وراكب وتاجر وتجر وطائر وطير، وفي اشتقاقها وجهان:

أحدهما: من الاختيال، وهو العجب سميت بذلك لاختيالها في مشيتها بطول أذنابها.

والثاني: من التخيل، قيل: لأنها تتخيل في صورة من هو أعظم منها.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: جمع نعم، والنعم اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو يذكر ويؤنَّث، ويطلق علىٰ الإبل والبقر والغنم، وجمعه علىٰ: أنعام باعتبار أنواعه الثلاثة ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: المحروث، والمراد به المزروع سواء كان جوباً أم بقلاً أم ثمراً، ولم يجمع كما جمعت أخواته نظراً لأصله وهو المصدر يقال: حرث الرجل حرثاً إذا أثار الأرض فيقع علىٰ الأرض والزرع، وقال ابن الأعرابي: الحرث: التفتيش.

﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: المآب[1]: مفعَل ـ بفتح العين ـ من آب يؤوب من باب: قال؛ أي: رجع، والأصل: المَأْوَب فنقلت حركة الواو إلىٰ الهمزة الساكنة

---

(١) الفتوحات الإلهية.

قبلها، فقلبت الواو ألفاً وهو هنا اسم مصدر بمعنىٰ الرجوع، وقد يستعمل اسم مكان أو زمان تقول: آب يؤوب أوباً وإياباً، فالأوب والإياب مصدرين، والمآب اسم لهما، ذكره السمين.

﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بكسر الراء وضمها مصدران لـ (رضي) فهما بمعنىٰ واحد، وإن كان الثاني سماعياً، والأول قياسياً، ونظير الكسر كالإتيان والقربان ونظير الضم كالشكران والكفران، فالكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم وبكر وقيس وغيلان وقيل الكسر للاسم ومنه: رضوان خازن الجنة، والضم للمصدر.

﴿بِالْأَسْحَارِ﴾: جمع سَحَر بفتح الحاء وسكونها، وقال قوم منهم الزجاج: السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، ومنه يقال: سحر إذا أكل في ذلك الوقت، واستسحر إذا سار فيه.

البلاغة

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: فيه مجازٌ بالحذف، والأصل من عذاب الله. ﴿شَيْئًا﴾: التنكير فيه للتقليل؛ أي: لن تنفعهم نفعاً ما ولو قليلاً. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾؛ أي: أتى بالجملة الاسمية للدلالة علىٰ ثبوت الأمر وتحققه، وفيها التشبيه؛ لأنه شبههم بالحطب الذي لا ينتفع به إلا في الوقود، وفيها التأكيد؛ لأنه أكدها بلفظة ﴿هُمْ﴾.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: فيه التفات من الحاضر إلىٰ الغيبة، والأصل: فأخذناهم.

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فيه ذكر العام وإرادة الخاص علىٰ قول عامة المفسرين: إن المراد بهم اليهود، وهذا من تكوين الخطاب.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الأصل: آية لكم وقدم للاعتناء بالمقدم والتشويق إلىٰ المؤخر والتنكير في آية للتفخيم والتهويل؛ أي: آية عظيمة.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ في هذا الكلام من المحسنات البديعية شبه احتباك، وهو أن يحذف من أحد متقابلين نظير ما اشتبه

في الآخر، والأصل[1]: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرىٰ كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولىٰ، فذكر في الأولىٰ لازم الإيمان وهو: القتال في سبيل الله، وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان: وهو الكفر.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾: فيه من المحسنات البديعية: التجنيس المغاير والاحتراس في ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قالوا: لئلا يعتقد أنه من رؤية القلب، فهو من باب الحزر وغلبة الظن ومن ضروب البلاغة: الإبهام في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، وفي إيقاع التزيين علىٰ حب مسامحة، لأجل المبالغة. والمزين حقيقة: هو المشتهيات، قال الزمخشري: عبَّر بالشهوات مبالغة، كأنها نفس الشهوات وتبنيها علىٰ خستها؛ لأن الشهوة رذيلة عند الحكماء وفي قوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، من المحسنات: التجنيس المماثل.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو السعود: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم. ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: التنكير فيه للتفخيم. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إدخال الواو في مثل هذه الصفات للتفخيم؛ لأنه يؤذن بأن كل صفة مستقلة يمدح الموصوف بها، وللدلالة علىٰ كماله في كل واحدة منها.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

لما مدح الله تعالىٰ المؤمنين، وأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾. أردفه ببيان أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بيَّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن باستسلامه لله، وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب، واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ سبب نزول هذه الآية: أن حبرين[1] من أحبار الشام قدما علىٰ النبي ﷺ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا علىٰ النبي ﷺ. عرفاه بالصفة فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم، قالا: فإنا نسألك عن شيء فإن أنت أخبرتنا به.. آمنا

---

(١) خازن وقرطبي.

بك وصدقناك، قال: اسألاني، قالا: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ، فأنزل الله هذه الآية، فأسلم الحبران.

وقيل[1]: إن هذه الآية نزلت في نصارىٰ نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ...﴾ سبب نزولها: لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارىٰ أنه لا دين أفضل من النصرانية.. ردَّ الله عليهم فقال: إن الدين عند الله الإسلام، وقال الكلبي: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نزلت في اليهود والنصارىٰ حين تركوا الإسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، أخرج[2] ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس علىٰ جماعة من اليهود، فدعاهم إلىٰ الله عزّ وجلّ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: علىٰ أي دينٍ أنت يا محمد؟ قال: علىٰ ملة إبراهيم ودينه، قالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: هلموا إلىٰ التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أخبر الله سبحانه وتعالىٰ، وأعلم وبيّن لعباده بالدلائل السمعية والآيات العقلية ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿و﴾ شهدت ﴿الملائكة﴾ كلهم وأقرَّت بتوحيد الله تعالىٰ بما عاينوا من عظيم قدرته تعالىٰ

---

(١) الخازن والقرطبي.

(٢) لباب النقول.

﴿و﴾ شهد ﴿أولو العلم﴾؛ أي: أقر أصحاب العلم بذلك التوحيد، وهم الذين عرفوا وحدانية الله تعالىٰ بالدلائل القاطعة؛ لأن الشهادة إنما تكون مقبولة إذا كان الإخبار مقروناً بالعلم، والمراد بهم المؤمنون كلهم، فمعنىٰ شهادة الله لتوحيده: أنه خلق الدلائل الدالة علىٰ توحيده وشهادة الملائكة وأولي العلم هي: إقرارهم بتوحيده تعالىٰ وهذه الآية تدل علىٰ أن الدرجة العالية، والمرتبة الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل علىٰ فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقَرنه الله تعالىٰ باسمه واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقوله ﷺ: «أن العلماء ورثة الأنبياء»، ولقد أجاد من قال في بيان فضل العلم:

عِلْمُ ٱلْعَلِيْمِ وَعَقْلُ ٱلْعَاقِلِ ٱخْتَلَفَا ... مَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ ٱلشَّرَفَا
فَٱلْعِلْمُ قَالَ: أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ ... وَٱلْعَقْلُ قَالَ: أَنَا ٱلرَّحْمٰنُ بِيْ عُرِفَا
فَأَفْصَحَ ٱلْعِلْمُ إِفْصَاحاً وَقَالَ لَهُ: ... بِأَيِّنَا ٱللَّهُ فِيْ فُرْقَانِهِ ٱتَّصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْعِلْمَ سَيِّدُهُ ... فَقَبَّلَ ٱلْعَقْلُ رَأْسَ ٱلْعِلْمِ وَٱنْصَرَفَا

وقوله: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ حال لازمة من لفظ الجلالة، والعامل فيه معنىٰ جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: تفرد سبحانه وتعالىٰ حالة كونه قائماً ومتصفاً بالقسط والعدل في تدبير أمور خلقه من الأرزاق والآجال والإحياء والإماتة والرفع والخفض والثواب والعقاب، وهذا بيان لكماله تعالىٰ في أفعاله بعد بيان كماله في ذاته، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالىٰ، كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد، وقيل: إن الأول: وصف وتوحيد والثاني: رسم تعليم؛ أي: قولوا لا إله إلا هو، وقيل: فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حث للعباد علىٰ تكريرها والاشتغال بها، فإنه من اشتغل بها.. فقد اشتغل بأفضل العبادات. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فالعزة تلائم الوحدانية، والحكمة تلائم القيام

بالقسط، فأتىٰ بهما لتقرير الأمرين علىٰ ترتيب ذكرهما.

وفي «المدارك»[1]: «من قرأ هذه الآية عند منامه وقال بعدها: أشهد بما شهد الله به، واستودع الله هذه الشهادة وهي عنده وديعة، يقول الله يوم القيامة: إن لعبدي هذا عندي عهداً، وأنا أحق من وفىٰ بالعهد أدخلوا عبدي الجنة».

وعن عبد الله بن مسعود[2]: قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عزّ وجلّ عبدي عهد إليَّ، وأنا أحق من وفىٰ بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة».

وقرأ أبو الشعثاء[3]: ﴿شُهِد﴾ بضم الشين مبنياً للمفعول، فيكون: ﴿أَنَّهُۥ﴾ في موضع البدل؛ أي: شهد وحدانية الله وألوهيته. وارتفاع الملائكة علىٰ هذه علىٰ الابتداء، والخبر محذوف تقديره: والملائكة وأولو العلم يشهدون، وحذف الخبر لدلالة المعنىٰ عليه.

وقرأ أبو المهلب عم محارب بن دثار: ﴿شهداءَ الله﴾ علىٰ وزن فعلاء جمعاً منصوباً علىٰ الحال من الضمير في المستغفرين، وهو إما جمع شهيد، كظرفاء وظريف، أو جمع شاهد، كعلماء وعالم.

وروي عنه وعن أبي نهيك: ﴿شهداءُ الله﴾ بالرفع؛ أي: هم شهداء الله، وفي هاتين القراءتين: شهداء مضاف إلىٰ لفظ الجلالة.

وذكر الزمخشري أنه قرأ: ﴿شهداءُ لله﴾ برفع الهمزة ونصبها وبلام الجر داخلة علىٰ اسم الله، فوجه النصب علىٰ الحال من المذكورين والرفع علىٰ إضمارهم، ووجه رفع الملائكة علىٰ هاتين القراءتين عطفاً علىٰ الضمير المستكن في شهداء، وجاز ذلك لوقوع الفاصل بينهما.

وروي عن أبي المهلب: ﴿شُهُداً﴾ بضم الشين والهاء جمع شهيد، كنذير

---

(١) المراح.

(٢) ابن كثير.

(٣) البحر المحيط.

ونذر، وهو منصوب علىٰ الحال، واسم الله منصوب.

وذكر النقَّاش: أنه قرىء كذلك بضم الدال وبفتحها مضافاً لاسم الله في القراءتين.

وقراءة الجمهور: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ على أنه فعل وفاعل فجملة القراءات في: ﴿شهد﴾ تسعة مع قراءة الجمهور، وكلها شاذة عدا قراءة الجمهور.

وقرأ أبو عمرو بخلاف عنه بإدغام واو ﴿هُوَ﴾ في واو ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وذكر ابن جرير[1] أن ابن عباس قرأ: ﴿شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام﴾ بكسر: إنه، وفتح: أن الدين الإسلام؛ أي: شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام، وتكون جملة قوله: أنه لا إله إلا هو جملةً معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهي قراءة شاذة والجمهور قرؤوها بكسر همزة: إن الدين، وفتح همزة: أنه، وكلا المعنيين صحيح، ولكن المعنىٰ على قراءة الجمهور أظهر والله أعلم.

وقرأ أبو حنيفة: ﴿قَيِّماً بالقسط﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿القائم﴾ علىٰ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو القائم بالقسط، وكلا القراءتين شاذتان.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ أي: إن الشرع المرضي المقبول عند الله تعالىٰ هو الإسلام والانقياد لأمر الله ونهيه، واعتقاد ما جاءت به الرسل من صفات الله تعالىٰ والبعث والجزاء، فلا دين مرضياً لله تعالىٰ سوىٰ الإسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة التي عليها الرسل عليهم السلام.

وتقدم لك قريباً أن الجمهور قرؤوا بكسر همزة: أن، علىٰ أن الجملة مستأنفة، وقال الكسائي[2]: أنا أفتحهما جميعاً يعني قوله: ﴿شهد الله أنه﴾،

---

(١) ابن كثير.

(٢) الشوكاني.

وقوله: ﴿أن الدين الإسلام﴾ بمعنىٰ شهد الله أنه كذا، وأن الدين الإسلام. قال ابن كيسان: أن الثانية بدل من الأولىٰ، وهذه رواية شاذة عن الكسائي رحمه الله تعالى.

وخلاصة معنى هذه الجملة[1]: أن جميع الملل والشرائع التي جاءت بها الأنبياء والرسل روحها الإسلام، والانقياد والخضوع. وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقي مَنْ كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وجد، وهذا هو المراد بقوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وذلك أن الله شرع الدين لأمرين:

أحدهما: تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات، بها تستطيع التصرف في الكائنات؛ لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها.

وثانيهما: إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله.

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقي؛ ليسهل علىٰ صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله وهو: دين الله تعالىٰ الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به.

وخطب علي رضي الله عنه قال: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، ثم قال: إن المؤمن أخذ دينه عن ربه، ولم يأخذه عن رأيه، إن المؤمن

---

(١) المراغي.

يعرف إيمانه في عمله، والكافر يعرف كفره بإنكاره، أيها الناس دينَكُم دينَكُم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره؛ إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة في غيره لا تقبل.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ﴾ وتفرق ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ وأُعطوا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل من اليهود والنصارىٰ في دين الإسلام، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: نحن أحق بالنبوة من قريش؛ لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ وحصل لهم ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ والمعرفة بصدق محمد ﷺ بما عرفوه في كتبهم من نعته ووصفه قبل بعثته. ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ أي: ما خالفوه وأنكروه إلا لأجل الحسد الكائن منهم وطلب الرياسة لا لشُبهةٍ وخفاءٍ في أمره.

وقال الأخفش(١): في الكلام تقديم وتأخير، والمعنىٰ: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو: خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا، وقيل: اختلافهم في دين الإسلام، فقال قوم؛ إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، وقيل: اختلافهم في التوحيد، فثلثت النصارىٰ، وقالت اليهود: عزير ابن الله. وقيل: اختلافهم في نبوة عيسىٰ وقيل: اختلافهم في ذات بينهم حتىٰ قالت اليهود: ليست النصارى علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ: ليست اليهودُ علىٰ شيء.

وقيل معنىٰ الآية(٢): وما خرج أهل الكتاب من الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم وصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون في الدين، والدين واحد، لا مجال فيه للاختلاف والاقتتال إلا بسبب البغي وتجاوز الحد من الرؤساء، ولولا بغيهم ونصرهم مذهباً علىٰ مذهب وتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوىٰ وتأويل بعضه أو تحريفه.. لما حدث هذا الاختلاف، والقصد من إخبار هذا الاختلاف أن نبتعد عن الخلاف في الدين والتفرق فيه إلىٰ شيع ومذاهب، كما فعل مَنْ قبلنا،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

ولكن واأسفاً وقعنا فيما وقع فيه السالفون، وتفرقنا طرائق قدداً، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نَزَال نَئِنُّ منه، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته ويمدنا بروح من عنده، فيسعىٰ أهل الإيمان الصادق في نبذ الاختلاف والشقاق، والعودة إلى الوحدة والاتفاق حتىٰ يعود المسلمون إلىٰ سيرتهم الأولىٰ في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ومن تبعهم بإحسان.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن ينكر بالآيات الدالة علىٰ أن الدين المرضي عند الله هو الإسلام بأن لم يعمل بمقتضاها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: المجازاة له علىٰ كفره؛ أي: فإنه يحاسبه علىٰ كفره ويجازيه عليه قريباً، ولا يخفىٰ ما فيه من الوعيد والتهديد.

وخلاصة هذا الكلام: ومن يكفر بآيات الله الدالة علىٰ وجوب الاعتصام بالدين ووحدته وحرمة الاختلاف والتفرق فيه ويترك الإذعان لها.. فالله يجازيه ويعاقبه علىٰ ما اجترح من السيئات، والله سريع الحساب. والمراد بآيات الله هنا: هي آياته التكوينية في الأنفس والآفاق، ويدخل في ترك الإذعان لها صرفُها عن وجهها؛ لتوافق مذاهب أهل الزيغ والإلحاد. وآياتُهُ التشريعية التي أنزلها علىٰ رسله. والله أعلم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾؛ أي: خاصمك يا محمد أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ أو غيرهم في أن الدين عند الله هو الإسلام بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ﴾؛ أي: أسلمت ذاتي من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أو أخلصت عملي وعبادتي ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ وحده لا أشرك به في ذلك غيره ﴿و﴾ أسلم ﴿من اتبعنِ﴾ وجوهُهم لله تعالىٰ، فهو معطوف علىٰ التاء في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وجاز ذلك لوجود الفصل بالمفعول، والمعنى: أنه ﷺ أسلم وجهه لله، وهم أسلموا وجوههم لله تعالىٰ. وأثبت[1] الياء في: ﴿ٱتَّبَعَنِ﴾ نافع وأبو عمرو وصلاً، وحذفاها وقفاً، وأثبتها يعقوب وصلاً ووقفاً، والباقون حذفوها وقفاً ووصلاً

---

(١) الجمل.

موافقة للرسم، وحسَّن ذلك أيضاً كونها فاصلة ورأس آية نحو: ﴿أكرمن﴾ و ﴿أهانن﴾ وقال بعضهم: حذف هذه مع نون الوقاية خاصة فإن لم تكن نون.. فالكثير إثباتها، ومعنىٰ الكلام: فإن جادلك أهل الكتاب أو غيرهم ـ وقد كان النبي ﷺ يدعوا اليهود في المدينة إلىٰ ترك ما أحدثوه في دينهم، وتعودوه من التحريف والتأويل، والرجوع إلىٰ حقيقة الدين وإسلام الوجه لله، والإخلاص له بعد أن أقيمت عليهم البراهين والبينات ـ وجئتهم بالحق، فقل لهم: أقبلت بعبادتي علىٰ ربي مخلصاً له معرضاً عما سواه أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

والخلاصة: أنه لا فائدة في الجدل مع مثل هؤلاء؛ لأنه لا يكون إلا فيما فيه خفاء أما وقد قامت الأدلة وبطلت شبهات الضالين، فهو مكابرة وعناد، ولا يستحق منك إلا الإعراض وعدم إضاعة الوقت سدىٰ.

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: لليهود والنصارىٰ ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: مشركي العرب الذين لا كتاب لهم، وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة؛ لأنهم هم الذين خوطبوا أولاً بالدعوة ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾؛ أي: أتسلمون بعد أن أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام كما أسلمت أنا ومن اتبعني، أم تصرون علىٰ كفركم وعنادكم. وهذه الجملة صورته استفهام تقريري، ومعناه: أمر؛ أي: أسلموا، كذا قاله ابن جرير وغيره وقال الزجاج: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، والمعنىٰ: أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا تبكيتاً لهم وتصغيراً لشأنهم في الإنصاف وقبول الحق، وتعييراً لهم بالبلادة وجمود القريحة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ كما أسلمتم.. ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ للفوز والنجاة في الآخرة؛ أي: ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخيري الدنيا والآخرة. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: أعرضوا عن الإسلام وقبول الحق والاتباع لدينك.. فلن يضروك شيئاً. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: ما عليك إلا إبلاغ ما أنزل إليك إليهم، وقد أدَّيته علىٰ أتم وجه وأكمله، ولست عليهم بمسيطر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، فيجازي كلاً منهم بعمله؛ أي:

فهو تعالىٰ أعلم بمن طمس علىٰ قلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة فوقع اليأس من اهتدائه، وبمن يُرجىٰ له الهداية والتوفيق بعد البلاغ.

روي[1] أن رسول الله ﷺ: لما قرأ هذه الآية علىٰ أهل الكتاب قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: «أتشهدون أن عيسىٰ كلمة الله وعبده، ورسوله»، فقالوا: معاذ الله، وقال ﷺ للنصارىٰ: «أتشهدون أن عيسىٰ عبد الله ورسوله»، فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسىٰ عبداً، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالقرآن، وبما جاء به محمد ﷺ من اليهود والنصارىٰ وغيرهم. فالآية وإن كانت قد نزلت في فريق من اليهود والنصارىٰ إلا أنها عامة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ أي: بغير جرم ولا شبهة لديهم، وكان دأبهم قتل الأنبياء كزكريا ويحيىٰ عليهما السلام. وقرأ الحسن شذوذاً: (ويقتّلون النبيين) بالتشديد، والتشديد فيه للتكثير وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[2] حال مؤكدة؛ لأن قتل الأنبياء لا يكون حقاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ الدعاة ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل وينهونهم عن ارتكاب المعاصي والمنكر حال كون أولئك الدعاة ﴿مِنَ﴾ بعض ﴿ٱلنَّاسِ﴾. وقرأ حمزة[3] وجماعة من غير السبعة: ﴿ويقاتلون الذين يأمرون بالقسط﴾ بالألف. وقرأها الأعمش شذوذاً: (وقاتلوا الذين يأمرون بالقسط). وكذا هي في مصحف عبد الله وقرأ أبي شذوذاً أيضاً: ﴿يقتلون النبيين والذين يأمرون بالقسط﴾.

ومن كرر الفعل فذلك علىٰ سبيل عطف الجمل وإبراز كل جملة في صورة التشنيع والتفظيع، لأن كل جملة مستقلة بنفسها، أو لاختلاف ترتب العذاب بالنسبة لمن وقع عليه الفعل، فقتل الأنبياء أعظم من قتل من يأمر بالقسط من غير الأنبياء، فجعل القتل بسبب اختلاف مرتبته كأنهما فعلان مختلفان، وقيل غير ذلك.

---

(١) أبو السعود. (٢) النسفي. (٣) البحر المحيط.

روي أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً في أول النهار، فقام مئة رجل من عباد بني إسرائيل من أتباع الأنبياء فنصحوهم وذكروهم، فقتلوهم من آخر النهار جميعاً، ففيهم نزلت هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: أخبرهم يا محمد وأعلمهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: بعذاب مؤلم موجع مهين.

وعن[١] أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة، قال: «رجل قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله؛ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مئة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ».

﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالصفات المذكورة القبيحة هم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: بطلت محاسن أعمالهم في الدارين. أمَّا بطلانها في الدنيا فبإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن، وبما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ المال منهم غنيمةً والاسترقاق لهم إلىٰ غير ذلك من الذل الظاهر فيهم. وأما بطلانها في الآخرة فبإزالة الثواب إلىٰ العقاب، وقيل: بطلان العمل هو أن لا يقبل في الدنيا، ولا يجازىٰ عليه في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ من عذاب الله في إحدىٰ الدارين؛ أي: ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ استفهام تعجيب للنبي، أو لكل من تتأتىٰ منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم، وتقرير لما سبق من أن اختلافهم إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته؛ أي: ألم تنظر يا محمد إلىٰ سوء صنيع الذين أوتوا وأعطوا نصيباً من الكتاب؟ أي: حظاً عظيماً من علم التوراة،

---

(١) ابن كثير.

وهم أحبار اليهود. والمراد بذلك النصيب: ما بُيِّن لهم في التوراة من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي ﷺ وحقيقة الإسلام. والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي تجب مراعاتها والعمل بموجبها حال كونهم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: التوراة ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتاب ﴿بَيْنَهُمْ﴾ والداعي لهم هو محمد ﷺ، وقرىء شذوذاً: (ليُحكَم) بالبناء للمفعول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: ثم يُدبر جماعة منهم عن مجلس النبي ﷺ ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم معرضون بقلوبهم عن قبول حكم ذلك الكتاب مكذبون له، وذلك أنهم أنكروا آية الرجم من التوراة، وسألوا النبي ﷺ عن حد المحْصَنَين إذا زنيا، فحكم بالرجم، فقالوا: جُرت يا محمد، فقال: بيني وبينكم التوراة، ثم أتوا بابن صوريا، فقرأ التوراة، فلما أتىٰ علىٰ آية الرجم سترها بكفه عنها، وقرأها علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ اليهود فإذا فيها: «إن المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البينة.. رُجما، وإن كانت المرأة حبلىٰ.. تتربص حتىٰ تضع ما في بطنها». فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين، فرُجما، فغضبت اليهود لذلك وانصرفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ...﴾ الخ. والقصة مذكورة في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾؛ أي؛ لن تصيبنا النار في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ أي: أياماً قلائل ومدة يسيرة ـ أربعين يوماً مدة عبادتهم العجل ـ ثم يخرجون منها ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾؛ أي: في ثباتهم علىٰ دينهم اليهودية ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي؛ يختلقون من الكذب من قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وإن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنه تعالىٰ وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

وخلاصة ذلك: أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها اتكالاً علىٰ اتصال نسبهم بالأنبياء، واعتماداً على مجرد الانتساب إلىٰ هذا الدين، واعتقدوا أن هذا كافٍ في نجاتهم. ومن استخف بوعيد الله زعماً منه أنه غير نازل حتماً بمن يستحقه.. تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهي، فيقدم بلا مبالاة علىٰ انتهاك

حرمات الدين، ويتهاون في أداء الطاعات. وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالي باجتراح السيئات. وقد ظهر ذلك في اليهود والنصارىٰ، ثم في المسلمين، فإن كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب للكبائر والإثم والفواحش؛ إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات؛ وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلاً، فإن فاته ذلك.. عُذِّب علىٰ قدر خطيئته، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وأما المنتسبون إلىٰ سائر الأديان فهم خالدون في النار مهما كانت أعمالهم.

والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذي ذكر الله علاماته وصفات أهله، وبالعمل الصالح، والخُلُق الفاضل، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته.

أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم، ولم يبق للدين سلطان علىٰ نفوسهم.. فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: جمعنا الخلائق للمجازاة ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ﴾؛ أي: في يوم لا شك في مجيئه ووقوع ما فيه وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ﴾؛ أي: وتوفىٰ وتنال فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بَرَّةٍ، أو فاجرةٍ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾؛ أي: عملت من خير أو شر. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يظلمون في المجازاة بزيادة في سيئاتهم ونقصان في حسناتهم، فلا ينقص أحد من ثواب الطاعات، ولا يزاد علىٰ عقاب السيئات. والضمير عائد لكل نفس علىٰ المعنىٰ؛ لأنه في معنىٰ كل إنسان.

وهناك العدل الكامل والقضاء الفاصل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الإعراب

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أن: حرف نصب ومصدر، والهاء ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿لَآ﴾ نافية تعمل عمل إن ﴿إِلَٰهَ﴾: في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف جوازاً تقديره موجود. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر (لا)، وجملة (لا) من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر ﴿أنَّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لشهد تقديره: شهد الله وبين عدم وجود معبود بحق سواه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة ﴿وَأُوْلُواْ﴾: معطوف أيضاً علىٰ الجلالة، وهو مضاف. ﴿ٱلْعِلْمِ﴾: مضاف إليه. ﴿قَآئِمَۢا﴾: حال من الضمير الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ أو من لفظ الجلالة ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ متعلق بـ﴿قَآئِمَۢا﴾. وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من جملة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الأولى بدلُ كلٍّ من كل كرره تأكيداً. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في إعرابه[1] ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه بدل من ﴿هُوَ﴾.

الثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف.

الثالث: أنه نعت لـ﴿هُوَ﴾، وهذا إنما يتمشَّىٰ على مذهب الكسائي، فإنه يرىٰ وصف الضمير الغائب.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلدِّينَ﴾: اسمها. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الدين ﴿ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ﴾ الواو استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماضٍ مغير، والواو نائب فاعل وهو المفعول الأول؛ لأن آتىٰ بمعنىٰ: أعطىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفَ﴾، ﴿ما﴾: مصدرية ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿بَعْدِ﴾، ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه ﴿ٱخْتَلَفَ﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿بَغْيًۢا﴾.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، وفي خبره[1] الأقوال الثلاثة أعني: فعل الشرط وحده، أو الجواب وحده، أو كليهما، وعلىٰ القول بكونه الجواب وحده لا بد من ضمير مقدَّر؛ أي: سريع الحساب له. والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة، ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَكْفُرْ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿سَرِيعُ﴾: خبرها. ﴿ٱلْحِسَابِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وفي الحقيقة: هذه الجملة قائمة[2] مقام الجواب علة، وتقدير الجواب: فإن الله يجازيه ويعاقبه عن قرب فإنه سريع الحساب.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية علىٰ الفتح؛ لأنها أفصحت عن جواب

---

(١) السمين.

(٢) أبو السعود.

شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفت أن الدين المرضي عند الله الإسلام، وأردت بيان ما تقول لمن حاجك فيه.. فأقول لك ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿حَآجُّوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ(إنْ) علىٰ كونه فعل شرط لإنْ. ﴿فَقُلْ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية في محل الجزم بـ(إنْ) علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت، يعود علىٰ محمد، وجملة (إنْ) الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا الشرطية المقدرة، وجملة إذا الشرطية مستأنفة. ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ﴾: مقول محكي لـ﴿قل﴾ منصوب بفتحة مقدرة، وإن شئت قلتَ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَجْهِيَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَسْلَمْتُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ﴾: الواو عاطفة ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع على الفاعلية معطوف علىٰ تاء ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ﴿اتبع﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾، والجملة صلة الموصول، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة ـ تشبيهاً لهذه الكلمة برؤوس الآي: كـ ﴿ربي أكرمنْ﴾، ﴿أهانن﴾ ـ في محل النصب مفعول به.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿قل﴾. ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: فعل ماضٍ مغير، ونائب فاعل، ومفعول ثانٍ؛ لأن أتىٰ بمعنى: أعطىٰ، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الغائب. ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾: معطوف علىٰ الموصول. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾: مقول محكى لـ﴿قل﴾، وإنْ شئت قلت: الهمزة للاستفهام التقريري، ولكن فيه معنىٰ الأمر كما مرَّ ﴿أسلمتم﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَواۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿فَإِنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا امتثلت أمرنا بالقول لهم، وأردت بيان ما يترتب علىٰ ذلك القول.. فأقول لك

﴿إن أسلموا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿أَسْلَمُوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها، ﴿فَقَدِ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿اهْتَدَوْا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾: الواو عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه شرطاً لها. ﴿فَإِنَّمَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية، ﴿إنما﴾: أداة حصر بمعنىٰ: ما النافية وإلا المثبتة. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدَّم ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ علىٰ كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿وَاللَّهُ﴾: الواو استئنافية ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ﴿بِالْعِبَادِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿الَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يقتلون﴾؛ أي: حال كونهم ملتبسين بغير حق. ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ﴿يَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿بِالْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَأْمُرُونَ﴾. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَأْمُرُونَ﴾ تقديره: حالة كونهم كائنين من بعض الناس، فهي حال مؤكدة؛ لأن من المعلوم أنهم من جملة الناس. ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: الفاء رابطة لخبر ﴿إن﴾ باسمها

جوازاً؛ لما في الموصول من العموم. وعبارة السمين: ولما ضُمّن هذا الموصول معنىٰ الشرط في العموم.. دخلت الفاء في خبره، وهو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾. وخالف الأخفش فمنع دخولها، والسماع حجة عليه كهذه الآية. ﴿بشر﴾: فعل أمر ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة، متعلق بـ﴿بشرهم﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الجمع ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: جار ومجرور ومعطوف، متعلق بـ﴿حَبِطَتْ﴾، ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة (ما): حجازية أو تميمية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ما﴾ أو لمبتدأ مؤخر، ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: اسم ﴿ما﴾ مؤخر، أو مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة حبطت علىٰ كونها صلة الموصول.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تر﴾، ورأىٰ هنا علمية مضمنة معنىٰ الانتهاء لتصح التعدية بإلىٰ، والمعنىٰ: ألم تعلم يا محمد منتهياً علمك إلىٰ قصة الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ذكره السمين. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل مغير ونائب فاعل. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة الموصول. ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَصِيبًا﴾. ﴿يُدْعَوْنَ﴾ فعل مضارع مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُدْعَوْنَ﴾.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿لِيَحْكُمَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. (يحكم): منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام (كي)، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يحكم﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل تقديره: لحكمه، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿فَرِيقٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿وَهُم﴾: الواو واو الحال ﴿هم معرضون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من ﴿فَرِيقٌ﴾، وصح مجيء الحال منه لوصفه بالجار والمجرور.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر، ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، والهاء: اسمها. ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ تقديره: بأنهم قائلون، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: ذلك بقولهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك التولي والإعراض كائن بسبب قولهم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿لَن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، منصوب بـ﴿لَن﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَيَّامًا﴾: منصوب على الظرفية، ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: صفة لأياماً، والظرف متعلق بـ﴿تَمَسَّنَا﴾، ﴿وَغَرَّهُمْ﴾: الواو عاطفة. ﴿غر﴾: فعل ماض، الهاء: مفعول به. ﴿فِى دِينِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿غرهم﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: ما كانوا مفترين، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يفترونه، وجملة (غرهم) في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿قَالُوا۟﴾ علىٰ كونها خبر ﴿أَنَّ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء بمعنىٰ الواو الاستئنافية. (كيف): اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف تقديره: فكيف حالهم، مبني علىٰ الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، حالهم: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف مجرد عن الشرط، والظرف متعلق بالمبتدأ المحذوف. ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذا، ﴿لِيَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَّا﴾، وجملة ﴿لَّا﴾ في محل الجر صفة لـ﴿يوم﴾. وفي «الفتوحات»[1]: قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور، وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيقع لهم، وتهويل لما يحيق بهم من الأهوال. و﴿كيف﴾: خبر مبتدأ محذوف قدَّره بقوله: حالهم. وعبارة السمين: ويجوز أن يكون ﴿كيف﴾ خبراً مقدماً، والمبتدأ محذوف تقديره: فكيف حالهم؟ وقوله: ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾ ظرف محض من غير تضمين شرط، والعامل فيه هو العامل في ﴿كيف﴾ إن قلنا: إنها منصوبة بفعل، وإن قلنا: إنها خبر لمبتدأ مضمر، وهي منصوبة انتصاب الظرف.. كان العامل في إذا: الاستقرار العامل في ﴿كيف﴾؛ لأنها كالظرف، وإن قلنا: إنها اسم غير ظرف بل لمجرد السؤال.. كان العامل فيها نفس المبتدأ الذي قدرناه؛ أي: كيف حالهم في وقت جمعهم، وقوله: ﴿ليوم﴾ متعلق بـ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾؛ أي: لقضاء يوم أو لجزاء يوم و ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: صفة للظرف. انتهىٰ. ﴿وَوُفِّيَتْ﴾: الواو عاطفة. ﴿وُفي﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، التاء علامة التأنيث؛ لاكتساب الفاعل التأنيث من المضاف إليه. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّا رَيْبَ﴾ علىٰ كونها صفة لـ﴿يوم﴾، والرابط محذوف تقديره: وتوفىٰ فيه كل نفس. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ

---

(١) الجمل.

لـ﴿وفيت﴾. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: كسبته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الواو حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حل من قوله: ﴿كل نفس﴾.

وذكر[1] ضمير ﴿هم﴾ وجمعه باعتبار معنىٰ كل نفس؛ لأنه في معنىٰ كل الناس، كما اعتبر المعنىٰ في قولهم: ثلاثة أنفس، بتأويل الأناس.

التصريف ومفردات اللغة

﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: يقال: شهد الشيء يشهد شهادةً من باب: علم، إذا بين وأعلم وأخبر. قال الزجاج: الشاهد: هو الذي يعلم الشيء ويبيِّنه، فقد دلَّنا الله علىٰ وحدانيته بما خلق وبيَّن.

﴿قَآئِمًا بِالْقِسْطِ﴾: القسط: العدل يُجمع علىٰ أقساط، يقال: قسط قسطاً من باب: ضرب ونصر، وقسط الوالي وأقسط إذا عدل في حكمه.

﴿الْحَكِيمُ﴾ وعدل[2] عن صيغة الحاكم إلىٰ الحكيم؛ لأجل المبالغة، ولمناسبة العزيز. ومعنىٰ المبالغة تكرار حكمه بالنسبة إلىٰ الشرائع أن الدين عند الله هو الإسلام؛ إذ حكم في كل شريعة بذلك.

﴿الدِّينَ﴾: الجزاء، ويطلق علىٰ الملة وهو المراد هنا، وسُميَّ الدِّين دِيناً؛ لأن الشخص يدان به.

﴿الْإِسْلَامُ﴾: الاستسلام والانقياد التام، ويقال: أسلم زيد إذا تدين بدين الإسلام، وأخلص عمله لله. فالإسلام إخلاص العمل والعقيدة لله تعالىٰ.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾؛ أي: جادلوك ونازعوك، يقال: حاجَّة حجاجاً ومحاجَّةً إذا خاصمه.. فحَجَّه وغلبه، ويقال: تحاجَّا إذا تخاصما.

---

(١) الكرخي.

(٢) النهر.

﴿غرهم﴾ فتنهم، يقال: غر يغر غروراً إذا خدع، فهو من المضاعف المعدَّىٰ، والغِرُّ: الصغير، والغريرة: الصغيرة، سميًّا بذلك؛ لأنهما ينخدعان بالعجلة، والغرة منه يقال: أخذه علىٰ غرة؛ أي: تغفل وخداع.

البلاغة

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ قال الزمخشري[1]: شبهت دلالته علىٰ وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحىٰ من آيته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما، بشهادة الشاهد في البيان والكشف علىٰ طريق الاستعارة التصريحية، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك، واحتجاجهم عليه. انتهىٰ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: كرر التهليل للتوكيد، أو لأن[2] الأول: قول الله، والثاني: حكاية قول الملائكة وأولي العلم، أو لأن الأول جرىٰ مجرى الشهادة، والثاني جرىٰ مجرىٰ الحكم بصحة ما شهد به الشهود. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ الجملة معرفة الطرفين، فتفيد الحصر؛ أي: لا دين إلا الإسلام.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في التعبير[3] عن اليهود والنصارىٰ بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ زيادة تقبيح لهم وتشنيع عليهم، فإن الاختلاف بعد إيتاء الكتاب أقبح، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ﴾ الخ زيادة أخرىٰ فإن الاختلاف بعد العلم أزيدُ في القباحة، وقوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ زيادة ثالثة؛ لأنه في حيز الحصر، فكأنه قال: وما اختلفوا إلا بغياً؛ أي: لا لشبهة ولا لدليل، فيكون أزيد في القباحة ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل مع كون المقام للإضمار؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة في النفس.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الكرخي.

(٣) الجمل.

﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾: فيه إطلاق الجزء وإرادة الكل، ففيه مجاز مرسل علاقته الكلية، وإنما خص الوجه؛ لشرفه ولاشتماله علىٰ معظم القوىٰ والمشاعر، ولأنه معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة، وبه يحصل التوجه إلىٰ كل شيء.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: وضع[1] الموصول موضع الضمير؛ لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين؛ لأن الأميين يقابلون بالذين أوتو الكتاب.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: الأصل في البشرة أن تكون في الخير، واستعمالها في الشر؛ للتهكم، ويسمَّى هذا: الأسلوب التهكمي؛ حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة، كقوله تعالىٰ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾، وهو أسلوب مشهور.

قال أبو حيان[2]: ومن ضروب البلاغة في هذه الآيات:

منها: الاستفهام الذي يرد به التقرير أو التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾.

ومنها: الطباق المقدَّر في قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ ووجهه أن الإسلام: الانقياد إلىٰ الإسلام والإقبال عليه، والتولي ضد الإقبال، والتقدير: وإن تولوا.. فقد ضلوا، والضلالة ضد الهداية.

ومنها: الحشو الحسن في قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإنه لم يقتل قطُّ نبي بحق، وإنا أتىٰ بهذه الحشوة؛ ليتأكد قبح قتل الأنبياء ويعظم أمره في قلب العازم عليه.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ تأكيداً لقبح ذلك الفعل.

ومنها: الزيادة في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ زاد الفاء إيذاناً بأن الموصول ضمن معنىٰ الشرط.

---

(١) أبو السعود.

(٢) البحر المحيط.

ومنها: الاستفهام الذي أريد به التعجيب من حالهم والاستعظام لمقالتهم في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾، وهذا الاستفهام لا يحتاج إلىٰ جواب، وكذا أكثر استفهامات القرآن؛ لأنها من عالم الشهادة، وإنما استفهامه تعالىٰ تقريع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾.

المناسبة

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة، وصحة دين الإسلام، وحال النبي ﷺ مع المخاطبين بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، كما أنكر ذلك أمثالهم علىٰ الأنبياء من قبل، وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبي من غير آل إسرائيل.. أردف بذكر هذه الآيات الآتية تسليةً للنبي ﷺ في مقام عناد المنكرين، ومكابرة الجاحدين، وتذكيراً له بقدرته تعالىٰ علىٰ نصره وإعلاء دينه، وكأنه يقول له: إذا تولَّىٰ هؤلاء الجاحدون عنك، ولم يقنعهم البرهان؛ فظل المشركون علىٰ جهلهم، وأهل الكتاب في غرورهم. فعليك أن تلجأ إلىٰ الله تعالىٰ وترجع إليه بالدعاء والثناء، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء.

قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أنه تعالىٰ لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه من تعظيم الله تعالىٰ والثناء عليه بالأفعال التي يختص بها.. ذكر ما يجب علىٰ المؤمن من معاملة

الخلق، وكانت الآيات السابقة في الكفار، فنهوا عن موالاتهم، وأمروا بالرغبة فيما عنده وعند أوليائه دون أعدائه؛ إذ هو تعالىٰ مالك الملك.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ...﴾ روىٰ[1] الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ: أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة.. وعد أمته مُلك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمدٍ ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتىٰ يطمع في ملك فارس والروم؟!، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ: سأل ربه عزّ وجلّ أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء بنقل النبوة من بني إسرائيل إلىٰ غيرهم فنزلت هذه الآية.

وروي[2] أنه ﷺ: لما خط الخندق في عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون.. خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم، لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلىٰ النبي ﷺ ليخبره، فذهب إليه، فجاء رسول الله، وأخذ المعول من سلمان، فلما ضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها؛ أي: المدينة، كأنه مصباح في جوف ليل مظلم، فكبر وكبّر المسلمون، وقال ﷺ: «أضاء لي منها قصور الحيرة، كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة علىٰ كلها، فأبشروا»، فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرىٰ، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما

(١) المراغي.

(٢) المراح.

تحفرون من الخوف، فنزلت هذه الآية.

وروي أنها نزلت في شأن قريش لقولهم لرسول الله ﷺ: كسرىٰ ينام علىٰ فرش الديباج، فإن كنت نبياً فأين ملكك؟

قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ...﴾ سبب نزولها[1]: ما روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفرٍ من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، لا يفتنوكم عن دينكم، فأبىٰ أولئك النفر إلا مباطنتهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن كان يظهر لمودة لكفار مكة.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبي وأصحابه، كانوا يتولون المشركين واليهود، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر علىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، ونهىٰ المؤمنين عن مثل ذلك.

وقيل: إن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله، إن معي خمس مئة من اليهود، وقد رأيت أن استظهر بهم علىٰ العدو، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ...﴾ قيل: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارىٰ؛ حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه، فعرضها رسول الله ﷺ عليهم، فلم يقبلوها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ علىٰ قريش، وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف، وهم يسجدون

---

(١) الخازن.

لها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله؛ لتقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، فنزلت هذه الآية.

وقيل: إنَّ نصارىٰ نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسىٰ حباً لله وتعظيماً له، فأنزل: قل يا محمد إن كنتم تحبون الله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلِ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: يا إلهي ويا معبودي ويا ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ ويا صاحب السلطنة والغلبة العامة لجميع الكائنات، وقيل: يا مالك الخلق من العرش إلىٰ الفرش، ومدبرهم ومصرفهم، وقيل: يا مالك الدنيا والآخرة أنت ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى، والتصرف التام في تدبير الأمور، وإقامة ميزان النظام العام في الكائنات، فأنت ﴿تُؤْتِي﴾ وتعطي ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ الخاص والسلطنة والغلبة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد إيتاءه وإعطاءه له من خلقك، فتملكه وتسلطه علىٰ من تشاء، أو تعطي النبوة من تشاء، كمحمد ﷺ؛ لأنها أعظم مراتب الملك؛ وذلك لأن النبي ﷺ له الأمر علىٰ الخلائق من جهة مالك الملوك، لا بالسياسة والأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ أي: تسلب الملك ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تسلبه منه؛ إما بالموت، أو إزالة العقل، أو إزالة القوىٰ والحواس، أو بورود التلف علىٰ الأموال، أو بانحراف الناس عن الطريق السوي الحافظ للملك؛ من العدل، وحسن السياسة، وإعداد القوة بقدر المستطاع؛ كما نزعه من بني إسرائيل وغيرهم؛ بظلمهم وفسادهم، أو تنزع النبوة ممن تشاء، وتؤتيها من تشاء. ومعنى: نَزْعِها: نقلها من قومٍ إلىٰ قومٍ؛ كما نقلها من بني إسرائيل إلىٰ العرب، فأعطاها محمداً ﷺ فإنه لا نبي بعده، ولم يشركه في نبوته ورسالته أحد. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ إعزازه بإعطائه الملك والسلطنة، وتنصره علىٰ عدوه، أو بالإيمان والحق وبالأموال الكثيرة من الناطق والصامت، وبإلقاء الهيبة في قلوب الناس، أو بالنبوة والرسالة، كمحمد ﷺ ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ إذلاله بسلب ملكه، وتسليط عدوه عليه، أو بالكفر والباطل، أو بنزع النبوة منهم وضرب الجزية عليهم؛ كاليهود، فأنت

المعطي[1] وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلىٰ شكر نعمة الله تعالىٰ علىٰ رسوله محمد ﷺ، وعلىٰ هذه الأمة؛ لأن الله تعالىٰ حول النبوة من بني إسرائيل إلىٰ النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق، ورسول الله إلىٰ جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن مَن كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله، وشريعته، وإطلاعه علىٰ الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه علىٰ سائر الأديان والشرائع. فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلىٰ يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار.

واعلم: أن للعزة آثاراً وللذل مثلها؛ فالعزيز يكون نافذ الكلمة كثير الأعوان مالكاً للقلوب بجاهه أو علمه، النافع للناس مع بسطة في الرزق، وإحسان إلىٰ الخلق.

والذليل يرضىٰ بالضيم والمهانة، ويضعف عن حماية الحريم، ومقاومة العدو المهاجم، ولا عز أعظم من الاجتماع والاتفاق والتعاون علىٰ نشر دعوة الحق، ومقاومة الباطل، إذا سار المجتمعون علىٰ السنن التي سنها الله لعباده، فأعدوا لكل أمر عدته، ولا عبرة بكثرة عدد الأمة وقلته في تكوين العزة واجتماع القوة، فقد كان المشركون في مكة، واليهود ومنافقوا العرب في المدينة يغترون بكثرتهم علىٰ النبي ﷺ والمؤمنين، ولكن لم يغنِ ذلك عنهم شيئاً كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ الآية.

والمشاهدة أكبر دليل علىٰ صدق هذا، انظر إلىٰ الشعوب الأرمية في شرق إفريقيا، علىٰ كثرة عدد كل شعب منها كيف استأمرها، وتحكم فيها ملوك الحبشة، علىٰ قلة عددهم. وما ذلك لا لفشو الجهل، وتفرق الكلمة، والتخاذل في مقاومة الغاصب، بل ممالأة بعضهم له إذا جاش بصدر بعضهم مقاومته،

---

(١) ابن كثير.

والسعي في إزالة طغيانه وتحكمه في الرقاب والبلاد، هذه مصيبة ما أعظمها. فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنسأل الله أن ينصر المسلمين علىٰ أعدائهم، ويردَّ إليهم أراضيهم بتوفيقهم كلمة الحق. آمين.

﴿بِيَدِكَ﴾ يا إلهي لا بيد غيرك ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ كله من الإعزاز والنصرة والغنيمة، وكذا بيدك الشر من الإذلال والخذلان والهزيمة، فهو من باب الاكتفاء. إلا أنه خص الخير بالذكر؛ لأنه المنتفع به والمرغوب فيه، ولأنه المناسب للمقام، فإنه ما أغرىٰ أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعي، وضعف أتباعه، وقلة عددهم، فأمره الله أن يلجأ إلىٰ مالك الملك الذي بيده الإعزاز والنصر، وأن يذكره بأن الخير كله بيده فلا يعجزه أن يعطي نبيه والمؤمنين من السيادة وبسطة السلطنة ما وعدهم، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾.

واليد صفة ثابتة له تعالىٰ نؤمن بها ولا نكيفها ولا نمثلها، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كما هو المذهب الأعلم الأسلم الذي عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تريده من إيتاء الملك لمن تشاء ونزعه منه، وإعزاز من تشاء وإذلال من تشاء ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر عليه ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: إنك يا إلهي بقدرتك تدخل بعض ساعات الليل ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ فيكون النهار أطول بقدر ما نقص من الليل حتىٰ يكون النهار خمسة عشر ساعة، وذلك غاية طول النهار، ويكون الليل تسع ساعات، وذلك غاية قصر الليل؛ كما يكون في زمن الصيف ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: وتدخل بعض ساعات النهار ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ فيكون الليل أطول بقدر ما نقص من النهار حتىٰ يكون الليل خمسة عشر ساعة، وذلك غاية طوله، ويكون النهار تسع ساعات، وذلك غاية قصره؛ كما يكون في زمن الشتاء.

وقيل[1]: المراد أنه تعالىٰ يأتي بسواد الليل عقيب ضوء النهار، ويأتي بضوء النهار بعد ظلمة الليل. والقول الأول أصح وأقرب إلىٰ معنىٰ الآية؛ لأنه إذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة في النهار، وبالعكس وهو معنىٰ: الولوج.

والخلاصة: أنك بحكمتك في خلق الأرض مكورة، وجعل الشمس بنظام خاص تزيد في أحد الملوين الليل والنهار ما يكون سبباً في نقص الآخر، فليس بالمنكر بعد هذا أن تؤتي النبوة والملك من تشاء؛ كمحمد وأمته من العرب، وتنزعهما ممن تشاء؛ كبني إسرائيل، فما مثل تصرفك في شؤون الناس إلا مثل تصرفك في الليل والنهار.

﴿و﴾ إنك يا إلهي ﴿تخرج الحي﴾ حياة معنوية ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ موتاً معنوياً؛ كالعالم من الجاهل، والمؤمن من الكافر؛ كعكرمة من أبي جهل؛ لأن المؤمن حي الفؤاد والكافر ميت الفؤاد، أو حياة وموتاً حسيين؛ كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ موتاً معنوياً أو حسياً ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ حياة معنوية أو حسية؛ كالجاهل من العالم، والكافر من المؤمن؛ ككنعان من سيدنا نوح عليه السلام، وكالنطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر، وكذلك سائر الحيوان.

﴿و﴾ إنك يا إلهي ﴿ترزق﴾ وتعطي ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد رزقه رزقاً كثيراً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومقدار لا يعرف الخلق عدده، ومقداره لكثرته وإن كان معلوماً عنده تعالىٰ يعني من غير تضييق ولا تقتير، بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه.

والخلاصة: أن من قدر علىٰ تلك الأفعال العجيبة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب.. فهو قادر علىٰ أن ينزع الملك من العجم، ويذلهم، ويؤتيه العرب، ويعزهم فإن الأمر كله بيده، وفي بعض الكتب السالفة: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني.. جعلتهم

---

(١) الخازن.

عليهم رحمة، وإنْ العباد عصوني.. جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم. وهو معنىٰ قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولىٰ، عليكم» وقيل معنىٰ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يرزقه بلا تكلف ولا تعب ولا ضيق؛ أي: ومن غير توقف علىٰ عمل منا، وإلا فلو توقف رزقه علىٰ عمل منا.. لما أعطانا شيئاً أبداً، فسبحان الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة علىٰ من عصاه.

وقال أبو العباس المقري[1]: ورد لفظ الحساب في القرآن علىٰ ثلاثة أوجه: بمعنىٰ: التعب، كما في هذه الآية، وبمعنىٰ: العدد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وبمعنى: المطالبة؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وشدد حفص ونافع وحمزة والكسائي[2]: ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ في هذه الآية. وفي الأنعام والأعراف ويونس والروم وفاطر زاد نافع تشديد الياء في قوله: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ في الأنعام، ﴿والأرض الميتة﴾ في يونس، و ﴿لحم أخيه ميتاً﴾ في الحجرات، وقرأ الباقون بتخفيف ذلك، ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال؛ كما نقول: لَيْن ولَيِّن وهيْن وهيّن، ومن زعم أن المخفف لما قد مات، والمشدد لما لم يمت.. فيحتاج إلىٰ دليل.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يجعل المؤمنون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاءَ وأنصاراً وأعواناً ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من غير المؤمنين وسواهم؛ أي[3]: لا يوال المؤمنون الكافرين لا استقلالاً ولا اشتراكاً مع المؤمنين، وإنما الجائز لهم قصر الموالاة والمحبة علىٰ المؤمنين بأن يوالي بعضهم بعضاً فقط، فقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الفاعل؛ أي: حال كون المؤمنين متجاوزين بموالاتهم المؤمنين؛ أي: تاركين قصر الولاية عليهم، وذلك الترك يصدق

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراح.

بصورتين كونها مشتركة بين الكفار والمؤمنين، وكونها مخصصة بالكفار؛ أي: لا يصطف[1] المؤمنون الكافرين، فيكاشفوهم بالأسرار الخاصة بالشؤون الدينية، ويقدموا مصلحتهم علىٰ مصلحة المؤمنين؛ إذ في هذا تفضيل لهم عليهم وإعانة للكفر علىٰ الإيمان.

وخلاصة هذا: نهىٰ المؤمنين عن مولاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية أو جوار، أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة، بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب. ومن ثَمَّ تكون موالاة المؤمنين أجدىٰ لهم في دينهم من مولاة الكافرين.

فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المؤمنين.. فلا مانع منها، فقد حالف النبي ﷺ خزاعة وهم علىٰ شركهم، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته في أمور الدنيا.

واعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع؛ لأن الرضا بالكفر كفر.

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع.

وثالثها: الركون إلىٰ الكفار والمعونة لهم والنصرة، إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل، فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهيٌّ عنه؛ لأن المُوالاة بهذا المعنى قد تجره إلىٰ استحسان دينه والرضا بطريقته، وذلك يخرجه عن الإسلام، فهذا هو الذي هَدَّد الله فيه بقوله الآتي: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، وقرأ الضبي شذوذاً: لا يتخذُ برفع الذال على النفي، والمراد به: النهي، وقد أجاز الكسائي فيه الرفع كقراءة الضبي وذلك شذوذاً كما سبق بيانه، قال أبو حيان[2]: وظاهر الآية تقتضي النهي عن موالاتهم إلا ما فسح

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

لنا فيه من اتخاذهم عبيداً، والاستعانة بهم استعانة العزيز بالذليل، والأرفع بالأوضع، والنكاح فيهم، فهذا كله ضرب من الموالاة أذن لنا فيه، ولسنا ممنوعين منه، فالنهي ليس علىٰ عمومه. انتهىٰ.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اتخاذ الكافرين أولياء بالاستقلال، أو بالاشتراك مع المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين؛ بنقل الأخبار إليهم وإظهار عورة المسلمين لهم، أو يودهم ويحبهم ﴿فَلَيۡسَ﴾ ذلك الموالي ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من ولاية الله ودينه ﴿فِي شَيۡءٍ﴾ قليل ولا كثير؛ أي: فليس بمطيع لله ولا ناصر لدينه، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة، ويكون من الكافرين كما جاء في آية أخرىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، وهذا أمر معقول من أن ولاية المولىٰ معاداة أعدائه، وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾؛ أي: إلا أن تخافوا أيها المؤمنون من الكفار مخافة وضرراً؛ أي: إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه والاحتراز منه؛ بأن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه علىٰ نفسك، أو مالك، فحينئذٍ يجوز إظهار الموالاة وإبطان المعاداة؛ أي: لا تتخذوا الكفار أولياء ظاهراً أو باطناً في حال من الأحوال إلا في حال اتقائكم وخوفكم من جهتهم اتقاءً ومخافةً.

والمعنىٰ: نهىٰ[1] الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين من موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار فيداهنهم بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه، من غير أن يستحل دماً حراماً ومالاً حراماً، أو غير ذلك من المحرمات، ومن غير أن يظهر الكفار علىٰ عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع صحة النية.

وخلاصة الكلام[2]: أن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم، فلكم حينئذٍ أن تتقوهم بقدر ما يُتقىٰ ذلك الشيء؛ إذ القاعدة الشرعية أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح،

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر، فأولىٰ أن تجوز لمصلحة المؤمنين، وإذاً فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلىٰ الأولىٰ إما بدفع خطر، أو جلب منفعة، وليس لها أن تواليها في شيء يضر بالمسلمين، ولا تخص هذه الموالاة بحال الضعف، بل هي جائزة في كل وقت.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق؛ لأجل توقي ضرر من الأعداء يعود إلىٰ النفس أو العرض أو المال.

فمن نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقايةً لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان.. لا يكون كافراً، بل يُعذَر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش علىٰ الكفر.. فوافقها مكرهاً وقلبه مليء بالإيمان، وفيه نزلت الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: نعم، حين أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فتركه، ودعا الآخر فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله؟ فقال: أني أصمُّ ثلاثاً، فقدمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما هذا المقتول فمضىٰ علىٰ يقينه وصدقه فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تَبِعة عليه». وهي من الرخص لأجل الضرورات العارضة، لا من أصول الدين المتبعة دائماً، ومن ثَمَّ وجب علىٰ المسلم الهجرة من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلىٰ التقية، ومن كمال الإيمان أن لا يخاف في الله لومة لائم كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحملون الأذىٰ في سبيل دعوة الدين، ويصبرون عليه.

ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم، وبذل المال لهم؛ لكف أذاهم وصيانة العرض منهم، ولا يعد هذا من الموالاة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وقىٰ به المؤمن عرضه، فهو صدقة».

وعن عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل علىٰ رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ابن العشيرة، أو أخو العشيرة، ثم أذن له، فألان له القول»، فلما خرج.. قلت: يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنتَ له القول، فقال: «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه» رواه البخاري وروى قوله ﷺ «إنا لَنَبَشُّ - نبتسم - في وجوه قوم، وإن قلوبنا لتقليهم - تبغضهم» - وقرأ الجمهور: ﴿تُقَىٰةً﴾، وأمال الكسائي: ﴿تُقَىٰةً﴾ و ﴿حق تقاته﴾، ووافقه حمزة هنا. وقرأ ورش بين اللفظين، وفتح الباقون وقرىء: ﴿تقية﴾.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخوفكم الله ﴿نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: غضبه وسخطه عليكم؛ بأن ترتكبوا المنهي، أو تخالفوا المأمور، أو توالوا الكفار، فتستحقوا غضبه وعقابه علىٰ ذلك كله، فالكلام علىٰ حذف مضاف، وفائدة ذكر: ﴿نَفْسَهُۥ﴾ الإيماء إلىٰ أن الوعيد صادر منه تعالىٰ، وهو القادر علىٰ إنفاذه، ولا يعجزه شيء عنه.

وفي ذلك وعيد شديد، وتهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقِب وقدرته. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلىٰ غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع؛ أي: رجوع جميع الخلائق بالبعث من القبور إلىٰ الله، فيجازي كلاً علىٰ عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والمعنىٰ: فاحذروه، ولا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه، وموالاة أعدائه، وهو وعيد آخر أيضاً.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: تسروا وتستروا ما في قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم، أو من البغض والعداوة لمحمد ﷺ إن قلنا: إن الآية نزلت في حق المنافقين واليهود، وإنما ذكر الصدر؛ لأنه وعاء القلب. ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾؛ أي: أو تظهروا ما في قلوبكم من مودة الكفار قولاً وفعلاً، أو تظهروا ما في قلوبكم من بغض محمد وعداوته بالشتم له والطعن والمحاربة له

﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يحفظه الله عليكم، فيجازيكم به ﴿وَ﴾ هو سبحانه وتعالىٰ ﴿يعلم﴾ جميع ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الخير والشر والسر والعلانية، وهذه الجملة مستأنفة وليست بمعطوفة على جواب الشرط، وهي من إتمام التحذير، يعني: أنه تعالى إذا كان لا يخفىٰ عليه شيء في السموات والأرض.. فكيف يخفىٰ عليه حالكم، وموالاتُكم الكفار، وميلكم إليهم بقلوبكم؟.

والمعنىٰ: أنه تعالىٰ يعلم ما تنطوي عليه قلوبكم إذ توالون الكفار، أو توادونهم، أو تتقون منهم ما تتقون. فإن كان ذلك يميل بكم إلىٰ الكفر.. جازاكم عليه، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان.. غفر لكم ولم يؤاخذكم علىٰ عمل لا جريمة فيه علىٰ الدين، ولا علىٰ أهله، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما في السموات والأرض؛ لأنه الخالق لها، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أهل السموات والأرض وثوابهم وعقابهم ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، فهو يقدر علىٰ عقوبتهم، فلا تجترئوا علىٰ عصيانه وموالاة أعدائه؛ إذ ما من معصية خفيةً كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها، قادر على عقاب فاعلها، وقدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا[1] تنبيه منه لعباده علىٰ خوفه وخشيته؛ لئلا يرتكبوا ما نهىٰ عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر مَن أنظر منهم، فإنه يمهل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾؛ أي: اذكروا واحذروا عقوبته ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾، وتصيب كل نفس فيه جزاء ما عملته وكسبته من خير؛ وهو يوم القيامة حال كونه محضراً؛ أي: مكتوباً في ديوانها لم ينقص منه شيء، وتسر به. وقرأ الجمهور: ﴿مُّحْضَرًا﴾ - بفتح الضاد - اسم مفعول، وقرأ عبيد بن عمير شذوذاً: (محضِراً) - بكسر الضاد - اسم فاعل؛ أي: محضراً للجنة، أو محضراً مسرعاً به إلىٰ الجنة من قولهم: أحضر الفرس إذا جرىٰ وأسرع. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ مبتدأ، خبره جملة قوله:

---

(١) ابن كثير.

﴿تَوَدُّ﴾؛ أي: والذي عملته وكسبته نفس من سوء وعصيان حالة كونه محضراً ومكتوباً في ديوانها تود وتتمنىٰ وتحب ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾؛ أي: تتمنىٰ كون مسافة بعيدة طويلة بينها وبين ذلك السوء خوفاً من جزائه وعقوبته، قيل: كما بين المشرق والمغرب.

فما رأى[1] من عمله حسناً.. سرَّه ذلك، وأفرحه، وما رأىٰ من قبيحٍ.. ساءه وغصه وود لو أنه تبرأ منه، وكان بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان قريناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه علىٰ فعل السوء: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، ثم قال تعالىٰ مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم عقابه، والمعنىٰ: احذروا من سخط الله؛ بترجيح جانب الخير وعمله علىٰ ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكرر هذه الجملة؛ إما للتأكيد، والأحسن ما قاله سعد الدين التفتازاني: إن ذكره أولاً للمنع من موالاة الكافرين، وثانياً للحث علىٰ عمل الخير والمنع من عمل الشر، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده؛ لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: شديد الرحمة بهم؛ حيث قطع عذرهم ببيان ذلك في زمن يسع التوبة والرجوع إليه فيه، ومن جملة رأفته بهم: كثرة التكرار والتأكيد في الكلام؛ لعله يصل إلىٰ قلوب السامعين، فيعملوا بمقتضاه.

قال الحسن البصري: ومن رأفته أن حذرهم نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته؛ لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة.. دعاهم ذلك إلىٰ طلب رضاه واجتناب سخطه. انتهى.

ومن رأفته أيضاً أن جعل الفطرة الإنسانية ميَّالةً بطبعها إلىٰ الخير، مبغضة لما يعرض لها من الشر، وأن جعل أثر الشرِّ في النفس قابلاً للمحو بالتوبة والعمل الصالح.

---

(١) ابن كثير.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ جلال سلطانه، وعظيم كماله، ثم نهىٰ المؤمنين عن موالاة أعدائه، وأكد ذلك بالوعيد الشديد.. ذكر هنا أن طريق محبته متابعة رسوله، وامتثال أوامره التي جاء بها، واجتناب ما نهىٰ عنه، وبذلك يكون المرء أهلاً لمحبته، مستحقاً لغفران ذنوبه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تريدون محبة الله وطاعته، وترغبون في العمل بما يقرب إليه طلباً للثواب فيما عنده ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾؛ أي: فاقتدوا بي بامتثال ما نزل به الوحي منه إليَّ ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يرضىٰ الله عنكم أعمالكم ويثبكم عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي؛ ويتجاوز لكم عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة، فيقربكم من جنات عزِّه، ويبوئكم في جوار قدسه؛ إذ في هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح، وهما يزيلان من النفس آثار المعاصي والرذائل، ويمحوان منها ظلمة الباطل، وأثر ذلك: المغفرة ورضوان الله.

وهذا حجة علىٰ من يدعي محبة الله في كل زمان، وأعماله تكذب ما يقول؛ إذ كيف يجتمع الحب مع الجهل بالمحبوب، وعدم العناية بأوامره ونواهيه؟ فهو كما قال الورَّاق:

تَعْصِيْ ٱلإِلٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هٰذَا لَعَمْرِيْ فِيْ ٱلْقِيَاسِ بَدِيْعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقَاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مَطِيْعُ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن تقرب إليه باتباع نبيه في الدنيا والآخرة؛ إذ في هذا تزكية للنفس بصالح العمل، فيغفر لها ما فرط من زلاتها، ويتجاوز عن سيئاتها.

فائدة: والمحبة[1] ميل النفس إلىٰ الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها علىٰ ما يقربها ـ أي: النفس ـ إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا

---

(١) الكرخي.

لله عزّ وجلّ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه، أو من غيره، فهو من الله وبالله وإلىٰ الله.. لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرص علىٰ مطاوعته، قاله القاضي.

وقال بعضهم: إن محبة العبد لله عبارة عن: إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه، ومحبة الله للعبد عبارة عن: ثنائه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقيل[1]: محبة الله: معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به بذكره ودوام الأنس به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكر، كثير الخلوة، دائم الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أُصيب، ولا يصرخ إذا أصاب، ولا يخشىٰ أحداً، ولا يرجوه. وروي أنه لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية قال عبد الله بن أبي رئيس المنافقين لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه؛ كما أحبت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم. فأنزل الله عزّ وجلّ أمراً لكل أحد من خاص وعام ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: أطيعوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأطيعوا رسوله باتباع سنّته، والاهتداء بهديه.

وفي هذا إرشاد إلىٰ أن الله إنما أوجب عليكم متابعته؛ لأنه رسوله، لا كما تقول النصارىٰ في عيسى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غروراً بدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم علىٰ ملة إبراهيم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آياته، وعما أنزله علىٰ رسوله، فلا يرضىٰ عنهم، بل يبعدهم عن جوار قدسه وحظيرة عزته، ويسخط عليهم يوم يرضىٰ عن المؤمنين به، المطيعين لنبيه، المتبعين لما جاء به من عند ربه، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) النسفي.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر، أي: لا يحبهم ولا يرضىٰ فعلهم ولا يغفر لهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ، قالوا: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني.. دخل الجنة، ومن عصاني.. فقد أبىٰ» أخرجه البخاري في «صحيحه».

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني.. فقد أطاع الله، ومن عصاني.. فقد عصى الله، ومن يطع الأمير.. فقد أطاعني ومن يعصِ الأمير.. فقد عصاني» متفق عليه.

وروى مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً.. دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً، فأحبَّه، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً، فأحبُّوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً.. دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً، فأبغضْه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء؛ إن الله يبغض فلاناً، فأبغِضُوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُحبون﴾ و﴿يحببكم﴾ ـ بضم التاء والياء ـ من: أحبَّ الرباعي، وقرأ أبو رجاء العطاردي شذوذاً: ﴿تَحبون ويَحببكم﴾ ـ بفتح التاء والياء ـ من: حبَّ الثلاثي، وهما لغتان، وذكر الزمخشري: أنه قرىء: ﴿يحبكم﴾ ـ بفتح الياء، والإدغام ـ وهو شاذ أيضاً وقرأ الزهري شذوذاً: ﴿فاتبعونّي﴾ ـ بتشديد النون ـ أَلحق بفعل الأمر نون التوكيد، وأدغمها في نون الوقاية، ولم يحذف الواو؛ شبهاً بـ ﴿تحاجونّي﴾، وهذا توجيه شذوذ، وروي عن أبي عمرو إدغام راء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ في لام ﴿لَكُمْ﴾. وذكر ابن عطية عن الزجاج: أن ذلك خطأ وغلط، ولكن رؤساء الكوفة كأبي جعفر الرؤاسي والكسائي والفراء رووا ذلك عن العرب، ورأسان من أهل البصرة ـ وهما أبو

(١) البحر المحيط.

عمرو ويعقوب ـ قرأا بذلك وروياه، فلا التفات لمن خالف في ذلك.

الإعراب

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد العلم في محل النصب علىٰ المفعولية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والميم المشددة عوض عن حرف النداء، ولذلك لا يجتمعان، وهذا التعويض خاص بالاسم الجليل؛ كما اختص بجواز الجمع فيه بين (يا) و(أل) وبقطع همزته ودخول تاء القسم عليه. ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: منادىٰ مضاف، حذف منه حرف النداء تقديره: يا مالك الملك، وجملة النداء في النصب جزء المقول، وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ فيه[1] أربعة أوجه: **أحدها**: أنه بدل من ﴿ٱللَّهُمَّ﴾. **الثاني**: أنه عطف بيان. **الثالث**: أنه منادىٰ ثانٍ حذف منه حرف النداء، أي؛ يا مالك الملك، وهذا هو البدل في الحقيقة؛ إذ البدل علىٰ نية تكرار العامل إلا أن الفرق أن هذا ليس بتابع. **الرابع**: أنه نعت لقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ علىٰ الموضع؛ فلذلك نُصب. انتهىٰ باختصار. ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾: فعل ومفعول ثانٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ولكنها الآن في محل النصب جزء المقول. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول، ﴿تَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تشاؤه. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾: الواو عاطفة (تنزع الملك): فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مِمَّن﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تنزع﴾، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَتُعِزُّ﴾ الواو عاطفة. ﴿تعز﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلة لها، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إعزازه. ﴿وَتُذِلُّ﴾: الواو عاطفة. (تذل): فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿تُؤْتِي﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلته. ﴿بِيَدِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿ٱلْخَيْرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة علىٰ جملة ﴿تُؤْتِي﴾، ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، الكاف اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو خبر ﴿إن﴾، والجملة مستأنفة.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿تُولِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿تُؤْتِي﴾ ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾: متعلق بـ﴿تُولِجُ﴾. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾: إعرابها مثل ما قبلها. ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الواو عاطفة. ﴿تخرج﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿ٱلْحَيَّ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ﴿تخرج﴾. ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ هذه الجملة مثل ما قبلها إعراباً. ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾: الواو عاطفة. ﴿ترزق﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَشَآءُ﴾ صلته. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، يجوز[1] أن يكون حالاً من المفعول المحذوف تقديره: ترزق من تشاؤه غير محاسب، وأن يكون حالاً من ضمير الفاعل تقديره: غير محاسب له، أو غير مُضيِّق له، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أو مفعول محذوف تقديره: رزقاً غير قليل.

---

(١) العكبري.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لَّا﴾: ناهية جازمة، أو نافية، ﴿يَتَّخِذِ﴾: مرفوع والمعنىٰ: لا ينبغي أن يتخذوهم أولياء ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال(١) من الفاعل؛ أي: حال كون المؤمنين متجاوزين للمؤمنين؛ أي: متجاوزين الاستقلال بموالاة المؤمنين؛ أي؛ تاركين قصر الموالاة علىٰ المؤمنين، وقال(٢) أبو البقاء: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع نصب صفة لأولياء.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر؛ إما جملة الشرط، وهو الراجح، أو جملة الجواب، أو هما كما مرَّ مِراراً. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(من)، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿من﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعول به. ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿ليس﴾؛ فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿مَن﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿شَيْءٍ﴾ الآن؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فيعرب حالاً. ﴿فِي شَيْءٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿ليس﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ من المفعول لأجله، والعامل فيه ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَتَّقُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَتَّقُواْ﴾ ﴿تُقَىٰةً﴾: منصوب علىٰ المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، والتقدير: لا

---

(١) الجمل.

(٢) العكبري.

يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لشيء من الأشياء، ولا لغرض من الأغراض إلا لأجل اتقائكم منهم تقاة. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية. ﴿يحذركم الله﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿نَفۡسَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه. وفي «السمين»: قوله؛ ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿يحذر﴾؛ لأنه في الأصل متعدٍ بنفسه إلىٰ مفعول واحد، فازداد بالتضعيف آخر. انتهىٰ، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ الجملة الفعلية، أو مستأنفة.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنۡ﴾: حرف شرط ﴿تُخۡفُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف وتفصيل ﴿تُبۡدُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿تُخۡفُواْ﴾ مجزوم علىٰ كونه فعل الشرط. ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَيَعۡلَمُ﴾ الواو استئنافية، ﴿يعلم﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَا﴾: أو صفة لها. ﴿وَمَا﴾: الواو عاطفة ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿مَا﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة أو معطوفة علىٰ الجملة الفعلية المذكورة قبلها.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾.

﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره: اذكروا يوم، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾، ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ﴿تَجِدُ﴾؛ لأن وجد هنا بمعنىٰ: أصاب فيتعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد. ﴿عَمِلَتۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على النفس، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: عملته. ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَمِلَتۡ﴾، أو حال من ضمير المفعول المحذوف. ﴿مُّحۡضَرٗا﴾ حال من ﴿مَّا﴾ الموصولة.

﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

﴿وَمَا عَمِلَتۡ﴾ الواو استئنافية ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ. ﴿عَمِلَتۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على النفس، والجملة صلة لـ﴿مَّا﴾، أو صفة لها. ﴿مِن سُوٓءٖ﴾: جار ومجرور حال من ضمير المفعول المحذوف ﴿تَوَدُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على النفس، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَوۡ﴾: زائدة. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿بَيۡنَهَا﴾: ظرف، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾ مقدَّم علىٰ اسمها. ﴿وَبَيۡنَهُۥٓ﴾: معطوف عليه ﴿أَمَدَۢا﴾ اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر ﴿بَعِيدٗا﴾ صفة ﴿لأمداً﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب علىٰ كونه مفعولاً لـ﴿تَوَدُّ﴾ تقديره: وما عملته من سوء تود كون أمد بعيد بينها وبينه. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ تقدم إعرابها قريباً، فلا عود ولا إعادة فراجعه. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رَءُوفُۢ﴾.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها، ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ تقديره: محبين الله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إِن﴾ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية. ﴿اتبعوني﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به ونون وقاية، مبني علىٰ حذف النون، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل، مجزوم بالطلب السابق، والجملة في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿يغفر﴾: معطوف علىٰ ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يغفر﴾ ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، لكنها في محل النصب مقول القول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إلىٰ آخر الآية أو إلىٰ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: معطوف علىٰ لفظ الجلالة. ﴿فَإِن﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا أمرتهم بطاعة الله والرسول، وأردت بيان حكم ما إذا تولوا عن طاعة الله.. فأقول لك، ﴿إن تولوا﴾: (إن): حرف شرط جازم. (تولوا): يحتمل أن يكون من تمام مقول القول، فيكون مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين؛ أي: تتولوا، فيكون مجزوماً بحذف النون، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالىٰ، فيكون ماضياً في محل الجزم علىٰ كونه فعل الشرط لـ (إنْ)، والواو فاعل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: الفاء رابطة

لجواب (إن) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية (إنَّ): حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ(إن) الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة: (إن) الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب جزء المقول، أو مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تنزع﴾: يقال: نزع الله عنه الشر، أو الملك ينزع ـ من باب ضرب ـ إذا أزاله عنه، وسلبه منه. ونزع الشيء من مكانه: إذا قلعه منه.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: من مزيد عَزَّ يعز عزاً بكسر العين فيهما إذا قوي بعد ذله أو غلب، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾.

﴿وَتُذِلُّ﴾: من مزيد ذلَّ يذل ـ بالكسر ـ ذلاً وذلةً إذا غلب وقهر. ﴿تُولِجُ﴾: يقال: ولج يلج ـ من باب: وعد ـ ولوجاً ولِجَة كعِدَة، والولوج: الدخول، والإيلاج الإدخال.

﴿تُقَىٰةً﴾: مصدر على وزن فعلة؛ لأنه مصدر تقَيته ـ بفتح القاف ـ كرميته رمية، وأصله: وقية؛ لأنه من الوقاية، فأبدلت الواو تاء، والياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، وفي «المختار»: تقى يتقي كقضى يقضي، والتقوى والتقى واحد، والتقاة: التقية يقال: اتقى تقية وتقاة، وفي «القاموس»: وتقيت الشيء أتقيه من باب ضرب اهـ.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ جمع: صَدْر، كفَلْس وفُلُوس، والصَّدْر معروف. ﴿أَمَدًۢا﴾: الأمد: غاية الشيء ومنتهاه، يجمع على آماد، والفرق بين الأمد والأبد: أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة، والأمد مدة لها حد مجهول، والفرق بين الأمد والزمان: أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة، وضروباً من البلاغة[1]:

منها: التكرار للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ وتكرار: ﴿مَن تَشَآءُ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿تُؤْتِي﴾، ﴿وَتَنزِعُ﴾، ﴿وَتُعِزُّ﴾ ﴿وَتُذِلُّ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّيْلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْحَيَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾، وفي قوله: ﴿تُبْدُوهُ﴾ و﴿تُخْفُوا۟﴾، وفي: ﴿خَيْرٍ﴾ و﴿سُوٓءٍ﴾ و﴿مُّحْضَرًا﴾ و﴿بَعِيدًا﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله ﴿تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وفي قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، و ﴿غَفُورٌ﴾.

ومنها: التعبير بالمحل عن الشيء في قوله: ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ عبر بها عن القلوب قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الآية، أشار إلىٰ انسلاخهم من ولاية الله.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: التأنيس بعد الإيحاش في قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع كقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: من تشاء إيتاءه، ومثله و﴿تنزع﴾. و﴿تعز﴾ و﴿تذل﴾.

ومنها: الخطاب العام الذي سببه خاص في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) البحر المحيط.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، وفي قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ﴾ وفي قوله: ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ﴾، وفي قوله: ﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ وفي قوله: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وهو عبارة عن إدخال هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ هذا، فما ينقصه من الليل.. يزيده في النهار، والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ؛ لأنه يفيد إدخال كل منهما في الآخر بلطيف الممازجة، وشديد الملابسة.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص تأكيداً له وتقريراً في قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بعد قوله: ﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾، ولو جرىٰ على سنن الكلام الأول.. لجاء بالكلام غيبة.

فائدة: وروي في الحديث[1]: «أن من أراد قضاء دينه، قرأ كل يوم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ إلىٰ ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، ويقول: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت تعطي منهما من تشاء، فأقضِ عني دَيْني، فلو كان ملء الأرض ذهباً.. لأدّاه الله عنه».

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ أن الدين الحق هو دين الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز والفلاح منوط باتباع الرسول ﷺ وطاعته.. ذكر هنا من أحبهم واصطفاهم، ورفع درجاتهم، وجعل منهم الرسل الذين يبينون للناس طريق محبته وهي: الإيمان به مع طاعته، والعمل بما يرضيه، فبدأ بآدم أولهم، وهو أبو البشر، اصطفاه واجتباه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾، وثنَّىٰ بنوحٍ وهو الأب الثاني للبشر، فقد حدث علىٰ عهده ذلك الطوفان العظيم، فانقرض من السلاسل البشرية من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته، وانتشرت في البلاد، وفشت فيهم الوثنية، ثم ثلَّث بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسول الله ﷺ؛ لأنه من ولد إسماعيل، ثم ربَّع بآل عمران، فاندرج فيهم عيسىٰ عليه السلام، وأعقب ذلك

بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيىٰ، وقصة ولادة عيسىٰ. وكلها خوارق للعادة تدل علىٰ قدرة العلي القدير.

وقال أبو حيان[1]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما قدم قبل ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وأردفه بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، وختمها بأنه لا يحب الكافرين.. ذكر المصطفين الذين يجب اتباعهم، فبدأ أولاً بأولهم وجوداً وأصلهم، وثنىٰ بنوح عليه السلام؛ إذ هو آدم الأصغر، ليس أحد علىٰ وجه الأرض إلا من نسله، ثم أتىٰ ثالثاً بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسول الله ﷺ المأمور باتباعه وطاعته، وموسىٰ عليه السلام، ثم أتىٰ رابعاً بآل عمران، فاندرج في آله مريم وعيسىٰ عليهما السلام، ونص علىٰ إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلىٰ آل عمران لخصوصية النصارىٰ بهم، فذكر تعالىٰ جعل هؤلاء صفوة؛ أي: مختارين نَقاوة[2]، والمعنىٰ: أنه نَقَّاهم من الكَدَر، وهذا من تمثيل المعقول بالمحسوس.

أسباب النزول

قال ابن عباس رضي الله عنهما[3]: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن علىٰ دينهم، فأنزل الله هذه الآية، والمعنى: إن الله اصطفىٰ هؤلاء بالإسلام، وأنتم يا معشر اليهود علىٰ غير دين الإسلام.

وقيل[4]: نزلت في نصارىٰ نجران لما غلوا في عيسىٰ، وجعلوه ابن الله تعالىٰ واتخذوه إلهاً.. نزلت رداً عليهم وإعلاماً أن عيسىٰ من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار للمستحيلة علىٰ الإله، واستطرد من ذلك إلىٰ ولادة أمه، ثم إلىٰ ولادته هو.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) **نقاوة الشيء** ـ بضم النون ـ: خياره ومختاره.

(٣) الخازن.

(٤) البحر المحيط.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ واختار ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر عليه السلام بالإسلام والنبوة، وعاش آدم في الأرض تسع مئة وستين سنة، وأما مدة إقامته في الجنة، فلا تحسب ﴿و﴾ اختار ﴿نوحاً﴾ الأصل الثاني للبشر، بالتوحيد والنبوة والرسالة، وجعله من أولي العزم، ولقب بنوح؛ لكثرة نوحه بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ. قيل: اسمه عبد الغفار، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، وعُمِّر ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وقيل: اصطفاء آدم عليه السلام بوجوه منها: خلقه أول هذا الجنس الشريف، وجعله خليفة في الأرض، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه جنته، إلىٰ غير ذلك مما شرفه الله به.

واصطفاء نوح عليه السلام بأشياء منها: أنه أول رسول بُعث إلىٰ أهل الأرض بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر المحارم، وأنه أبو الناس بعد آدم، إلى غير ذلك.

واصطفاء آل إبراهيم عليه السلام: بأن جعل فيهم النبوة والكتاب.

﴿و﴾ اصطفى ﴿آل إبراهيم﴾؛ أي: عشيرته وأقاربه، والمراد بهم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط والأنبياء من أولادهم، ومن جملتهم خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وقيل: المراد بـ ﴿آل إبراهيم﴾: نفسه، فلفظ (﴿آل﴾) مُقحم؛ يعني: اختاره بالنبوة والرسالة والخلة، وعُمِّر إبراهيم مئة وسبعين سنة. ﴿و﴾ اصطفىٰ ﴿آل عمران﴾؛ أي: أهله، قيل: المراد بعمران هذا: هو عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود، وهو أبو مريم البتول أمِّ عيسىٰ عليه السلام، والمراد بآله: عيسىٰ، وأمه مريم، وقيل: عمران بن يصهر أبو موسىٰ وهارون، والمراد بآله: موسىٰ وهارون، ولكن الأرجح القولُ الأول بقرينة السياق، وبين العمرانين ألف وثمان مئة سنة، وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿وآل محمد﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: علىٰ عالمي زمانهم. قال القرطبي: وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم، والمعنى: اختارهم واصطفاهم

علىٰ العالمين؛ بما خصهم من النبوة والرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا علىٰ ما لم يقوَ عليه غيرهم. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾؛ أي: اصطفى الآلين حالة كونهم ذرية بعضها، متناسلون من بعض في النسب، وقيل: بعضها من بعض من التناصر والتعاضد، وقيل: متجانسين في الدين والتقىٰ والصلاح، فكما أن الأصول أنبياء ورسل، وكذلك الذريةَ بل في بعضها ما يفوق الأصول جميعاً كمحمد ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وضمائرهم وأفعالهم، وإنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، وقيل: معناه: والله سميع لمقالة اليهود: نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحباؤه، وعلىٰ دينه، ولمقالة النصارىٰ: المسيح ابن الله، عليم بعقوبتهم.

واذكر لهم يا محمد قصة ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ حنة بنت فاقوذ، أم مريم حين شاخت، وكانت يوماً في ظل شجرة، فرأت طائراً يطعم فرخاً له ويسقيه، فعطفت، واشتاقت للولد من أجل رؤية ذلك الطائر، فدعت ربها أن يرزقها ولداً، ونذرت أن تهبه لبيت المقدس يخدمه، وكان ما من رجل من أشراف بيت المقدس إلا وله ولد منذور لخدمته، فاستجاب الله دعاءَها، فحملت بمريم، فلما أحسَّت بالحمل.. جددت النذر ثانياً، فقالت: يا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾؛ أي: أوجبت علىٰ نفسي أن أجعل ما في بطني من الحمل محرراً لك، عتيقاً من أمر الدنيا لطاعتك، ومخلصاً لعبادتك وخادماً لمن يدرس الكتاب ويعلم في بيت المقدس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ﴾؛ أي: خذ مني ما نذرته لك علىٰ وجه الرضا ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لتضرعي ودعائي وندائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضميري وقلبي ونيتي، وكان علىٰ أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فتصدقت بولدها علىٰ بيت المقدس، فلامها زوجها علىٰ ذلك؛ حيث أطلقت في نذرها، ولم تقيد بالذكر، فبقيت في حيرة وكرب إلىٰ أن وضعت ومات زوجها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾؛ أي: ولدت المنذورة التي في بطنها ﴿قَالَتْ﴾ علىٰ وجه التحسر والاعتذار ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾؛ أي: ولدت المنذورة التي في بطني حالة كونها ﴿أُنثَىٰ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت هذا؛ لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور، قال

الله تعالىٰ تعظيماً لولدها وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ بقدر ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ أي عالم بأن الذي ولدته وإن كان أنثىٰ أحسنُ وأفضل من الذكر، وهي غافلة عن ذلك، فلذلك تحسرت، وكانت مريم أجمل نساء زمانها وأكملهن، وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة من قرأ بسكون التاء، وهي قراءة الجمهور، فيكون من كلام الله تعالىٰ علىٰ جهة التعظيم لما وضعته، والتفخيم لشأنه والتجليل لها؛ حيث وقع منها التحسر والتحزن، مع أن هذه الأنثىٰ التي وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويخصها بما لم يخص به أحداً.

وقرأ أبو بكر شعبة وابن عامر ويعقوب: ﴿وضعتُ﴾ ـ بضم التاء ـ فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبله، وفيه معنىٰ التسليم لله، والخضوع والتنزيه له من أن يخفىٰ عليه شيء، فإنها خافت من قولها: إني وضعتها أنثىٰ أن يظن بذلك القول أنها تخبر الله تعالىٰ.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما في رواية شاذة: ﴿بما وضعتِ﴾ بكسر التاء علىٰ أنه خطاب من الله تعالىٰ لها؛ أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتتضافر عندها العقول من العجائب والآيات. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثىٰ التي وضعت، فإنَّ غاية ما أرادتْ من كونه ذكراً أن يكون نذراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثىٰ عظيم وشأنها فخيم، وهذه الجملة معترضة بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وبين المعطوف عليه الذي هو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ مبيِّنة لما في الجملة الأولى ـ أعني قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ـ من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته، وفي الكلام تقديم وتأخير، والأصل: وليس الأنثى كالذكر، والمراد منه تفضيل هذه الأنثىٰ على الذكر، كأنها قالت: كان الذكر مطلوبي لخدمة البيت، وهذه الأنثىٰ هي موهبة لله تعالىٰ، وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن في وقتها كما مر آنفاً، واللام في الذكر والأنثى للعهد.

هذا علىٰ قراءة الجمهور وعلىٰ قراءة ابن عباس، وأما علىٰ قراءة أبي بكر

وابن عامر فيكون قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من جملة كلامها، ومن تمام تحسرها وتحزنها؛ أي: ليس الذكر الذي أردت أن يكون خادماً صالحاً للنذر، كالأنثىٰ التي لا تصلح للنذر، والمراد منه: تفضيل الذكر علىٰ الأنثى؛ لأن الذكر يصلح لخدمة الكنيسة، ولا تصلح الأنثىٰ لذلك؛ لضعفها وما يعرض لها من الحيض والنفاس؛ ولأنها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال، وكأنها أعذرت إلىٰ ربها من وجودها لها علىٰ خلاف ما قصدت، وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ومقصودها من هذا: الإخبار بالتسمية للتقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالى، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنىٰ اسمها، فإن معنىٰ مريم: خادم الرب بلغتهم، فهي وإن كانت غير صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، وكأنها أرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالىٰ أن يعصمها من آفات الدين والدنيا؛ لأن المعنىٰ: وإني سميت هذه البنت المولودة لي عابدة الرب.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾؛ أي: وإني يا إلهي أجيرها وأحفظها وأولادها بحفظك وعصمتك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أي: من ضرر إبليس اللعين المطرود عن رحمتك، ووسوسته، وهذه الجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾.

روىٰ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مولود يولد من بني آدم إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من نخسه إياه، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وروىٰ البخاري عنه رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يولد، غير عيسىٰ ابن مريم، ذهب ليطعن، فطعن في الحجاب».

والمراد: أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم

وابنها، فإن الله سبحانه وتعالىٰ عصمها ببركة هذه الاستعاذة.

وفي المقام إشكال قوي لم أرَ من نبَّه عليه من المفسرين، وحاصله: أن قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ معطوف علىٰ ما قبله، الواقع حيزاً لما وضعتها، فيقتضي أن طلب هذه الاستعاذة إنما وقع بعد الوضع، فلا يترتب عليه حفظ مريم من طعن الشيطان وقت نزولها وخروجها من بطن أمها، فلا يتلاقىٰ الحديث مع الآية، بل مقتضىٰ ظاهر الآية: أن إعاذتها من الشيطان الرجيم إنما كان بعد وضعها، وهذا لا ينافي تسلُّط الشيطان عليها بطعنها ونخسها وقت ولادتها الذي هو عادته، فإن عادته طعن المولود وقت خروجه من بطن أمه، تأمل.

قلتُ: الجواب أنه استعمل المضارع بمعنىٰ الماضي بقرينة السياق، فكأنه قال: وإني أعذتها بك وذريتها، والله أعلم.

وفي «القرطبي»: قال علماؤنا في هذا الحديث: إن الله استجاب دعاءَ أم مريم، وإن الشيطان ينخس جميع بني آدم حتىٰ الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها، قال قتادة: كل مولود يطعنه الشيطان في جنبه حين يولد، غير عيسىٰ وأمه، فإنه جعل بينهما حجاب هو المشيمة التي يكون فيها الولد، فأصابت الطعنة الحجاب، ولم ينفذ لهما منه شيء. وطعن الشيطان للأنبياء غير عيسىٰ ليس فيه نقص لهم، ولا ينافي عصمتهم منه؛ لأنهم معصومون من وسوسته وإغوائه. والطعن من قبيل الأمراض والآلام المتعلقة بظاهر البدن، والأنبياء غير معصومين من مثل هذا، تأمل. انتهىٰ.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ أي: تقبل الله سبحانه وتعالىٰ مريم من أمها قبولاً حسناً، ورضي أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته علىٰ صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر علىٰ خدمة البيت ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: رباها الله سبحانه وتعالىٰ، ونماها بما يصلح أحوالها؛ كما يربي النبات في الأرض الصالحة بعد تعهد الزراع إياه بالسقي، وقلع ما يضعفه من النبات الطفيلي، وهذه التربية تشمل التربية الروحية والجسدية، فقد نمَّىٰ جسدَها، فكانت خير لداتها جسماً وقوة، كما نَمَّاها صلاحاً وعفةً وسداد رأيٍ. قيل: معنىٰ

أنبتها نباتاً حسناً؛ أي: جعل ثمرتها مثل عيسىٰ، وقيل: القبول الحسن: تربيتها علىٰ نعت العِصْمة حتىٰ قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، والنبات الحسن: الاستقامة علىٰ الطاعة وإيثار رضا الله في جميع الأوقات.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ أي: جعل الله سبحانه وتعالىٰ زكريا مربياً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بشؤونها؛ أي: كَفَّلها، لا بالوحي، بل بمقتضىٰ القرعة، كما ذكره أبو السعود. قال أهل الأخبار: أن حنة حين وضعت مريم لفتها في خرقة، وحملتها إلىٰ المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يلون يومئذٍ من بيت المقدس ما تلىٰ الحجبة من الكعبة، وقالت: خذوا هذه النذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم الأعظم في العلم والصلاح، فقال زكريا: أنا أحق بها؛ لأن خالتها عندي، فقالت الأحبار: لا تقل ذلك، فإنها لو تركت لأحق الناس بها.. لتركت لأمها التي ولدتها، ولكنا نقترع عليها، فانطلقوا، وكانوا تسعة وعشرين إلىٰ نهر جار في حلب يقال له: قرمق، فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون التوراة بها علىٰ أن كل من ارتفع قلمه فوق الماء، وثبت، فهو أولىٰ بها من غيره، وعلىٰ كل قلم اسم صاحبه، ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات، ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا فوق الماء، وترسب أقلامهم، فأخذها زكريا، ولما أخذها.. بنىٰ لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطها لا يرقىٰ إليه إلا بالسلم، ولا يصعد إليها غيره، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها.

وقرأ الكوفيون[1]: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ ـ بتشديد الفاء ـ على إسناد الفعل إلىٰ الله تعالىٰ. وباقي السبعة ﴿وكفَلها﴾ بتخفيفها علىٰ إسناد الفعل إلىٰ زكريا بمعنىٰ: ضمها إليه، وقرأ أُبي: ﴿وأكفلها﴾ وهو بمعنىٰ التشديد، وقرأ عبد الله المزني شذوذاً: ﴿وكفِلها﴾ بالتخفيف وكسر الفاء، وهي لغة، يقال: كفل يكفل كنصر ينصر، وكفل يكفل كعلم يعلم، والفعل مسند إلىٰ زكريا، ففيه أربع قراءات ثنتان

---

(١) البحر المحيط.

منها سبعية.

وقرأ مجاهد[1]: ﴿فتقبلْها﴾ بإسكان اللام علىٰ صيغة الأمر والدعاء، ونصب ﴿ربَّها﴾ علىٰ أنَّه منادىٰ مضاف، وقرأ أيضاً: ﴿وأنبتْها﴾ بإسكان التاء، ﴿وكفِّلْها﴾ بتشديد الفاء المكسورة، وإسكان اللام، ونصب ﴿زكرياء﴾ مع المد وذلك كله شذوذاً. وقرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿زَكَرِيَّا﴾ بغير مدٍّ، ومده الباقون مع الهمز هكذا ﴿زكرياء﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو من ذرية سليمان بن داود؛ أي: في أي وقت دخل عليها زكريا المحراب والغرفة التي بنىٰ لها في المسجد ﴿وَجَدَ عِندَهَا﴾؛ أي: رأىٰ عند مريم ﴿رِزْقًا﴾؛ أي: نوعاً من أنواع الطعام غير الذي رآه في المرة الأولىٰ، أو فاكهة في غير وقتها المعتاد. روي أنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج.. أغلق عليها سبعة أبواب، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف؛ مثل القصب، وفاكهة الصيف في الشتاء؛ مثل العنب، ولم ترضع ثدياً قط، بل يأتيها رزقها من الجنة.

وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية.

﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ الرزق؛ أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير حينه، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة عليك؟ ﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿هُوَ﴾؛ أي: هذا الرزق ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ الذي يرزق الناس جميعاً، أتاني به جبريل من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير استحقاق تفضلاً منه، أو من غير مسألة في حينه وفي غير حينه، وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم، أو ابتداء كلام من الله عزّ وجلّ: فلما رأىٰ زكريا ما أوتيت مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.. قال: إن الذي قدر علىٰ أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها وحينها من غير سبب لقادرٌ علىٰ أن يصلح زوجي، ويهب

---

(١) الشوكاني.

لي ولداً في غير حينه مع الكبر، وطمع في الولد، وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد كبر وشاخ، وأيس من الولد، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم، وشاهد تلك الكرامات، أو في ذلك الوقت الذي رأىٰ فيه خوارق العادات عندها ﴿دَعَا﴾ وسأل ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾، سبحانه وتعالىٰ جوف الليل و ﴿قَالَ﴾ في مناجاته يا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: أعطني من عندك وبمحض قدرتك من غير سبب معتاد ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً، كما وهبت لحنة العجوز العاقر مريم، وكان شيخاً كبيراً، وامرأته عجوزاً عاقراً، فإنه لما رأىٰ حسن حال مريم ومعرفتها بالله.. تمنىٰ أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلاً من عنده، فرؤية الأولاد النجباء مما تشوق نفوس الناظرين إليهم، وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم، والذرية تطلق علىٰ الواحد والجمع، والذكر والأنثىٰ، والمراد بها هنا: الواحد، وإنما قال: ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث لفظ الذرية ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ سماع قبول؛ أي: سامع دعاء من دعاه ومجيبه، وهذا الكلام قصة مستأنفة سيقت في غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط؛ لأن فضل بعض الأقارب يدل علىٰ فضل الآخر، وهو حكمة قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾، فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وبعث إليه الملائكة مبشرين له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: نادىٰ زكريا جبريل، كما قال به جمهور من المفسرين؛ كابن جرير عن السدي، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه، ولأنه رئيس الملائكة، وقلَّ أن يبعث إلا ومعه جمع من الملائكة، أو نادته جماعة من الملائكة؛ كما يروىٰ عن ابن جرير مع جماعة آخرين، إذ لا ضرورة تدعو إلىٰ التأويل، وبهذا القول قال قتادة وعكرمة ومجاهد، قيل: نادته بعد مضي أربعين سنة من دعوته.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداه﴾ بالإمالة والتذكير، وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود، وقرأ الباقون: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن زكريا ﴿قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾؛ أي: قائم في الموضع العالي الشريف من المسجد مصلياً، والمحراب موقف الإمام من المسجد، والظاهر أن المحراب هو

المحراب المذكور في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، وهذا يدل على مشروعية الصلاة في شريعتهم، وقيل: المراد بالصلاة هنا: الدعاء، وفيه أيضاً دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات، وفيه إجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وقال ابن عطاء: ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بولادة ولد يسمى ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ منك ومن امرأتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تَسمَّى يحيى؛ لأن الله أحيا به عقر أمه، وقيل: لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان، وقيل: لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهتم بمعصية قط. روي أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون، فدعوه إلى اللعب، فقال: ما للعب خُلقت.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة على تأويل النداء بالقول، وقرأ الباقون: ﴿أن﴾ بفتح الهمزة على تقدير: بأن، وقرأ الجمهور: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بالتشديد وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَبْشُرك﴾، وفي «المختار»: بَشَره بالتخفيف من البشرى، وبابه نصر ودخل. وقرأ حميد بن قيس المكي شذوذاً: ﴿يُبشِرك﴾ بكسر الشين مع ضم حرف المضارعة، قال الأخفش: هي ثلاثة لغات بمعنى واحد، وقرأ عبد الله بن مسعود في رواية شاذة: ﴿يا زكريا إن الله﴾.

حالة كون يحيى ﴿مُصَدِّقًا﴾ ومؤمنا بعيسى ابن مريم المخلوق بلا واسطة أب، بل ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ كن الواقعة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا بالسنة العامة في توالد البشر، وهي أن يكون الولد من أب وأم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن يحيى كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر، وقيل: بثلاث سنين، وكان يحيى أول من آمن وصدق بأنه كلمة لله، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى بمدة يسيرة. ﴿و﴾ حالة كون يحيى ﴿سيداً﴾؛ أي: رئيساً يسود ويفوق قومه، والناس جميعاً في الشرف والصلاح وعمل الخير، وفي العلم والحلم والورع، وقال ابن عباس: أي: حليماً عن الجهل. وقال مجاهد: كريماً على الله ﴿و﴾ حالة كونه ﴿حصوراً﴾؛ أي: مانعاً نفسه من النساء للعفة والزهد، لا للعجز عنها ﴿و﴾ حالة كونه ﴿نبياً﴾ مرسلاً يوحى إليه إذا هو بلغ سن النبوة، وحالة كونه ناشئاً ﴿مِّنَ﴾

أصلاب القوم ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والمرسلين؛ لكونه من نسل الأنبياء أو كائناً من جملة الصالحين، ولا غرو أنه من جملة الصالحين، وأنه من أصلاب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿قَالَ﴾ زكريا لجبريل حين بشره بالولد ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ أي: يا سيدي: علىٰ أي حال يكون لي ذلك الغلام أتردني وامرأتي إلىٰ حال الشباب، أم مع حال الكبر؟ ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي: أدركني كبر السن ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ أي: عقيم لا تلد. قال ابن عباس: كان زكريا يوم بشر بالولد ابن مئة وعشرين سنة، وكانت امرأته أيشاع بنت فاقوذ بنت ثمان وتسعين سنة.

والظاهر[1]: أن هذا الخطاب منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملك، وذلك لمزيد التضرع والجد في طلب الجواب عن سؤاله، وقيل: إنه أراد بالرب جبريل؛ أي: يا سيدي كما فسرنا، كذلك قيل: وفي معنىٰ هذا الاستفهام وجهان:

أحدهما: أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها؟

والثاني: قيل: معناه بأي سبب استوجب هذا، وأنا وامرأتي علىٰ هذه الحال؟ وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرىٰ في مريم استعظاماً لقدرة الله سبحانه وتعالى، لا لمحض الاستبعاد، وقيل: إنه قد مرَّ بعد دعائه إلىٰ وقت يشاء ربه أربعون سنة، وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية. والله أعلم.

وفي «المراغي»[2]: أن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها، وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها والرازق لما عندها هو من يرزق من يشاء بغير حساب.. أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستفرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

في حال غيبته، وإنما يكون الدعاء مستجاباً إذا جرىٰ به اللسان بتلقين القلب حال استغراقه في الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره في عالم الوحدة إلىٰ عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوذن بسماع ندائه، واستجابة دعائه.. سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهي علىٰ غير السنة الكونية، فأجابه بقوله:

﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر كما قلت لك من خلق ولد منكما، وأنتما على حالكما من الكبر. ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأفاعيل الخارقة للعادة، فمتىٰ شاء أمراً.. أوجد له سببه، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة، فلا يحول دون مشيئته شيء، ففوض الأمر إليه، ولا تسأل عن الكيفية، فلا سبيل لك إلىٰ الوصول بمعرفتها، وإنما قال في حق زكريا: ﴿يَفْعَلُ﴾، وفي حق مريم: ﴿يخلق﴾ مع اشتراكهما في بشارتهما بولد؛ لأن استبعاد زكريا لم يكن لأمر خارق، بل نادر بعيد، فحسن التعبير بـ ﴿يَفْعَلُ﴾، واستبعاد مريم لأمر خارق، أي: لأغربيته؛ لأنه اختراع بلا مادة؛ أي: من غير إحالة علىٰ سبب ظاهر، فكان ذكر الخلق أنسب. ﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾؛ أي: علامة في حبل امرأتي ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿ءَايَتُكَ﴾؛ أي: علامتك في حبل امرأتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أن لا تقدر على تكليم الناس من غير خرس، لا علىٰ غيره من الأذكار وقرأ ابن أبي عبلة؛ ﴿أن لا تكلمُ﴾ برفع الميم علىٰ أنَّ: ﴿أنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة. ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية بلياليها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾؛ أي: إلا إيماءً وإشارة بالشفتين والحاجبين والعينين واليدين. وقرأ علقمة بن قيس ويحيىٰ بن وثاب شذوذاً: (رُمُزاً) ـ بضم الراء والميم ـ، وخُرِّج علىٰ أنه جمع: رموز؛ كرسل ورسول وعلىٰ أنه مصدر كرمز جاء علىٰ فُعْل، وأتبعت العين الفاء؛ كاليسر والعسر. وقرأ الأعمش شذوذاً أيضاً: (رمزاً) بفتح الراء والميم، وخُرِّج علىٰ أنه جمع رامزٍ كخادم وخدم وانتصابه إذا كان جمعاً على الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تكلم﴾، أو من المفعول، وهو: ﴿الناس﴾؛ أي: مستراً مزيناً؛ كما يكلم الأخرس الناس ويكلمونه، ووجه جعل حبس لسانه عن كلام الناس تلك

المدة آيةً له لتخلصَ تلك الأيام لذكر الله تعالىٰ شكراً علىٰ ما أنعم به عليه؛ قضاء لحق الشكر؛ كما قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ باللسان والقلب في مدة الحبسة عن كلام الدنيا مع الخلق شكراً لله تعالى علىٰ هذه النعمة ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ذكراً كثيراً علىٰ كل حال ﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: صلِّ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي: آخر النهار ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾؛ أي: أوله؛ أي: صلِّ عشياً وبكرة كما كنت تصلي. والعشي هو من زوال الشمس إلىٰ الغروب، وقيل: من العصر إلىٰ نصف الليل. والإبكار من طلوع الفجر إلىٰ وقت الضحىٰ. وقرىء شاذاً: (والأبكار) ـ بفتح الهمزة ـ جمع: بَكَر بفتح الفاء والعين، والعامة علىٰ الإبكار بالكسر اسم مفرد، وخص هذين الوقتين لفرضية الصلاة عليه فيهما، وقيل: المراد بالتسبيح التنزيه له تعالى بالصيغة المعروفة، فعَطْفه علىٰ ما قبله من عطف الخاص علىٰ العام.

الإعراب

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿ءَادَمَ﴾: مفعول به. ﴿وَنُوحٗا﴾: معطوف عليه، وصرِّف مع كونه أعجمياً؛ لخفته بسكون الوسط. ﴿وَءَالَ﴾: معطوف على ﴿ءَادَمَ﴾. ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿وَءَالَ﴾: معطوف أيضاً ﴿عِمۡرَٰنَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾: منصوب علىٰ البدلية من نوحٍ وما عطف عليه، كما قاله أبو البقاء، أو بدل من الآلين، كما قاله الزمخشري، أو منصوب علىٰ الحال منهم أيضاً، والعامل فيها ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ تقديره: حال كونهم متشعباً. ﴿بَعۡضُهَا﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾: جار ومجرور خبر، والجملة في محل النصب صفة

لـ﴿ذُرِّيَّةً﴾، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: مبتدأ وخبر ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد لأمتك قصة إذ. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾: إلىٰ آخر الآية: مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإنْ شئت قلتَ ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب جزء المقول. ﴿إِنِّي﴾ إنَّ: حرف نصب وتوكيد، وياء المتكلم في محل النصب اسمها. ﴿نَذَرْتُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿نَذَرْتُ﴾ ﴿فِي بَطْنِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها. ﴿مُحَرَّرًا﴾: حال من ﴿مَا﴾، والعامل فيه ﴿نَذَرْتُ﴾، أو مفعول ثانٍ لـ(نذر) إن جعلناه بمعنىٰ: جعلت، وجملة ﴿نَذَرْتُ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول القول، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾: الفاء عاطفة ﴿تقبل﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الرب ﴿مِنِّي﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾ على كونها مقول القول، ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ حرف نصب، والكاف اسمها ﴿أَنْتَ﴾: ضمير فصل أو مؤكد للضمير المنصوب ﴿السَّمِيعُ﴾: خبر أول لـ﴿إنْ﴾، ﴿الْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ﴾: الفاء عاطفة علىٰ محذوف تقديره: ووضعتها جارية ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿وضع﴾: فعل ماضٍ، التاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير يعود علىٰ المرأة، والهاء مفعول به عائد علىٰ ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛ لأنه بمعنىٰ الجارية، ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ

المرأة، وجملة ﴿قَالَتۡ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة (لما) من فعل شرطها وجوابها معطوفة على الجملة المحذوفة. وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتۡ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب جزء المقول ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾: (إن): حرف نصب وتوكيد، وياء المتكلم اسمها. ﴿وَضَعۡتُهَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿أُنثَىٰ﴾: حال من الهاء مؤكدة؛ لأن كونها أنثىٰ مفهوم من تأنيث الضمير، فجاءت أنثىٰ مؤكدة، أو بدل منها، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنّ) في محل النصب مقول القول. ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معترضة لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، ﴿وَضَعَتۡ﴾: فعل ماضٍ والتاء علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود علىٰ أم مريم، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما وضعته. ﴿وَلَيۡسَ﴾: الواو عاطفة (ليس): فعل ماضٍ ناقص. ﴿ٱلذَّكَرُ﴾: اسمها. ﴿كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾: جار ومجرور خبر (ليس)، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ علىٰ كونها معترضة إن قلنا: إنها من كلام الله تعالىٰ، ويحتمل أنها من كلامها، فتكون حينئذٍ من مقول القول. ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب والياء اسمها. ﴿سَمَّيۡتُهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿مَرۡيَمَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ) في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إني وضعتها﴾ علىٰ كونها مقول القول ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾: الواو عاطفة ﴿إن﴾: حرف نصب، والياء اسمها. ﴿أعيذ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ أم مريم، والهاء مفعول به. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعيذ﴾ ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: معطوف على ضمير المفعول، والهاء مضاف إليه ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أعيذ﴾ ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: صفة الشيطان، وجملة ﴿أُعِيذُهَا﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنْ) في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: إني وضعتها علىٰ كونها مقول القول.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ الفاء عاطفة تفريعية. ﴿تقبلها﴾: فعل ومفعول، ﴿رَبُّهَا﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾ ﴿بِقَبُولٍ﴾: الباء زائدة، ﴿قبولٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿حَسَنٍ﴾: صفة له. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: الواو عاطفة. ﴿أنبتها﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿تقبل﴾ ﴿نَبَاتًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة ﴿حَسَنًا﴾ صفة له. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾: الواو عاطفة ﴿كفلها﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿زَكَرِيَّآ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿دَخَلَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به. ﴿زَكَرِيَّا﴾: فاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ مفعول ﴿دَخَلَ﴾. وحق ﴿دَخَلَ﴾ أن يتعدىٰ بفي أو بإلىٰ لكنه اتسع فيه، فأوصل بنفسه إلىٰ المفعول، فهو كقولهم: دخلت الدار، وسكنت الشام كما ذكره أبو البقاء. ﴿وَجَدَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّا﴾، ﴿عِندَهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَجَدَ﴾، ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به لـ﴿وَجَدَ﴾؛ لأنه متعد إلىٰ واحد، وجملة ﴿وَجَدَ﴾ جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ مستأنفة.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذه الآية؟ فقيل: قال: يا مريم أنىٰ لك هذا؟. وفي «الفتوحات»: والذي[1] يظهر أن جملة قوله: ﴿وَجَدَ﴾

(١) الجمل.

في محل نصب علىٰ الحال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾، ويكون جواب ﴿كُلَّمَا﴾ هو نفس ﴿قَالَ﴾، والتقدير: كلما دخل عليها زكريا المحراب واجداً عندها الرزق.. قال، وهذا واضح جداً. انتهىٰ ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿مريم﴾ منادىٰ مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: أين، في محل النصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿هَٰذَاۖ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿لَكِ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ومن المبتدإ على رأي سيبويه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿قَالَتۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مريم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتۡ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يَرۡزُقُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿من﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَرۡزُقُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء رزقه، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَرۡزُقُ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة للمكان البعيد نظراً إلىٰ أصله، وأما في هذا المقام فهي مستعملة في الزمان تجوزاً، والظرف متعلق بدعا الآتي ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. قصة مستقلة سيقت في أثناء قصة مريم كما مرّ، ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة مفسرة لجملة ﴿دَعَا﴾، ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإنْ شئتَ قلتَ: ﴿رَبِّ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿هَبۡ﴾: فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة جواب النداء في محل

النصب مقول القول ﴿لِي﴾ متعلق بـ﴿هَبْ﴾، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿هَبْ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً﴾: مفعول ﴿هَبْ﴾، ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة لـ﴿ذُرِّيَّةً﴾ ﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ: حرف نصب، والكاف: اسمها. ﴿سَمِيعُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة بحسب الأصل، ومقول القول هنا.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَنَادَتْهُ﴾: الفاء عاطفة تفريعية، ﴿نادته الملائكة﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿هُنَالِكَ دَعَا﴾، ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو قائِمٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير المفعول. ﴿يُصَلِّي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾، ﴿فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلِّي﴾، أو بـ﴿قَآئِمٌ﴾، والجملة في محل النصب حال ثانية من مفعول النداء، أو خبر ثانٍ لـ﴿هو﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ جملة حالية من مفعول النداء، و﴿يُصَلِّي﴾ يحتمل أوجهاً:

أحدها: أن يكون خبراً ثانياً عند من يرىٰ تعدده مطلقاً نحو: زيد شاعر فقيه.

الثاني: أنه حال ثانية من مفعول النداء، وذلك أيضاً عند من يُجوِّز تعدد الحال.

الثالث: أنه حال من الضمير المستتر في ﴿قَآئِمٌ﴾؛ فيكون حالاً من حال.

الرابع: أن يكون صفة لـ﴿قَآئِمٌ﴾. «سمين»، انتهىٰ.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿إِنْ﴾: ـ بكسر الهمزة في قراءة الكسر ـ: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها. ﴿يُبَشِّرُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِيَحْيَىٰ﴾: متعلق بـ﴿يُبَشِّرُكَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

---

(١) الجمل.

﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: حال كون الملائكة قائلين له: إن الله يبشرك، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿يحيىٰ﴾، ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كلمة﴾، ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾: معطوفات علىٰ مصدقاً علىٰ كونها حالاً من ﴿يحيىٰ﴾ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نبياً﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ زكريا، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَاقِرٌ﴾: مقول محكي، وإنْ شئت قلتَ: ﴿رَبِّ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء جزء المقول، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: كيف، في محل النصب خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم عليه، ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿غُلَٰمٌ﴾: اسم ﴿يَكُونُ﴾، وجملة ﴿يَكُونُ﴾ في محل النصب مقول القول. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ يجوز في كان أن تكون هي الناقصة، وفي خبرها حينئذٍ وجهان:

أحدهما: أنىٰ؛ لأنها بمعنىٰ: كيف، أو بمعنىٰ: من أين، ولي علىٰ هذا تبيين.

والثاني: أن الخبر الجار، وأنىٰ: في محل النصب علىٰ الظرفية، ويجوز أن تكون تامة، فيكون الظرف والجار والمجرور كلاهما متعلقين بمحذوف علىٰ أنه حال من غلام؛ لأنه لو تأخر لكان صفةً له. انتهىٰ.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: الواو حالية ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: فعل ومفعول، ونون وقاية، وفاعل، والجملة في محل النصب حال من الياء في ﴿لِي﴾ ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: الواو حالية، ﴿وَٱمْرَأَتِي﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿عَاقِرٌ﴾ خبر، والجملة حال؛ إما من الياء في (لي) بناءً على جواز تعدد الحال، وإما من الياء في ﴿بَلَغَنِيَ﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ جبريل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ آخر الآية: مقول محكي، وإن شئتَ قلت:

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف منصوب بـ﴿يَفْعَلُ﴾ الآتي، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَفْعَلُ﴾ خبره، ﴿مَا يَشَآءُ﴾: مفعول ﴿يَفْعَلُ﴾، والتقدير: الله يفعل ما يشاء فعلاً كائناً كذلك، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾ والجملة مستأنفة ﴿رَبِّ﴾ منادىٰ مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: مقول محكي، وإنْ شئتَ قلت: ﴿ٱجْعَل﴾: فعل أمر بمعنىٰ صيِّر يتعدىٰ لمفعولين، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، ﴿ءَايَةً﴾: مفعول أول، ﴿لِّيٓ﴾: مفعول ثانٍ، كما ذكر أبو البقاء، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة مستأنفة. ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿ءَايَتُكَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه، ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿تُكَلِّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (أن) المصدرية، (أن) مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الخبرية تقديره: آيتك عدم تكليم الناس، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تُكَلِّمَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿رَمْزًا﴾: منصوب علىٰ الاستثناء، وهو منقطع؛ إذ الرمز لا يدخل تحت التكليم، ومن أطلق الكلام في اللغة علىٰ الإشارة الدالة على ما في نفس المشير، فلا يبعد أن يكون هذا استثناءً متصلاً علىٰ مذهبه.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

﴿وَٱذْكُر﴾ الواو عاطفة، ﴿اذكر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على

﴿زَكَرِيَّا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ الجملة الاسمية علىٰ كونها مقول القول، ﴿رَّبَّكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿كَثِيرًا﴾: صفة مصدر محذوف تقديره: ذكراً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ﴾ الواو عاطفة، ﴿سبح﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ زكريا، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿اذكر﴾. ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اذكر﴾، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: معطوف علىٰ ﴿العشي﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: من الصفوة أصله: اصتفىٰ من باب افتعل قلبت تاء الافتعال طاءً؛ لوقوعها إثر مُطْبَق.

﴿عَلَىٰ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ ضمنَّه معنىٰ فضل، فعداه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، ولو لم يضمنه معنىٰ فضل لعُدِّي بـ ﴿من﴾.

﴿ذُرِّيَّةً﴾: قيل: مشتق من الذرء، وهو الخلق، فعلىٰ هذا يطلق علىٰ الأصول حتىٰ على آدم، كما يطلق علىٰ الفروع، وقيل: منسوب إلىٰ الذَّرّ؛ لأن الله أخرجهم من ظهر آدم كالذَّرّ؛ أي: صغار النمل، ويكون هذا من النسب السماعي؛ إذ كان القياس فتح الذال.

﴿نَذَرْتُ لَكَ﴾: يقال نذر الشيء؛ إذا التزمه، والنذر لغةً الالتزام، وشرعاً: التزام قربة ليست لازمة في أصل الشرع. ﴿مُحَرَّرًا﴾: اسم مفعول من حَرَّر الرباعي معناه: عتيقاً من كل شغل من أشغال الدنيا، فهو مأخوذ من الحرية.

﴿أُعِيذُهَا﴾: مضارع عاذ بكذا إذا اعتصم به عوذاً وعياذاً ومعاذاً ومعاذةً، ومعناه: التجأ واعتصم، وقيل: اشتقاقه من العَوذ، وهو عوذ يلجأ إليه الحشيش في مهب الريح.

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: فقيل: من رجم إذا رمىٰ وقذف، ومنه: رجماً بالغيب؛ أي: رمياً به من غير تيقن، والرجيم: يحتمل أن يكون للمبالغة من فاعل؛ أي: أنه يرمي ويقذف بالشر والعصيان في قلب ابن آدم، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ:

مرجوم؛ أي: يرجم بالشهب أو يبعدْ ويطردْ.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾؛ أي: قبلها ورضيها مكان الذكر المنذور، فصيغة التفعل ليست هنا للتكلف ولا للمطاوعة، بل بمعنىٰ أصل الفعل؛ كتعجب من كذا بمعنىٰ: عجب وتبرأ من كذا بمعنىٰ برىء منه.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال الزجاج: الأصل؛ فتقبلها بتقبُّل حسن؛ لأن قبولاً مصدر لـ ﴿قبل﴾ الثلاثي، يقال: قبل الشيء قبولاً إذا رضيه، والقياس فيه: الضم، كالدخول والخروج، ولكنه جاء بالفتح، فالقبول هنا من المصادر التي حذفت زوائده؛ إذ لو جاء علىٰ تقبل لقيل: تقبلاً حسناً.

﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾: النبات اسم مصدر لأنبت الرباعي، فهو بمعنىٰ إنباتاً حسناً ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: الكفالة الضمان، يقال: كفل يكفل من بابي نصر وعلم، فهو كافل وكفيل، وهذا أصله، ثم يستعار للضم والقيام علىٰ الشيء ﴿زَكَرِيَّآ﴾: هو اسم أعجمي شبه بما فيه الألف الممدودة والألف المقصورة، فهو ممدود ومقصور، ولذلك يمتنع صرفه نكرة، وهاتان اللغتان فيه عند أهل الحجاز.

﴿يحيىٰ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهو المشهور عند المفسرين: أنه منقول من الفعل المضارع، وقد سموا بالأفعال كثيراً نحو: يعيش ويعمِّر، وعلىٰ هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل؛ كيزيد ويشكر وتغلب.

والثاني: أنه أعجمي لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر، فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة الشخصية، ويقال في جمعه علىٰ كِلا القولين: يحيون رفعاً، ويحين نصباً وجراً علىٰ حد قوله:

وَحْذِفْ مِنَ ٱلْمَقْصُوْرِ فِيْ جَمْعٍ عَلَىٰ   حَـدِّ ٱلْـمُـثَـنَّـىٰ مَـا بِـهِ تَـكَـمَّـلاَ

ويقال في تثنيته: يحييان رفعاً، ويحيين نصباً وجراً علىٰ حد قوله:

آخِـرَ مَـقْـصُـوْرٍ تُـثَـنِّ ٱجْـعَـلْـهُ يَـا   إِنْ كَـانَ عَـنْ ثَـلاَثَـةٍ مُـرْتَـقِـيَـا

ويقال في النسب إليه: يحيي بحذف الألف، ويحيوي بقلبها واواً،

ويحياوي بزيادة ألف قبل الواو المنقلبة عن الألف الأصلية علىٰ حد قوله:

وَإِنْ تَكُنْ تَرْبَعُ ذَا ثَانٍ سَكَنْ   فَقَلْبُهَا وَاواً وَحَذْفُهَا حَسَنْ

ويقال في تصغيره: يحيِّي بوزن فعيعل علىٰ حد قوله:

فُعَيْعِلٌ مَعَ فُعَيْعِيلَ لِمَا   فَاقَ كَجَعْلٍ دِرْهَمٍ دُرَيْهِمَا

﴿وَحَصُورًا﴾: الحصور: فعول محول عن فاعل للمبالغة؛ كضروب محول من ضارب، وهو الذي لا يأتي النساء، إما لطبعه علىٰ ذلك، وإما لمبالغة نفسه، وفي «القاموس»: الحصور: من لا يأتي النساء، وهو قادر علىٰ ذلك، والممنوع منهن، أو: من لا يشتهيهن ولا يقربهن.

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ﴾: والعاقر من لا يولد له، رجلاً كان أو امرأةً، مشتق من العقر، وهو: القطع، لقطعه النسل، وفي «المصباح»: عقرت الناقة عقراً من باب ضرب، وفي لغة من باب قرب، انقطع حملها فهي عاقر.

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ ـ بكسر الهمزة ـ مصدر لـ﴿أبكر﴾ الرباعي بمعنىٰ: بكر، ثم استعمل اسماً للوقت الذي هو البكرة، هكذا يؤخذ من «المختار»، وبفتح الهمزة جمع بَكَر بفتحتين بمعنىٰ البكرة.

البلاغة

وفي هذه الآيات أنواع من الفصاحة والبلاغة:

منها: العموم الذي يراد به الخصوص في قوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿مَا فِي بَطۡنِي﴾ لمَّا تعذر عليها الاطلاع علىٰ ما في بطنها.. أتت بلفظ ﴿مَا﴾ الذي يصدق علىٰ الذكر والأنثى والتأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ومنها: الخبر الذي يراد به الاعتذار في قولها: ﴿وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ في قراءة من سكَّن التاء أو كسرها.

ومنها: تلوين الخطاب ومعدوله في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ في قراءة من كسر التاء، خرج من خطاب الغيبة في قولها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ إلىٰ خطاب المواجهة في قوله: ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَإِنِّي﴾، ﴿وَإِنِّي﴾، وفي قوله: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ و﴿زَكَرِيَّآ﴾، وفي قوله: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الدلالة علىٰ الاستمرار والتجدد في قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾؛ حيث أتىٰ بخبر ﴿إني﴾ فعلاً مضارعاً دلالة على طلب استمرار الاستعاذة دون انقطاعها.

ومنها: الدلالة علىٰ الانقطاع، حيث أتىٰ بالخبرين فعلين ماضيين في قوله: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ﴾، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾.

ومنها: المجاز المرسل أو بالاستعارة في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ لأنه مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق ذكر الملزوم وإرادة اللازم، أو بطريق الاستعارة التصريحية التبعية؛ إذ الزارع لم يزل يتعهد زرعه بسقيه، وإزالة الآفات عنه.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾ وفي: ﴿رِزْقًا﴾ و﴿يَرْزُقُ﴾.

ومنها: التعظيم والتفخيم في قوله: ﴿رِزْقًا﴾؛ حيث أتىٰ به منكراً مشيراً إلىٰ أنه ليس من جنس واحد، بل من أجناس كثيرة؛ لأن النكرة تقتضي الشيوع والكثرة.

ومنها: الطباق بين كلمتي: ﴿العشي﴾ و﴿الإبكار﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا
كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ
قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن
فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ
جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي
بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ
وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ
اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

المناسبة

لما فرغ[١] الله سبحانه وتعالىٰ من قصة ولادة يحيىٰ بن زكريا من عجوز عاقر وشيخ كبير قد بلغ من الكبر عتياً، وكان قد استطرد من قصة مريم إليها.. رجع إلىٰ قصة مريم، وذكر فيها ما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر قصة ولادة عيسىٰ المسيح من غير أب، وهي شيء أعجب من الأول، وهكذا عادة أساليب العرب، متىٰ ذكروا شيئاً.. استطردوا منه إلىٰ غيره، ثم عادوا إلىٰ الأول إن كان لهم غرض في العود إليه، والغرض من ذكر هذه القصة تبرئة مريم عن ما رمتها به اليهود، والردُّ علىٰ النصارىٰ الذين ادعوا ألوهية عيسىٰ، فذكر ولادته من مريم البتول؛ ليدل علىٰ بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات؛ ليشير إلىٰ

---

(١) البحر المحيط.

رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله علىٰ أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ قالت الملائكة﴾؛ أي: جبريل ـ ومن معه من الملائكة؛ لأنه نقل أنه لا ينزل لأمر إلا ومعه جماعة من الملائكة ـ لمريم ابنة عمران مشافهة.

وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمرو شذوذاً: ﴿وإذ قال الملائكة﴾. ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ واختارك أولاً حيث قبلك من أمك، وقبل تحريرك، ولم يسبق ذلك لغيرك من الإناث، وربَّاك في حجر زكريا، ورزقك من الجنة، وقيل: بتفرغك لعبادته وتخصيصك بأنواع اللطف والهداية والعصمة والكفاية في أمر المعيشة، وسماع كلام جبريل شفاهاً ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من المعصية ومسيس الرجال، ومن الأفعال الذميمة، ومن مقالة اليهود وتهمتهم، وقيل: أنجاك من القتل، وقيل: من الحيض والنفاس، فكانت لا تحيض؛ أي: خلقك مطهرة مما للنساء ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾؛ أي: اختارك آخراً بولادة عيسىٰ من غير أب ونطفة حال انفصاله من مريم حتىٰ شهد ببراءتها عن التهمة. ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمَيْ زمانها، وقيل: علىٰ جميع نساء العالمين، والمعتمد[1] أن مريم أفضل النساء علىٰ الإطلاق، كما هو ظاهر الآية، وقد نظم بعضهم ترتيب الأفضلية بينها وبين غيرها فقال:

فُضْلَىٰ ٱلنِّسَا بِنْتُ عِمْرَانَ فَفَاطِمَهْ ... خَدِيْجَةٌ ثُمَّ مَنْ قَدْ بَرَّأَ ٱللَّهْ

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد». متفق عليه.

قال أبو كريب: وأشار وكيع إلىٰ السماء والأرض، قيل: أراد وكيع بهذه

---

(١) الجمل.

الإشارة تفسير الضمير في قوله: خير نسائها، ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والأرض، قال النووي: والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة علىٰ النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام». متفق عليه. وليس في هذا تصريح بتفضيلها علىٰ مريم وآسية؛ لاحتمال أن المراد تفضيلها علىٰ نساء هذه الأمة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ أي: قالت الملائكة لها شفاهاً يا مريم دومي علىٰ طاعة ربك بأنواع العبادات شكراً لذلك الاصطفاء، وقيل: أطيلي القيام في الصلاة شكراً لربك.

وروىٰ مجاهد(١): أنها لما خوطبت بهذا.. قامت حتىٰ ورمت قدماها، وقال الأوزاعي: قامت حتى سال الدم والقيح من قدميها، وروي أن الطير كانت تنزل علىٰ رأسها تظنها جماداً؛ لسكونها في طول قيامها. ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾؛ أي: ائتي بالسجود والركوع ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: مع المصلين، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ أي: صلي مع المصلين جماعة في بيت المقدس، فإنّ اقتداء النساء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء، وإنما قدم السجود(٢) علىٰ الركوع؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب إنما هي للجمع، كأنه قيل لها: افعلي الركوع والسجود، وقيل: إنما قدم السجود على الركوع؛ لأنه كان

(١) البحر المحيط.
(٢) أبو السعود.

كذلك في شريعتهم، أو لكون السجود أفضل الأركان، أو ليقترن ﴿اركعي﴾ بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وإنما قال: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الراكعات؛ لأن لفظ الراكعين أعم، فيدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الرجال أفضل وأتم كما مر آنفاً. وقيل: معناه افعلي كفعل الراكعين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خبر حنة ومريم وزكريا ويحيى ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: من أخبار ما غاب عنك يا محمد ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي: نلقي ذلك الغيب إليك يا محمد بواسطة جبريل الأمين، ونرسله إليك ليعلمكه، والمعنى: هذا الذي قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا من الأخبار التي لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك، ولم تقرأها في كتاب، ولا علمكها معلم، بل هي وحي نوحيه إليك على يد الروح الأمين؛ لتكون دلالة على صحة نبوتك، وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين.

والوحي في القرآن لأحد معانٍ أربعة[1]:

الأول: لكلام جبريل للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

والثاني: للإلهام، كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾.

والثالث: لإلقاء المعنى المراد في النفس، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

والرابع: للإشارة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

فالوحي: تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كناية أو غيرهما.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي: حاضراً عند الذين تنازعوا في تربية مريم ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾؛ أي: حين يرمون في نهر الأردن أقلامهم التي يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركاً بها؛ ليعلموا جواب ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾؛ أي: ليعلموا جواب استفهام؛ أي: أحدهم يربي مريم ويقوم بمصالحها.

---

(١) المراغي.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد شاهداً ﴿لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: حاضراً عند المتنازعين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: حين يتنازعون تنافساً في كفالتها؛ أي: وما كنت عندهم إذ يتقارعون علىٰ تربية مريم، وإذ يختصمون بسببها، فتخبر قومك عن مشاهدة. ولا كنت قارئاً فتخبرهم عن دراسة، فلزم كون ذلك بطريق الوحي الدال علىٰ نبوتك.

وذلك أن حنة لما ولدت مريم.. أتت بها سدنة بيت المقدس، وقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأحبار؛ لكونها بنت إمامهم ورئيسهم، أو لكونها حررت لعبادة الله وخدمة المسجد، فاقترعوا عليها، فخرجت القرعة لزكريا؛ أخذها ورباها كما سبق. قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها؛ لسعادتها، ولتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً.

وفي «الفتوحات الإلهية»[1]: واعلم أن هذا الكلام ونحوه كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ وإن كان معلوماً انتفاؤه جارٍ مجرىٰ التهكم بمنكر الوحي يعني: أنه إذا علم أنك لم تعاصر أولئك ولم تدارس أحداً في العلم.. فلم يبقَ اطلاعك عليه إلا من جهة الوحي. انتهىٰ.

واذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: جبريل لمريم وقرأ ابن مسعود وابن عمرو: ﴿إذ قال الملائكة﴾. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾: سبحانه وتعالىٰ ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: بولد مخلوق بكلمة واقعة من الله سبحانه وتعالىٰ، وهي كلمة: كن؛ أي: من غير واسطة الأسباب العادية، فإن غير عيسىٰ من كل مخلوق، وإن وجد بكلمة: كن، لكنه بواسطة أب، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ نعت لـ﴿كلمة﴾ و﴿من﴾ للابتداء؛ أي: كلمة كائنة من الله؛ أي: مبتدأة وناشئة منه تعالىٰ.

واعلم[2]: أن أول المبشر به قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾، وآخره قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ اعتراض في خلال المبشر به، فالمبشر به نحو خمسة عشر شيئاً: كونه ولداً، وكون اسمه كذا، وكونه وجيهاً،

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل.

وكونه من المقربين، وكونه يكلم الناس في المهد، وكونه من الصالحين، وكونه يعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكونه رسولاً إلىٰ بني إسرائيل، فهذا كله قاله لها الملك قبل وجود عيسىٰ. تأمل ﴿ٱسۡمُهُ﴾؛ أي: اسم ذلك الولد ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ قدم اللقب على الاسم لشهرته به، وإنما سُمي بالمسيح؛ لأنه يسيح في البلدان، أو لأنه ما مسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه، فهو فعيل بمعنىٰ: فاعل، أو لأنه ممسوح القدمين، فليس فيهما خمص، والأخمص ما تجافىٰ عن الأرض من باطن الرِّجْل، وكان عيسىٰ أمسح القدم لا خمص له، أو لمسحه بالبركة، أو لمسحه بالدهن الذي يمسح به الأنبياء حين خرج من بطن أمه، أو لمسح الجمال إياه، وهو ظهوره عليه، أو لمسحه من الأقذار التي تنال المولودين؛ لأن أمه كانت لا تحيض، ولم تدنس بدم نفاس، فعلىٰ هذه الأقوال، فهو فعيل بمعنىٰ: مفعول، وقال أبو عبيد: أصله بالعبرانية مشيخاً، فغير، فعلىٰ هذا يكون اسماً مرتجلاً ليس هو مشتقاً من المسح، ولا من السياحة، فمشيخا معناه: المبارك ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وعيسىٰ معرب: أيشوع، مشتق من العيس، وهو بياض يعلوه حمرة. فإن قلت: لِمَ قيل اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم، وهذه ثلاثة أشياء الاسم والكنية واللقب؟.

قلتُ: المراد اسمه الذي يتميز به عن غيره، وهو لا يتميز إلا بمجموع الثلاثة، وبهذا تعلم أن الخبر عن اسمه إنما هو مجموع الثلاثة من حيث المعنىٰ، لا كل واحد منها علىٰ حياله، فهذا على حد الرُّمان حلو حامض، وإنما نسبه الله تعالىٰ إلىٰ الأم إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته، وإنما لم يقل: ابنك كما هو الظاهر إشارةً إلىٰ أنه يكنىٰ بهذه الكنية المشتملة علىٰ الإضافة للظاهر. ﴿وَجِيهًا﴾ حال مقدرة من ﴿كلمة﴾، وكذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، وقوله: ﴿من الصالحين﴾ فهذه أربعة أحوال من ﴿كلمة﴾، والتذكير باعتبار معناها، وهي وإن كانت نكرة، لكنها موصوفة، أي: حالة كونه شريفاً رفيعاً ذا جاه وقدر. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنبوة وبإحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص بسبب دعائه. ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بجعله شفيع أمته، وبقبول شفاعته فيهم، وبعلو درجته عند الله تعالىٰ ﴿و﴾ حالة كونه كائناً

﴿من المقربين﴾ إلىٰ الله في جنة عدن، وهذا الوصف كالتنبيه علىٰ أن عيسىٰ سيرفع إلىٰ السماء، وتصاحبه الملائكة ﴿و﴾ حالة كونه ﴿يكلم الناس في﴾ زمن ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ والطفولة، وهو في حجر أمه إظهاراً لبراءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة علىٰ نبوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، كما سيأتي في سورة «مريم»، وبعد ما تكلم بهذا الكلام.. سكت ولم يتكلم حتىٰ بلغ أوان النطق عادة ﴿و﴾ يكلمهم حالة كونه ﴿كهلا﴾؛ أي: بالغاً كبيراً بكلام الأنبياء، والدعوة إلىٰ الله، فهو إشارة إلىٰ نبوته. وزمن الكهولة من الثلاثين سنة إلىٰ الأربعين، وفي وصفه بهذه الصفات المتغايرة إشارة إلىٰ أنه بمعزل عن الألوهية، ففيه ردٌّ علىٰ النصارىٰ، كأنه قال: لو كان إلهاً كما زعمتم.. ما اعتراه هذا التغير من كونه صبياً وكهلاً وغير ذلك.

﴿و﴾ حالة كونه كائناً ﴿من﴾ العباد ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومعدوداً منهم، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، الذين تعرف مريم سيرتهم؛ مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسىٰ، وغيرهم من الأنبياء.

وإنما ختم[1] أوصاف عيسىٰ عليه السلام بكونه من الصالحين، بعدما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمىٰ المرء صالحاً حتىٰ يكون مواظباً علىٰ النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه الله تعالىٰ بكونه وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً.. أردفه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ليكمل له أعلىٰ الدرجات وأشرف المقامات. ﴿قَالَتْ﴾ مريم لجبريل لما بشرها بالولد، وقيل: تقوله لله عزّ وجلّ. ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾؛ أي: يا سيدي من أين يكون لي ولد ﴿و﴾ الحال أني ﴿لم يمسسني بشر﴾؛ أي: لم يصبني رجل بالحلال ولا بالحرام؟؛ لأن المحررة لا تتزوج أبداً كالذكر المحرر.

أي قالت: كيف يكون لي ولد وليس لي زوج؟ وقد يكون مرادها: أيحدث

(١) الخازن.

ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك؟ وقد يكون قصدها: التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه. وفي «الفتوحات»: والاستفهام هنا استفهام حقيقي عن كيفية خلقه منها، هل يكون وهي بهذه الحالة عزباء، أو بعد أن تتزوج؟ فأجابها: بأنه يخلقه منها، وهي علىٰ هذه الحالة، كما يدل عليه قولنا الآتي من خلق ولدٍ منك بلا أب. انتهىٰ.

﴿قَالَ﴾ جبريل الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ أي: كما قلت لكِ من خلق ولد منك بلا أب ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ كيف شاء بسبب، وبلا سبب.

أو المعنىٰ[1]: مثل هذا الخلق العجيب، والإحداث البديع ـ وهو خلق الولد بغير أبٍ ـ يخلق الله ما يشاء، فالكاف صفة لمصدر محذوف علىٰ هذا المعنى.

فإن قلت[2]: لِمَ عبَّر هنا بالخلق، وفي قصة يحيىٰ بالفعل؟

قلت: لأن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير، فكأن الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل كما سبق.

أي: هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: إذا أراد خلق شيء من الكائنات ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الأمر ﴿كُن﴾ لا غير، أي: أحدث وأخرج من العدم ﴿فـ﴾ هو ﴿يكون﴾؛ أي: فذلك الأمر يوجد بسرعة من غير تباطؤ، فنفخ جبريل في جيب درعها، فوصل نَفَسه إلىٰ فرجها فدخل رحمها، فحملت منه، وفيه إشارة إلىٰ أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد.. يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك، وهذا تمثيل لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته وتصوير لسرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر علىٰ العمل مطيع يفعل ما يطلب منه

---

(١) المراغي.
(٢) الجمل.

علىٰ الفور.

وهذا الأمر يسمىٰ أمر تكوين، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف، يعرف بوحي الله لأنبيائه، والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب وقوفاً عند العادة، وذهولاً عن كيفية بدء العالم، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبىء بالاستحالة، وإنا نشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتاداً من قبل، بعضه له أسباب معروفة، فيسمونه: استكشافاً أو اختراعاً، وبعضه ليس بمعروف له سببٌ، ويسمونه: فلتات الطبيعة.

والمؤمنون يقولون: إن مثل هذا الذي جاء علىٰ غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدي العاقل إلىٰ أن الأسباب ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً.

وإن أبناء الجيل الحاضر الذين رأوا من الغرائب ما لو رآه السابقون.. لعدوه سحراً، أو خرافة، أو أضافوه إلىٰ الجن، ليس لهم عذر في إنكار الأشياء التي لم يعرفوا لها أسباباً، وقد قرر فلاسفة العصر إمكان توالد الحيوان من غير حيوان، إذاً فتوالد الحيوان من حيوان واحد أقربُ إلىٰ العقول، وأدنى إلىٰ الإمكان.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قرأ نافع وعاصم: ﴿يعلمه﴾ بالياء ويكون معطوفاً على الحال، أعني: قوله: وجيهاً، فكأن جبريل قال: حالة كونه وجيهاً ومعلماً الكتاب، وما بعده بفتح اللام، أو علىٰ: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿ونعلمه﴾ ـ بالنون ـ فيكون معمولاً لقول محذوف من كلام الملك تقديره: ويقول الله نعلمه إلخ، ويكون في المعنىٰ معطوفاً علىٰ الحال أيضاً تقديره: وجيهاً ومقولاً فيه نعلمه، أو علىٰ ﴿يُبَشِّرُكِ﴾؛ أي: إن الله يبشرك بعيسى، ويقول: نعلمه الكتاب، ويصح كونه مستأنفاً سيق تطييباً لقلبها، وإزاحة لما أَهَمَّها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير زوج.

أي: ويعلمه الكتاب؛ أي: الكتابة والخط باليد، وكان أحسن الناس خطاً في زمانه، وقيل: يعلمه كتب الأنبياء ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: العلم المقترن بالعمل، وتهذيب الأخلاق ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ التي أنزلت علىٰ موسىٰ ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي أنزل عليه،

وإنما أفردهما بالذكر علىٰ تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة؛ لزيادة فضلهما علىٰ غيرهما، فكان يحفظهما علىٰ ظهر قلبه.

وهذا إخبار من الله تعالىٰ لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به، من الكرامة وعلو المنزلة. ﴿و﴾ حالة كونه ﴿رسولاً إلى بني إسرائيل﴾ كلهم، وتخصيص[1] بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد علىٰ من زعم أنه مبعوث إلىٰ غيرهم.

وقرأ اليزيدي شذوذاً: ﴿ورسولٍ﴾ - بالجر - وخرجه الزمخشري علىٰ أنه معطوف علىٰ قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وهي قراءة شاذة في القياس؛ لطول البعد بين المعطوف والمعطوف عليه.

والمعتمد عند الجمهور[2]: أن عيسىٰ إنما نبىء علىٰ رأس الأربعين، وأنه عاش في الأرض قبل رفعه مئة وعشرين سنة، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل كما أن أولهم يوسف بن يعقوب، وسيأتي بسط ذلك عند قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ - بفتح الهمزة - علىٰ قراءة الجمهور، فيكون مجروراً بباء الملابسة المقدرة المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر؛ لما فيه من معنىٰ النطق، والتقدير: فلما جاءهم.. قال: إني رسول الله إليكم حالة كوني ملتبساً بمجيئي إياكم بآية وعلامة تدل علىٰ صدق رسالتي، وتلك الآية: أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير إلخ، وهذا التقدير أحسن[3]؛ لأن قصة البشارة قد تمت، وهذا شروع في قصة ما وقع له بعد وجوده في الخارج.

وقرىء بكسر همزة ﴿إني﴾ وهي شاذة، فيكون مفعولاً لقول محذوف تقديره: فلما جاءهم.. قال لهم: إني قد جئتكم بآية. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بعلامة دالة علىٰ صدقي كائنة من ربكم، وإنما قال: ﴿بِآيَةٍ﴾، وقد جاء بآيات

---

(١) البيضاوي.

(٢) الجمل والمراح.

(٣) الجمل.

كثيرة؛ لأن الكل دال علىٰ شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة. قرأ الجمهور: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ بالإفراد، وفي مصحف عبد الله شذوذاً: (بآيات) بالجمع في الموضعين، فلما قال ذلك عيسى لبني إسرائيل.. قالوا: ما تلك الآية؟ قال هي ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ وأصور وأقدر ﴿لَكُم﴾؛ أي: لأجل هدايتكم وتصديقكم بي ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾؛ أي: من التراب الرطب ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾؛ أي: شيئاً مثل صورة الطير.

قرأ الجمهور: ﴿أَنِّيٓ﴾ ـ بفتح الهمزة ـ علىٰ كونه خبر مبتدأ محذوف كما قدرنا، أو علىٰ كونه بدلاً من آية، فيكون في محل جر. وقرأ نافع ﴿إني﴾ بالكسر علىٰ الاستئناف، أو علىٰ إضمار القول. وقرأ الجمهور ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾ بفتحتين بينهما ياء ساكنة. وقرأ الزهري شذوذاً: (كهِيَّة) بكسر الهاء وياء مشددة مفتوحة بعدها تاء التأنيث. وقرأ الجمهور: ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع في المتواتر: ﴿كهيَّة الطائر﴾.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾؛ أي: في فم ذلك الشيء المماثل للطير، فالضمير للكاف. وقرأ بعض القراء شذوذاً؛ (فأنفخ فيها) بالتأنيث كما هو كذلك في المائدة، فالضمير للهيئة. ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فيصير ذلك المماثل الذي أنفخ فيه ﴿طَيۡرَۢا﴾ حياً يطير بين السماء والأرض ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: بأمر الله وتكوينه وتخليقه، وفيه إشارة إلىٰ أن إحياءَه من الله تعالىٰ، لا منه، وهذه هي المعجزة الأولىٰ. وقرأ نافع ويعقوب هنا وفي المائدة: ﴿طائراً﴾، وقرأ الباقون: ﴿طيرا﴾.

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخَفَّاش، وإنما طالبوه بخلق الخفاش؛ لأنه أكمل الطير خلقاً، وأبلغ دلالة على القدرة؛ لأن له ناباً وأسناناً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويطير بغير ريش، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرىٰ في ساعتين: ساعة بعد المغرب، وساعة بعد طلوع الفجر، والأنثىٰ منه لها ثدي وتحيض وتطهر وتلد.

وخلاصة الكلام: أن من علامات نبوتي ـ إن كنتم فيه تمترون ـ أني أقتطع من الطين جزءاً مصوراً بصورة طير من الطيور التي تريدون، ثم أنفخ فيه، فيصير

طيراً حياً يحلق في جو السماء، كما تفعل بقية الطيور.

وقد روي أنه عليه السلام لما أعلن النبوة، وأظهر المعجزات.. طالبوه بخلق خَفَّاش، فأخذ طيناً، وصوره، ونفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم.. سقط ميتاً؛ ليتميز عن خلق الله تعالىٰ.

وقد جرت سنّة الله أن تجرى الآيات علىٰ أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها، وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك.. فقد فعل، ولا حاجة بنا إلىٰ تعيين نوع الطير؛ إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنّة يعينه، فنقف حينئذٍ عند لفظ الآية.

فلما صور لهم خفاشاً.. قالوا: هذا سحر، فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾؛ أي: وأشفي الذي ولد أعمىٰ، أو الممسوح العينين، وأصححه من عماه ﴿و﴾ أشفي ﴿الأبرص﴾ وأصححه من مرضه؛ وهو الذي في جلده بياض شديد، وهذه هي المعجزة الثانية، ولم يقل في هذه المعجزة، وفي المعجزة الرابعة: بإذن الله؛ لأنهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة إلىٰ الآخرين، فتوهم الألوهية فيهما بعيد، فلا يحتاج للتنبيه علىٰ نفيه خصوصاً وكان فيهم أطباء كثيرون، وإنما خُصَّا بالذكر؛ لأن مداواتهما أعيت الأطباء، وقد كان الطب متقدماً جداً في زمن عيسىٰ، فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس، وقد جرت السنّة الإلهية أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر في زمنه؛ فأعطى موسىٰ العصا، وابتلعت ما كانوا يأفكون؛ لأن المصريين في ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر؛ وأعطى عيسىٰ من المعجزات ما هو من جنس الطب الذي حذقه أطباء عصره؛ وأعطى محمداً ﷺ معجزة القرآن؛ لأن التفاخر في ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان.

فلما فعل ذلك قالوا: هذا سحر، فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وأحيي بعض الأموات بإرادة الله ودعائه، وكان يدعو لإحيائهم باسم الله الأعظم، وهو يا حي يا قيوم، وهذه هي المعجزة الثالثة.

وإنما كرر[1]: بإذن الله هنا وفيما مرَّ؛ لنفي توهم الألوهية في عيسىٰ، فهو ردٌّ علىٰ النصارىٰ؛ لأن الإحياء والخلق ليس من جنس الأفعال البشرية، وأما إبراء الأكمه والأبرص، فهو من جنس أفعالهم، فلذا لم يذكر بإذن الله بعده، وذكر في المائدة أربعاً بلفظ: إذني؛ لأنه هنا من كلام عيسىٰ، وثم من كلام الله تعالىٰ، وأتىٰ بهذه الأربع بلفظ المضارع دلالة على تجدد ذلك كل وقت طلب منه.

روي أنه أحيا أربعة أنفس: أحيا عازَر بوزن هاجر بعد موته بثلاثة أيام حتىٰ عاش، وولد له، وأحيا ابن العجوز وهو ميت محمول علىٰ السرير، فنزل عن سريره حياً، ورجع إلىٰ أهله، وعاش وولد له، وأحيا بنت العاشر؛ أي: الذي يأخذ العشور من الناس بعد يوم من موتها، فعاشت، وولد لها، فقالوا لعيسىٰ: إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت، فلعلهم لم يموتوا حقيقة، بل أصابهم سكتة، فأحي لنا سام بن نوح، وهو قد مضىٰ من موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقام علىٰ قبره، فدعا الله باسمه الأعظم، فقام من قبره، وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله، ومات في الحال، فآمن به بعضهم، وكذبه آخرون، فقالوا: هذا سحر فهل عندك غيره؟ قال: نعم. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي؛ وأخبركم بما تطعمون وتشربون غدوة وعشية ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: وأخبركم ما ترفعون وتخبئون في بيوتكم من غداء لعشاء، ومن عشاء لغداء لتأكلوه فيما بعد ذلك. قيل: كان عيسىٰ عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة، وبما يأكله اليوم، وبما يدخره للعشاء، وقال قتادة: إنما كان هذا في نزول المائدة، وكان خواناً ينزل عليهم أينما كانوا، فيه من طعام الجنة، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغدٍ، فخانوا وادخروا، فكان عيسىٰ عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة، وما ادخروا منها، فمسخهم الله خنازير، وهذه هي المعجزة الرابعة، وفي هذا دليل قاطع علىٰ صحة نبوة عيسىٰ عليه السلام، ومعجزة عظيمة له، وهي: إخباره عن المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات من: إبراء الأكمه

---

(١) الجمل.

والأبرص، وإحياء الموتىٰ بإذن الله تعالىٰ، وإخباره عن الغيوب بإعلام الله إياه ذلك، وهذا مما لا سبيل لأحد من البشر إليه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي قلته لكم من خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ، والإخبار عن المغيبات ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لمعجزة قوية دالة علىٰ صحة رسالتي دلالة واضحة ﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ومصدقين للحق غير معاندين انتفعتم بهذه الآيات. وقرأ الجمهور: ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ بدال مشددة. وقرأ مجاهد والزهري وأيوب السختياني: ﴿تذخرون﴾ بذال ساكنة وخاء مفتوحة. وقرأ أبو شعيب السوسي: ﴿وما تذدخرون﴾ بذال ساكنة ودال مفتوحة من غير إدغام، وهذا الفك جائز، وقراءة الجمهور بالإدغام أجود، وما عداه شاذ.

وتقدم أن في مصحف عبد الله بن مسعود: ﴿لآيات﴾ بالجمع، فمن أفرد أراد الجنس، وهو صالح للقليل والكثير. ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف ومصدقاً علىٰ قوله: بآية؛ إذ الباء فيه للحال، ولا تكون للتعدية؛ لفساد المعنىٰ، فالمعنىٰ: وجئتكم مصحوباً بآية من ربكم، ومصدقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ أي: لما قبلي ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ومؤيداً لها، ومعنى تصديقه للتوراة: الإيمان بها وإن كانت شريعته تخالفها في أشياء، وبين موسىٰ وعيسىٰ ألف سنة وتسع مئة سنة وخمس وسبعون سنة.

والخلاصة: أي وجئتكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، لا ناسخاً لها، ولا مخالفاً شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل مما كان مشدداً عليهم فيها، وهو الذي ذكره بقوله ﴿و﴾ جئتكم ﴿لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾؛ أي: ولأحل لكم بعض الطيبات التي حرمت عليكم في شريعة موسىٰ بسبب ظلمكم، وكثرة سؤالكم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ من الشحوم والشروب، وهي شحم الكرش والأمعاء رقيق للبقر والغنم ولحوم الإبل، ومما لا صيصية له؛ أي: شوكة يؤذي بها من السمك والطير، ومن العمل في يوم السبت، وهذا لا يقدح في كونه مصدقاً للتوراة؛ لأن النسخ تخصيص في الأزمان.

قرأ الجمهور: ﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بالبناء للمفعول مع التشديد، وقرأ عكرمة شذوذاً: (حَرّم عليكم) بالتشديد مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود على ﴿ما﴾ في قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أو يعود على الله منزل التوراة، أو على موسىٰ صاحب التوراة، والظاهر الأول؛ لأنه مذكور، وقرأ إبراهيم النخعي شذوذاً أيضاً: (حَرُم) بوزن: كَرُم. ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: وقد جئتكم بآية بعد آية من ربكم دالة على صدق مقالتي، وشاهدة على صحة رسالتي مما ذكرت لكم: من خلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، والإحياء والإنباء بالمغيبات إلىٰ نحو ذلك[1]، وقرىء شذوذاً: ﴿بآيات﴾ بلفظ الجمع، وكرر هذا ليرتب عليه الأمر الذي ذكره بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله يا بني إسرائيل في عدم قبولها ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: امتثلوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه عن الله تعالىٰ، ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد، والاعتراف بالعبودية، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: خالقي وخالقكم، ومالكي ومالككم، وتكرار: ﴿رَبِّي﴾ ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أبلغ في التزام العبودية من قوله: ربنا، وأدل على التبري من الربوبية، وأقر بالعبودية لئلا يتقولوا عليه الباطل، فيقولوا: إنه إله وابن إله؛ لأن إقراره بالعبودية لله يمنعُ مما تدعيه جهال النصارىٰ عليه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: وحدوه ولازموا طاعته التي هي الإتيان بالأوامر، والانتهاء عن المناهي ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الجمع بين التوحيد والعبادة ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: دين قويم يرضاه الله تعالىٰ، وهو الإسلام الموصل إلىٰ خيري الدنيا والآخرة.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: الواو استئنافية ﴿إذ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان. ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾،

---

(١) قوله إلى نحو ذلك: كولادتي من غير أب، وكلامي في المهد ا هـ.

والظرف متعلق بمحذوف تقديره: واذكر وقت قول الملائكة لمريم، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿مريم﴾ منادى مفرد علم، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول (قال)، وجملة قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ الثاني. ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: منادىٰ مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿ٱقْنُتِى﴾: فعل وفاعل ﴿لِرَبِّكِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱقْنُتِى﴾، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَٱسْجُدِى﴾: فعل وفاعل، وكذا قوله: ﴿وَٱرْكَعِى﴾، والجملتان في محل النصب معطوفتان علىٰ جملة ﴿ٱقْنُتِى﴾. ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿اركعي﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿نُوحِيهِ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة[1] الفعلية مستأنفة، والضمير في ﴿نُوحِيهِ﴾ عائد علىٰ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: الأمر والشأن أنا نوحي إليك الغيب، ونعلمك به، ونظهرك علىٰ قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم و الأخبار ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾: الواو استئنافية ﴿ما﴾:

---

(١) الجمل.

نافية ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص، واسمه. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بخبر ﴿كان﴾، والجملة مستأنفة. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضىٰ. ﴿يُلْقُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ مفعول ومضاف إليه، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بـ﴿كان﴾، أو بالاستقرار الذي وقع خبراً لـ﴿كان﴾، والتقدير: وما كنت لديهم وقت إلقائهم أقلامهم. ﴿أَيُّهُمْ﴾ اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿يَكْفُلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿أي﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ تقديره: أيهم كافل مريم، والجملة الاسمية في محل النصب معمول لمحذوف، ولكنه علىٰ تقدير مضاف تقديره: إذ يلقون أقلامهم ليعلموا جواب أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ إعرابه مثل إعراب قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ، ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد قصة وقت قول الملائكة ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَتِ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ منادىٰ مفرد العلم، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: حرف نصب، واسمها ﴿يُبَشِّرُكِ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كلمة﴾. ﴿ٱسْمُهُ﴾: مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ خبره ﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطف بيان. ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل ثانٍ، أو عطف، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿كلمة﴾، والرابط ضمير اسمه، وقال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون ﴿عِيسَى﴾ خبراً آخر؛ لأن تعدد الأخبار يوجب تعدد المبتدأ، والمبتدأ هنا مفرد، وهو قوله: ﴿ٱسْمُهُ﴾، ولو كان ﴿عِيسَى﴾ خبراً آخر لكان التقدير: أسماؤه، وأجاز أيضاً أن يكون ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ خبر

مبتدأ محذوف؛ أي: هو ابن مريم ﴿وَجِيهًا﴾: حال من ﴿كلمة﴾، والتذكير باعتبار معناها؛ لأنها بمعنىٰ: مولود، وجاز مجيء الحال منها مع كونها نكرة لوصفها بالجار والمجرور بعدها ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَجِيهًا﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونه حالاً من ﴿كلمة﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ﴾ الواو عاطفة ﴿يكلم الناس﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿كلمة﴾؛ لأنها بمعنىٰ: مولود ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾: متعلق بـ﴿يكلم﴾، أو حال من الضمير في ﴿يكلم﴾؛ أي: يكلمهم صغيراً. ﴿وَكَهْلًا﴾: يجوز أن يكون حالاً معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾، وأن يكون معطوفاً علىٰ موضع ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ إذا جعلناه حالاً، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونها حالاً من ﴿كلمة﴾. ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جار ومجرور، ومعطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونه حالاً من ﴿كلمة﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿قَالَتِ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مريم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿بَشَرٌ﴾: مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنىٰ: من أين في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بـ﴿يَكُونُ﴾. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص ﴿لِي﴾: جار ومجرور خبرها، ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾، وتقدم مثل هذا الكلام في قصة زكريا، فراجعه ﴿وَلَمْ﴾: الواو حالية ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ونون وقاية، والجملة في محل النصب حال من ياء المتكلم في قوله: ﴿لِي﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ جبريل، والجملة مستأنفة ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكيٌّ، وإن شئت قلتَ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر كذلك،

والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَخْلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَخْلُقُ﴾ ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يشاؤه.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنىٰ الشرط ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة في محل الخفض فعل شرط لإذا، والعامل[1] في ﴿إِذَا﴾ محذوف يدل عليه الجواب من قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾، والتقدير: إذا قضىٰ أمراً.. يكون ويحصل، فلفظ: يكون المقدر، هو العامل في ﴿إِذَا﴾ ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ جوازاً، ﴿إنما﴾: أداة حصر. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ الله ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية دالة علىٰ جواب ﴿إِذَا﴾ ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿يَقُولُ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿كُن﴾: فعل أمر بمعنىٰ: أُحدث من كان التامة، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿أَمْرًا﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾: الفاء عاطفة ﴿يكون﴾: فعل مضارع بمعنىٰ يحصل من كان التامة، وفاعله ضمير يعود علىٰ أمراً، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يَقُولُ﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول ﴿قال﴾. وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ الجمهور[2] علىٰ رفعه فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون مستأنفاً؛ أي: خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو يكون، ويعزىٰ لسيبويه.

---

(١) الجمل جـ ١ ص ٩٩.

(٢) الجمل جـ ١ ص ٩٩ .

الثاني: أن يكون معطوفاً علىٰ ﴿كُن﴾ من حيث المعنىٰ، وهو قول الفارسي، وقرأ ابن عامر بالنصب هنا، وفي البقرة. انتهىٰ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ الواو عاطفة ﴿يعلمه﴾: فعل مضارع ومفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ علىٰ كونها حالاً من ﴿كلمة﴾ علىٰ قراءة الياء، وأما علىٰ قراءة النون، فالجملة مستأنفة. وقال أبو البقاء[1]: ﴿ونعلمه﴾ يقرأ بالنون حملاً علىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ويقرأ بالياء حملاً علىٰ ﴿يُبَشِّرُكِ﴾، وموضعه حال معطوفة علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾ انتهىٰ. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوفات علىٰ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَرَسُولًا﴾: حال معطوف علىٰ ﴿وَجِيهًا﴾. ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿رسولاً﴾؛ لأنه بمعنىٰ مرسلاً. ﴿أَنِّى﴾: أن: حرف نصب ومصدر، والياء اسمها ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، أو في موضع الحال؛ أي: محتجاً بآية، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلق بمحذوف صفة لآية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (أن)، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بباء الملابسة المقدرة، المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر تقديره: فلما جاءهم.. قال: إني رسول الله إليكم حالة كوني ملتبساً بمجيئي إياكم بآية من ربكم، وعلى قراءة الكسر: تكون مقولاً لقول محذوف تقديره: فلما جاءهم.. قال لهم: إني قد جئتكم بآية من ربكم، كما مرت الإشارة إلىٰ ذلك كله في مقام التفسير وأوجه القراءة.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

---

(١) العكبري.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها، ﴿أَخۡلُقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ ﴿لَكُم﴾: متعلق به، وكذا ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مرفوع علىٰ الخبرية لمبتدأ محذوف تقديره: وهي؛ أي: تلك الآية خلقي لكم من الطين، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانا. وقال أبو البقاء[1]: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾ يقرأ بفتح الهمزة، وفي موضعه حينئذٍ ثلاثة أوجه:

أحدها: الجر بدلاً من ﴿آية﴾.

والثاني: الرفع؛ أي: هي أني.

والثالث: أن يكون بدلاً من ﴿أَنِّيٓ﴾ الأولىٰ. ويقرأ بكسر الهمزة علىٰ الاستئناف، أو على إضمار القول. انتهىٰ. ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمحذوف تقديره: أني أخلق لكم من الطين هيئةً كائنة كهيئة الطير؛ أي: صورة كصورة الطير.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿فَأَنفُخُ﴾: الفاء عاطفة ﴿أنفخ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ. ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخۡلُقُ﴾. ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾: الفاء عاطفة ﴿يكون﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ الشيء المصوَّر ﴿طَيۡرَۢا﴾ خبرها، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أنفخ﴾. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يكون﴾. ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾: فعل ومفعول. ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسى، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخۡلُقُ﴾ ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: فعل ومفعول. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾: متعلق به، وفاعله

---

(١) العكبري.

ضمير يعود علىٰ عيسىٰ، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْلُقُ﴾.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسى. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور في موضع المفعول الثاني. ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تأكلونه، وجملة ﴿أنبئكم﴾ في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: معطوف علىٰ قوله: ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾. ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَدَّخِرُونَ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لإنَّ ﴿لَآيَةً﴾: اسمها مؤخر، واللام فيه لام الابتداء، ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لآية﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ محذوف تقديره: انتفعتم بهذه الآيات، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ الواو عاطفة ﴿مصدقاً﴾: حال معطوفة علىٰ قوله: ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: وجئتكم حال كوني محتجاً بآية من ربكم، وحالة كوني مصدقاً لما بين يدي ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مصدقاً﴾ ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف؛ إما صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: جار ومجرور في موضع نصب[1] علىٰ الحال من الضمير المستتر في الظرف، وهو ﴿بَيْنَ﴾، والعامل فيها الاستقرار، أو نفس الظرف، ويجوز أن يكون حالاً

(١) العكبري.

من ﴿ما﴾، فيكون العامل فيه ﴿مصدقاً﴾. ﴿وَلِأُحِلَّ﴾: الواو عاطفة. ﴿لأحل﴾: اللام حرف جر وتعليل، (أحل): فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود علىٰ عيسىٰ. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿بَعْضَ﴾: مفعول به وهو مضاف ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه، ﴿حُرِّمَ﴾ ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائبه ضمير يعود علىٰ الموصول ﴿عَلَيْكُمْۚ﴾: متعلق بـ﴿حُرِّمَ﴾، وجملة حُرِّم صلة الموصول، وجملة ﴿أحل﴾ صلة إن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وجئتكم لإحلالي لكم بعض الذي حرم عليكم، وهذا المحذوف معطوف في المعنىٰ علىٰ قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿جئتكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله السابق؛ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فهذه مؤكدة للسابقة لاتحادهما لفظاً ومعنًىٰ. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق بمحذوف حال من تاء الفاعل تقديره: وجئتكم حالة كوني ملتبساً بآية، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مجيئي لكم بآية من ربكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: اتقوا الله. ﴿اتقوا﴾: فعل وفاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: الواو عاطفة ﴿أطيعون﴾: فعل وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة للفاصلة، أو استغناء عنها بكسر نون الوقاية، في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة ﴿اللَّه﴾ اسمها. ﴿رَبِّى﴾: خبرها ومضاف إليه، وكذلك قوله: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾. مستأنفة ﴿فَٱعْبُدُوهُۗ﴾: الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم كون معبودي ومعبودكم واحداً، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول

لكم فاعبدوه. (اعبدوه): فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿صِرَٰطٌ﴾: خبره ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: صفة لـ﴿صِرَٰطٌ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالعبادة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهام، وهو اسم مصدر لأنبأ ينبىء إنباءً إذا أخبر بالخبر الذي يعتنىٰ به. ﴿نُوحِيهِ﴾: الوحي: إلقاء المعنىٰ في النفس في خفاء، فقد يكون بالمَلَك للرسل، وبالإلهام كما في النحل، والإشارة كما في زكريا وهو في المحراب، وهو اسم مصدر لأوحىٰ يوحي إيحاءً ووحياً إذا ألهم وأعلم.

﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾: جمع قلم، والقلم معروف، وهو الذي يكتب به، ويُطلق علىٰ السهم يقترع به، وهو فعل بمعنىٰ مفعول؛ لأنه يقلم، أي: يبرى ويسوى، وقيل: هو مشتق من القلامة، وهي نبت ضعيف لترقيقه.

﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: المهد: ما يمهد للصبي ويوطأ له لينام فيه، والكلام علىٰ حذف المضاف؛ أي: في زمان المهد.

﴿وَكَهْلًا﴾: الكهل: اسم من اكتهل النبات إذا قوي وعلا، ومنه: الكاهل، وقال ابن فارس: اكتهل الرجل إذا خطه الشيب، من قولهم: اكتهلت الروضة إذا عمها النور، ويقال للرجل: كهل، وللمرأة: كهلة، والكهل: هو الذي بلغ سن الكهولة، وآخرها ستون، وقيل: خمسون، وقيل: اثنان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة، واختلف في أول سن الكهولة، فقيل: ثلاثون، وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: أربعون عاماً.

فائدة: ونقل عن[1] الأئمة في ترتيب سن المولود وتنقل أحواله، أنه في

---

(١) البحر المحيط.

الرحم جنين، فإذا ولد فوليد، فإذا لم يستتم الأسبوع فصديع، وإذا دام يرضع فرضيع، وإذا فطم ففطيم، وإذا لم يرضع فجحوش، فإذا دبَّ ونما فدارج، فإذا سقطت رواضعه فمثغور، فإذا نبتت بعد السقوط فمتغر بالتاء والثاء، فإذا كان يجاوز العشر فمترعرع وناشىء، فإذا كان يبلغ الحلم فيافع ومراهق، فإذا احتلم فمحزور، وهو في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخضر شاربه وسال عذاره فباقل، فإذا صار ذاقناً ففتىٰ وشارخ، فإذا أكملت لحيته فمجتمع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم هو كهل إلىٰ أن يستوفي الستين. هذا هو المشهور عند أهل اللغة.

﴿ٱلطِّينِ﴾: معروف، يقال: طانه الله علىٰ كذا وطامه بإبدال النون ميماً، إذا جبله وخلقه علىٰ كذا، ومطينٌ لقبٌ لمحدِّث معروف.

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾: الهيئة: الشَّكْل والصورة، وأصله مصدر، يقال: هاء الشيء يهاء ـ من باب هاب ـ هيئاً وهيئةً إذا ترتب واستقر علىٰ حال ما، وتعدِّيه بالتضعيف، فتقول: هيَّأته. قال تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾.

﴿ٱلطَّيْرِ﴾: اسم جمع والطائر مفرده.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾: الإبراء: إزالة العلَّة والمرض، وفي «المصباح» برأ من المرض يبرأ من بابي نفع وتعب، وبروء برءاً من باب: قرب لغة فيه، وفيه أيضاً: كمه كمهاً من باب تعب فهو أكمه، والمرأة كمهاء مثل أحمر وحمراء، وهو العمىٰ يولد عليه الإنسان، وربما كان عارضاً.

وفيه أيضاً: برص الجسم من باب تعب فالذكر أبرص، والأنثىٰ برصاء، والجمع برص مثل: أحمر وحمراء وحمر، وفي «السمين»: والبرص: داء معروف، وهو بياض يظهر علىٰ الجلد، ولم تكن العرب تنفر من شيء نُفْرتَها منه.

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: يقال: ذخر الشيء يذخره إذا خبأه، والذُّخر: المذخور،

ويقال؛ إذ تخر من الذخر، أبدلت التاء دالاً، فصار: إذ دخر، ثم أدغمت الذال في الدال فقيل: ادّخر كما قيل: ادّكر في: اذدكر، فأصل تدخرون: تذدخرون؛ لأنه من باب افتعل كما مر في مقام التفسير.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة:

منها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا أريد بالملائكة جبريل، فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له، فهو مجاز مرسل علاقته العموم.

ومنها: التكرار المسمىٰ بالإطناب في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، وفي ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾.

ومنها: التقديم والتأخير في ﴿وَٱسْجُدِى﴾ ﴿وَٱرْكَعِى﴾ علىٰ بعض الأقوال.

وقال «أبو السعود»[1]: وتكرير النداء في قوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى﴾ للإيذان بأن المقصود بهذا الخطاب ما يرد بعده، وأن الخطاب الأول من تذكير النعمة تمهيداً لهذا التكليف وترغيباً في العمل به. انتهىٰ. وقال أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ﴾ لا يخفىٰ ما فيه من التهكم؛ إذ هو تقرير لكون ما ذكر وحياً علىٰ طريقة التهكم بمنكريه، فإن طريق هذه الأمور الغريبة؛ إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمه محقق عندهم، فبقي احتمال المعاينة المستحيلة باعترافهم، فنفيت تهكماً بهم. انتهىٰ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: التكرير فيه مع تحقيق المقصود بعطف ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ علىٰ؛ ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره إلقاء الأقلام، وعدم حضوره عند الاختصام، مستقل بالشهادة علىٰ بنوته.

---

(١) الجمل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ لأنه سمىٰ الولد كلمة؛ لوجوده بكلمة: كن، فهو من باب إطلاق السبب علىٰ المسبَّب.

ومنها: العموم[1] الذي أريد به الخصوص في قوله: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة عند من قال: القنوت والسجود والركوع ليس كناية عن الهيئات التي في الصلاة.

ومنها: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ إذا قلنا: إنه أراد القداح؛ أي: السهام.

ومنها: إسناد الفعل للآمر به لا لفاعله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾؛ إذ هم المشافهون بالبشارة، والله الآمر بها، ومثله: نادىٰ السلطان في البلد بكذا.

ومنها: الاحتراس في قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ من ما جرت به العادة أن من تكلم في حال الطفولة.. لا يعيش.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ كنَّت بالمس عن الوطء، ما كني عنه بالحدث واللباس والمباشرة.

ومنها: السؤال والجواب في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وفي قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ وفي قوله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ وفي قوله: ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، ﴿ما﴾ وفي قوله: ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا﴾.

ومنها: التعبير عن الجمع بالمفرد في الآية: ﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، وفي قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿لأحل﴾ و﴿حُرِّمَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿ونعلمه﴾ عند من قرأ بالنون.

ومنها: التفسير بعد الإبهام فيمن قال: الكتاب مبهم غير مُبين، والتوراة والإنجيل تفسير له.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ
فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ
يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ
عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

المناسبة

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قبل هذه بشارة الملائكة لمريم بعيسىٰ عليه السلام، وكلامه الناس في المهد، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة، وإرساله رسولاً إلىٰ بني إسرائيل، وذكر براءة أمه التي تقدم ذكرها.. ذكر هنا خبره مع قومه، وما لاقاه منهم من الصد والإعراض، ومقاساة الأهوال، وهمهم بقتله، وإنجاء الله إياه، ووعيد الكافرين به، وعذابهم في الدنيا والآخرة، وطوىٰ ذكر ما بينهما من خبر ولادته وبعثته مؤيداً بتلك الآيات التي تقدمت اكتفاءً بحكاية الملائكة، وثقة بما فصل في المواضع الأخرىٰ.

قوله تعالىٰ[1]: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ...﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: «أتىٰ رسول الله ﷺ راهبان من نجران، فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجل حتىٰ يؤامر ربه، فنزل عليه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ إلىٰ ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وأخرج[2] ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رهطاً من أهل نجران قدموا علىٰ النبي ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله قالوا: فهل رأيت مثل عيسىٰ، وأنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل، فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إلىٰ آخر الآية، وقد رويت هذه القصة علىٰ وجوه عن جماعة من التابعين.

وقد أخرج[3] البخاري ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه: أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال: أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح أبداً نحن ولا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال: هذا أمين هذه الأمة.

وأخرج[4] البيهقي في «الدلائل» من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ كتب إلىٰ أهل نجران ـ قبل أن ينزل عليه طس سليمان باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ «من محمد النبي...» الحديث، وفيه: بعثوا إليه شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجباراً الحرثي، فانطلقوا، فأتوه، فسألهم وسألوه، فلم يزل به وبهم المسألة حتىٰ قالوا: ما تقول في عيسى؟ قال: ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتىٰ أخبركم،

---

(١) لباب النقول.
(٢) الشوكاني.
(٣) الشوكاني.
(٤) لباب النقول.

فأصبح الغد، وقد أنزل الله هذه الآيات: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وأخرج[1] ابن سعد في «الطبقات» عن الأزرق بن قيس قال: قدم علىٰ النبي ﷺ أسقفُ نجران والعاقب، فعرض عليهما الإسلام، فقالا: إنا كنا مسلمين قبلك، قال: كذبتما، إنه منع منكما الإسلام ثلاث: قولكما اتخذ الله ولداً، وأكلكما لحم الخنزير، وسجودكما للصنم، قالا: فمن أبو عيسىٰ؟ فما درىٰ رسول الله ﷺ ما يرد عليهم حتىٰ أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فدعاهما إلىٰ الملاعنة فأبيا، وأقرا بالجزية، ورجعا.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: فلما علم عيسىٰ من قومه بني إسرائيل التصميم علىٰ الكفر، والاستمرار علىٰ الضلال والعناد، وقصد الإيذاء، فقد صح أنه لقي من اليهود شدائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له: يا عيسىٰ ما أكل فلان البارحة، وما ادخر في بيته لغد، فيخبرهم فيسخرون منه، حتىٰ طال ذلك به وبهم، وطلبوا قتله؛ لأنهم كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فخافهم واختفىٰ عنهم، وخرج هو وأمه يسيحان في الأرض.

وفي هذا عبرةٌ وتسلية للنبي ﷺ، وبيان بأن الآيات الكونية مهما كثرت لا تفضي إلىٰ الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول، ومن الداعي حسن بيان.

فلما رأىٰ منهم ذلك ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ للحواريين: ـ كما تدل عليه آية الصف ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ـ ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾ حالة كوني ملتجئاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومتوجهاً إليه، أو ذاهباً إليه أو في الدعوة إلىٰ الله ﴿قَالَ

(١) لباب النقول.

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ أي: قال الأصفياء من أتباعه وخواصهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصار دين الله والباذلون كل ما في الوسع في تأييد دعوتك، والآخذون بتعاليمك، والمنصرفون عن التقاليد السالفة، وهذا النصر لا يستلزم القتال، بل يكفي فيه العمل بالدين والدعوة إليه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدقنا بوحدانية الله، وبما جئتنا به، وهذا جارٍ مجرىٰ بيان السبب في نصر دينه، والمعنىٰ: يجب علينا أن نكون من أنصار الله لأجل أننا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذبَّ عن أولياء الله، والمحاربة لأعدائه ﴿وَٱشْهَدْ﴾ لنا يا عيسىٰ يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي مخلصون منقادون لأوامره، وفي هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبي، وإن اختلفت الأنبياء في بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله، وإنما طلبوا شهادته؛ لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة، وإنما قال هنا: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وفي المائدة: ﴿بأننا﴾؛ لأن ما فيها أول كلام الحواريين، فجاء علىٰ الأصل، وما هنا تكرار له بالمعنىٰ، فناسب فيه التخفيف؛ لأن كلاً من التخفيف والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولىٰ، وإنما طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن غرضهم السعادة الأخروية.

والحواريون: جمع حواري، وحواريُّ الرجل: صفوته وخلاصته، والحواري أيضاً: الناصر، ومنه قوله ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواريي الزبير» أخرجه الشيخان. وهذا المعنىٰ هو الصحيح، قاله ابن كثير. وقد اختلف في سبب تسميتهم بذلك، فقيل: لبياض ثيابهم، وقيل: لخلوص نياتهم، وقيل: لأنهم خاصة الأنبياء، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: تسعة وعشرين رجلاً آمنوا بعيسىٰ عليه السلام واتبعوه، وكانوا إذا جاعوا.. قالوا: جعنا يا روح الله، فيضرب بيده الأرض ليخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا.. قالوا: عطشنا، فيضرب بيده الأرض، فيخرج منها الماء، فيشربون، فقالوا: من أفضل منا، نأكل من حيث شئنا، قال عليه السلام: أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه، فصاروا يغسلون الثياب للناس بالأجرة، فسموا حواريين.

فلما أشهدوا عيسى علىٰ إيمانهم وإسلامهم. . تضرعوا إلىٰ الله تعالىٰ، وقالوا مبالغة في إظهار أمرهم يا ﴿رَبَّنَآ﴾ ويا مالك أمرنا ﴿ءَامَنَّا﴾ وصدقنا ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ علىٰ عيسىٰ من كتابك الإنجيل ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: وامتثلنا أمر رسولك عيسىٰ فيما أتانا به من عندك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: فاكتبنا في جملة من شهد لك بالوحدانية، ولرسلك بالرسالة بتصديقهم واتباعهم؛ أي: فثبّت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فاكتبنا في زمرة الأنبياء؛ لأن كل نبي شاهد لقومه، أو فاكتبنا مع محمد وأمته؛ لأنهم هم المخصوصون بآداء الشهادة يوم القيامة، فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ، وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سأل الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾؛ أي: ومكر أولئك القوم الذين علم عيسىٰ ـ عليه السلام ـ كفرهم من اليهود، واحتالوا في قتله بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أبطل الله مكرهم، فلم ينجحوا فيه، ورفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء، وألقىٰ شبهه علىٰ من قصد اغتياله حتىٰ قتل ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ أي: أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقدرهم علىٰ إيصال الضر إليهم من حيث لا يحتسبون؛ حيث جعل تدميرهم في تدبيرهم، فتدبيره الذي يخفىٰ على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمته، وكلها خير في نفسها، وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.

واعلم: أن مكر الله استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون، قاله الفراء وغيره، وقال الزجاج: مكر الله: مجازاتهم علىٰ مكرهم فمعنىٰ: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: جازاهم على مكرهم، فحيث أضمروا علىٰ أخذ عيسى من حيث لا يحتسب. . جازاهم علىٰ ذلك وأخذهم من حيث لم يحتسبوا؛ حيث ألقىٰ شبه عيسىٰ عليه السلام علىٰ قاصد قتله فقتل، ورفع عيسىٰ فسُمي الجزاء باسم الابتداء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وأصل المكر: الاغتيال والخدع، حكاه ابن فارس، وهو إيصال الضرر إلىٰ الغير بطريق خفي، وعلىٰ هذا فلا يطلق

علىٰ الله إلا علىٰ طريق المشاكلة، فمعنىٰ المشاكلة؛ الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى؛ إذ لا يجوز أن يوصف الله تعالىٰ بالمكر إلا لأجل ما ذكر معه من لفظ آخر مسند لمن يليق به، هكذا قيل. وقد جاء إسناد المكر إلىٰ الله تعالىٰ من غير مقابلة في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾. وفي الحديث: «اللهم أمكر لي ولا تمكر عليّ». قال أبو حيان: سأل رجل الجنيد، فقال: كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر، وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان الظهراني شعراً:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِيْ فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثم قال: قد أجبتُك إن كنت تعقل. والمذهب الأسلم الذي عليه سلف الأمة إثبات المكر لله سبحانه وتعالى، فإذاً فالمكر صفة ثابتة لله تعالىٰ نؤمن بها ونعتقدها ونثبتها من غير تمثيل ولا تعطيل، وهذا هو الذي نلقىٰ الله عليه.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ملك بني إسرائيل اسمه: يهوذا، لما قصد قتل عيسىٰ عليه السلام.. أمره جبريل أن يدخل بيتاً فيه روزنة ـ والروزنة: فرجة في سقف البيت ـ فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلىٰ السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم يقال له تطيانوس: أدخل عليه فاقتله، فدخل البيت فلم يرَ عيسى، فألقىٰ الله تعالىٰ شبه عيسى عليه السلام عليه، فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هذا عيسىٰ فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسىٰ؟ فوقع بينهم قتال عظيم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله؛ أي: مكر الله سبحانه وتعالى بهم حين قال لنبيه ورسوله عيسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ ابن مريم ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي: مستوفي أجلك المسمىٰ، ومؤخرك إلىٰ تمامه، وعاصمك من أن يقتلك الكفار، أو[1] قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً؛ إذ رُوي أنه

---

(١) البيضاوي.

رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلىٰ عالم الملكوت، وقيل: أماته الله سبع ساعات، ثم رفعه إلىٰ السماء، وإليه ذهبت النصارىٰ، والله أعلم بحقيقة الحال. ﴿وَرَافِعُكَ﴾ من الأرض ﴿إِلَيَّ﴾؛ أي: إلىٰ سمائي ومحل كرامتي، ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: مخرجك من بينهم، ومنجيك منهم؛ أي: مما كانوا يريدونه بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح، ونسبة السوء إليه، وفي هذا بشارة بنجاته من مكرهم، واستيفاء أجله، وأنهم لا ينالون منه ما كانوا يريدونه بمكرهم وخبثهم.

وللعلماء في تأويل هذه الآية رأيان(١):

الأول: أن فيها تقديماً وتأخيراً، والأصل إني رافعك إليَّ ومتوفيك؛ أي؛ إني رافعك الآن، ومميتك بعد النزول من السماء في الحين الذي قدر لك، وعلى هذا فهو قد رفع حياً بجسمه وروحه، وأنه سينزل آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعتنا، ثم يتوفاه الله تعالىٰ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد»، زاد في رواية: «حتىٰ تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس بيني وبينه ـ يعني: عيسىٰ ـ نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه، فاعرفوه؛ فإنه رجل مربوع إلىٰ الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين ـ أي: ثوبين مصبوغين بالممصرة، الممصرة: تراب أحمر يصبغ به ـ كأن رأسه يقطر ماءً، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الملل في زمانه كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجالَ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة،

---

(١) المراغي.

ثم يتوفىٰ، ويصلي عليه المسلمون» أخرجه أبو داود.

والقول الثاني: أن الآية علىٰ ظاهرها، وأن التوفي هو الإماتة العادية، وأن الرفع بعده للروح، ولا غرابة في خطاب الشخص وإرادة روحه، فالروح هي حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان؛ لأن روحه هي هي.

والمعنىٰ: إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، كما قال تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد، يتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولا يوجد هنا واحد منهما.

أو أن المراد بنزوله وحكمه في الأرض: غلبة رُوحه، وسرد رسالته علىٰ الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها، والتمسك بقشورها دون لبابها.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: وجاعل الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله، والذين صدَّقوا بنبوتك وادعوا محبتك كالنصارىٰ ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ومكروا بك، وهم اليهود بالحجة والسيف والقهر والسلطان والاستعلاء والنصرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: إن هذه الفوقية مستمرة لهم ما دامت السموات والأرض، وبعدئذٍ يفعل بهم ما يشاء، وهذه الفوقية؛ إما فوقية دينية روحانية، وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق، وكمال الآداب، والقرب من الحق، والبعد من الباطل، وإما فوقية دنيوية، وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم، وفي هذا إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلىٰ يوم القيامة، وقد تحقق ذلك؛ فإن مُلك اليهود قد ذهب، فلم تبق لهم قلعة ولا سلطان ولا شوكة في جميع الأرض، فلا يرىٰ ملك يهودي، ولا بلد مستقل لهم، بل يكونون مقهورين أين ما كانوا بالذلة والمسكنة، وملك النصارىٰ باقٍ قائم إلىٰ قريب من قيام الساعة، فإنا نرىٰ أن دولة النصارىٰ في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لأتباعه، بل كان اليهود يغلبونهم علىٰ أمرهم، فالوجه الأول أولى بالاعتبار.

وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ لنبينا محمد ﷺ، فيكون الوقف علىٰ قوله من الذين كفروا تاماً، والابتداء بما بعده، وجاز هذا لدلالة الحال عليه؛ أي: جاعلهم قاهرين لهم إلىٰ يوم القيامة يعني: أنهم ظاهرون علىٰ اليهود وغيرهم من الكفار بالغلبة في الدنيا؛ فأما يوم القيامة.. فيحكم الله بينهم، فيدخل الطائع الجنة، والعاصي النار، وليس المعنىٰ علىٰ انقطاع ارتفاع المؤمنين علىٰ الكافرين بعد الدنيا وانقضائها؛ لأن لهم استعلاء آخر غير هذا الاستعلاء.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء الدنيا، وقيام الساعة ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلىٰ غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم ومصيركم إليَّ بالموت والبعث، والخطاب لعيسىٰ ومن آمن معه ومن كفر به، وغلب المخاطبين علىٰ الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يومئذٍ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: فيما اختلفتم فيه من أمور الدين.

ثم بيَّن جزاء المحق والمبطل وكيفيته فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وكذبوك، وهم اليهود ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإذلالهم بالقتل والأسر والجزية وتسليط الأمم عليهم ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بالنار، ولعذاب الآخرة أشد وأنكىٰ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: مانعين من عذاب الله في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله والكتاب، وبنبوة عيسىٰ، وبنبوة محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم؛ بأن امتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: يعطيهم الله تعالىٰ أجور أعمالهم وثوابها في الجنة موفراً كاملاً غير منقوص.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يريد إيصال الخير إلىٰ المشركين، أو المعنىٰ: والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فكيف بظلم عباده له؟ فهو يجازيه بما يستحق، وفي هذا وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، وفي هذه[1] الآية قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء علىٰ قراءة حفص ورويس وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم

(١) البحر المحيط.

إلىٰ ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة. وقرأ الجمهور: ﴿فنوفيهم﴾؛ أي: نعطيهم أجورهم كاملة موفرة ـ بالنون الدالة على المتكلم المعظم نفسه ـ، ولم يأت بالهمزة كما في تلك الآية؛ ليخالف في الإخبار بين النسبة الإسنادية فيما يفعله بالكافر، وبالمؤمن؛ كما خالف في الفعل؛ ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله، فناسبه الإخبار عن المجازي بنون العظمة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي ذكرته لك من خبر عيسىٰ، وأمه مريم، وأمها، وزكريا، وابنه يحيىٰ، ومن خبر الحواريين واليهود. ﴿نَتْلُوهُ﴾؛ أي: نقرأه ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد علىٰ لسان جبريل الأمين، وإنما أضاف ما يتلوه جبريل إلىٰ نفسه سبحانه وتعالىٰ؛ لأنه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلاً، فأضافه إليه حالة كونه ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: من العلامات الدالة علىٰ نبوتك يا محمد؛ لأنها إخبار لا يعلمها إلا من يقرأ ويكتب، أو نبي يُوحىٰ إليه، وأنت أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، فثبت أن ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: القرآن المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد روي ـ كما مر لك ـ: أنه حضر وفد نصارىٰ نجران علىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا ونسبه؟ فقال: مَنْ هو؟ قالوا: عيسىٰ، قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد، قال: أجل هو عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول. فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ ومن لا أب له فهو ابن الله، ثم خرجوا من عنده ﷺ، فجاءه جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾؛ أي: إن شأن عيسىٰ وصفته في خلق الله تعالىٰ إياه علىٰ غير مثال سابق؛ أي: من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أبي البشر؛ أي: كشأن آدم وصفته، ثم فسر هذا المثل وفصل ما أجمله فقال: ﴿خَلَقَهُۥ﴾؛ أي: خلق آدم وأوجده وكوَّن جسمه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ ميت؛ حيث أصابه الماء، فكان طيناً لازباً لزجاً؛ أي: خلقه بلا أب وأم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما كوَّن جسمه من التراب ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لآدم ﴿كُن﴾ بشراً حساساً بنفخ الروح فيه ﴿فَيَكُونُ﴾؛ أي: فكان بشراً حساساً ناطقاً ضاحكاً، والتعبير بالمضارع علىٰ حكاية الحال الماضية، أو

للفاصلة، وكذلك قال له: كن من غير أب.. فكان ولداً بلا أب، فإذا كان آدم كذلك، ولم يكن ابناً لله.. فكذلك عيسىٰ، فمن لم يقرَّ بأن الله خلق عيسىٰ من غير أب مع إقراره بخلق آدم من غير أب ولا أم، فهو خارج عن طور العقلاء، وأيضاً: إذا جاز أن يخلق الله آدم من التراب.. فيجوز خلق الله تعالىٰ عيسىٰ من دم مريم من باب أولىٰ، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقربُ إلىٰ العقل من تولده من التراب اليابس.

ثم أكد الله سبحانه وتعالى صدق هذا القصص، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الحق؛ أي: ما قصصنا عليك يا محمد في شأن عيسى وأمه مريم، هو الخبر الحق، والقول الصدق، والأمر الثابت الذي لا شك فيه حالة كونه موحىً إليك من ربك، لا ما تعتقده النصارىٰ في المسيح من أنه إله، أو ابن الله، ولا ما تزعمه اليهود من رمي مريم بيوسف النجار. ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ أي: من الشاكين فيما بينت لك في شأن عيسىٰ وأمه، وهو كونه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم؛ أي: فلا تشكن في أمرهما بعد أن جاءك العلم اليقيني به، وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ولكن المقصود به نهي غيره لعصمته عن مثل ذلك الامتراء.

وفي النهي للنبي ﷺ مع استحالة وقوع الامتراء منه فائدة من وجهين:

الأول: إذا سمع ﷺ مثل هذا الخطاب.. ازداد رغبة في الثبات علىٰ اليقين، واطمئنان النفس.

والثاني: إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء؛ إذ أنه ﷺ علىٰ جلالة قدره خوطب بمثل هذا، فما بالك بغيره.

وخلاصة ذلك: دم على يقينك يا محمد، وعلىٰ ما أنت عليه من الاطمئنان إلىٰ الحق، والتنزه عن الشك فيه. ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ وخاصمك وجادلك ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في شأن عيسىٰ، وهم النصارى الذين وفدوا إلىٰ رسول الله ﷺ من نجران، كما مر في مقام أسباب النزول. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾؛ أي: بعد الذي جاءك وأوحي إليك ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: من الآيات البينات التي تفيد العلم واليقين، بأن

عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم.

﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿تَعَالَوْاْ﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا إليّ. قرأ الجمهور: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ بفتح اللام وهو الأصل والقياس. وقرأ الحسن وأبو واقد وأبو السِّمَال شذوذاً بضم اللام علىٰ أن أصله: تعاليوا، فنقلت الضمة إلىٰ اللام، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وهذا تعليل شاذ. ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾؛ أي: نخرج أبناءنا ﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: أخرجوا أنتم أبناءكم ﴿وَنِسَآءَنَا﴾؛ أي: نخرج نساءنا ﴿وَنِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: وأخرجوا أنتم نساءكم ﴿وَأَنفُسَنَا﴾؛ أي: نخرج بأنفسنا ﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: اخرجوا أنتم بأنفسكم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ أي: نتضرع ونجتهد ونبالغ في الدعاء ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ وغضبه فيما بيننا ﴿عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسىٰ؛ أي: فقل لهم أقبلوا، وليدعُ كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة، وليقل: لعنة الله علىٰ الكاذبين منا ومنكم، أو اللهم العنْ الكاذب منا في شأن عيسىٰ.

وفي تقديم هؤلاء على النفس في المباهلة مع أن الرجل يخاطر بنفسه لهم إيذانٌ بكمال أمته ﷺ، وتمام ثقته بأمره، وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم في ذلك مكروه، وهذه الآية تسمىٰ: آية المباهلة.

وروى أن النبي ﷺ: اختار للمباهلة علياً، وفاطمة، وولديهما رضي الله عنهم، وخرج بهم، وقال: إن أنا دعوت.. فأمنوا أنتم.

وأخرج ابن عساكر عن جعفر عن أبيه: أنه لما نزلت هذه الآية.. جاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، ولا شك أن الذي يفهم من الآية أن النبي ﷺ أمر أن يدعو المحاجين والمجادلين في شأن عيسىٰ من أهل الكتاب إلىٰ الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويبتهلوا إلىٰ الله تعالىٰ بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسىٰ.

وهذا الطلب يدل علىٰ قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل امتناع من دُعوا إلىٰ ذلك من أهل الكتاب من نصارىٰ نجران وسواهم علىٰ امترائهم في حجاجهم، وكونهم علىٰ غير بيّنة فيما يعتقدون.

وفي الآية عبرة لمن ادَّكر؛ لأنه طلب فيها مشاركة النساء للرجال في الاجتماع للمفاضلة الدينية، وفي هذا دليل على أن المرأة كالرجل، حتىٰ في الأمور العامة، إلا في بعض مسائل؛ ككونها لا تباشر الحرب بنفسها، بل تشتغل بخدمة المحاربين ومداواة الجرحىٰ، ولا تتولى القضاء في الجنايات ونحوها، وأين هذا من حال نساء المسلمين اليوم، في جهلهن بأمور الدين، وعدم مشاركتهن للرجال في عمل من الأعمال الدينية، أو الشؤون الاجتماعية، ولا هَمَّ لنساء الأغنياء في المدن إلا الزينة، والتنوق[1] في المطاعم والمشارب والملابس، والتفرج بآلات الملاهي المحرمة، والأغاني الخبيثة، وإضاعة الأوقات فيها، كما لا عمل لنساء الفقراء في القرىٰ والدساكر إلا الخدمة في الحقول والمنازل، فهن كالأُتن الحاملة، والبقر العاملة، وكان من جزاء هذا أن صغُرتْ نفوسهن، وضعفت آدابهن، وصرن كالدواجن في البيوت، أو السوائم في الصحراء، وساءت تربية البنين والبنات، وسرىٰ الفساد من الأفراد إلىٰ الجماعات، وعمَّ الأُسَر والعشائر والشعوب والقبائل.

وقد قام في هذا العهد الأخير جماعات من العقلاء في كثير من البلاد الإسلامية يطالبون بتحرير المرأة، ومشاركتها الرجل في العلم والأدب وشؤون الحياة، وصادفت هذه الدعوة آذاناً صاغية، فبدأ المسلمون يعلِّمون بناتهم، ولكن ينبغي أن يصحب هذا التعليم شيء كثير من التربية الدينية، والإصلاح في الأخلاق والعادات.

وقد كان هذا عاملاً من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذي لا ندري ما تكون عاقبته في إصلاح الأسر الإسلامية، ولا ما سينتج منه من نفع للإسلام والمسلمين، أو تتبع للنصارىٰ والمشركين.

فائدة: وأتىٰ[2] بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ تنبيهاً لهم علىٰ خطئهم في

---

(١) **التنوق:** يقال تنوق في المطعم والمشرب إذا أخذ أجوده وأحسنه ا هـ.

(٢) الجمل.

مباهلته، كأنه يقول لهم: لا تعجلوا، وتأنَّوا؛ لعله أن يظهر لكم الحق، فلذلك أتىٰ بحرف التراخي.

قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ هذه[1]، والتي في النور في قوله: ﴿والخامسة أن لعنت الله عليه﴾، يكتبان بالتاء المبسوطة، وما عداهما بالهاء علىٰ الأصل.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور الذي ذكرته لك يا محمد من الدلائل التي دلت علىٰ أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم ولم يكن إلهاً، ولا ولده، ولا شريكه، ومن الدعاء إلىٰ المباهلة مع وفد نجران ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: لهو الخبر الصدق، والقول الحق الذي لا شك فيه دون أكاذيب النصارىٰ، وافتراء اليهود ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ بلا شريك، ولا ولد، ولا زوجة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يُمنع، القادر علىٰ جميع المقدورات ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: العالم بجميع المعلومات، وبجميع عواقب الأمور، فذكر العزيز الحكيم ها هنا إشارة إلىٰ الجواب عن النصارىٰ في الشبهتين لعيسىٰ: القدرة علىٰ الإحياء ونحوه، وإخبار الغيوب؛ أي: لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشاركه في الإلهية.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التي جئت بها، ولم يجيبوك إلىٰ المباهلة.. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عليم بـ﴾ حال ﴿المفسدين﴾ في الدين، ونياتهم، وأغراضهم الفاسدة، فيجازيهم بخبيث سرائرهم وسيىء أعمالهم.

وخلاصة المعنى: فإن أبوا عن قبول الحق، وأعرضوا عما وصفت من أن الله هو الواحد، وأنه يجب أن يكون عالماً قادراً علىٰ جميع المقدورات، عالماً بالنهايات، محيطاً بالمعلومات، مع اعترافهم بأن عيسى لم يكن كذلك، ومع قولهم: إن اليهود قتلوه.. فاعلم أن إباءهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد، فاقطع كلامك عنهم، وفوض أمرهم إلىٰ الله، فإن الله عليم بفساد المفسدين،

---

(١) الجمل.

مطلِّع علىٰ ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة، قادر علىٰ مجازاتهم.

الإعراب

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ الفاء استئنافية (لما): حرف شرط غير جازم ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنۡهُمُ﴾: متعلق بـ﴿أَحَسَّ﴾، أو حال من ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ تقديره: أحسَّ الكفر حال كونه صادراً منهم، كما قاله أبو البقاء. ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾: مفعول به لأحس، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿عِيسَىٰ﴾، والجملة جواب ﴿لما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾ مستأنفة، ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلتَ: ﴿مَنۡ﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿أَنصَارِيٓ﴾: خبر ومضاف إليه ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: جار ومجرور حال من ياء المتكلم متعلق بمحذوف تقديره: حالة كوني ملتجئاً إلىٰ الله، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿اشهد﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿عِيسَىٰ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ علىٰ كونها مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿بِأَنَّا﴾: الباء حرف جر، أن: حرف نصب ومصدر، ونا: ضمير المتكلمين اسمها. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء المتعلقة بـ﴿أشهد﴾ تقديره؛ وأشهد بكوننا مسلمين.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿أَنزَلْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزلته. ﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾: الواو عاطفة، (اتبعنا) فعل وفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾ علىٰ كونها مقول القول. ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: الفاء عاطفة تفريعية، ﴿اكتبنا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿اكتبنا﴾، أو حال من ضمير المفعول.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ الواو استئنافية، ﴿مكروا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿مكروا﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، والظرف متعلق بـ﴿مكر الله﴾؛ أي: مكرهم الله وقت قوله لعيسى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾: منادىٰ مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّى﴾: إنَّ: حرف نصب وتوكيد، والياء اسمها، ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: خبرها ومضاف إليه ﴿وَرَافِعُكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ ﴿إِلَىَّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿رافعك﴾، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾:

متعلق بـ﴿مطهرك﴾ ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَجَاعِلُ﴾: معطوف علىٰ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، وهو مضاف ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ﴿جاعل﴾ تقديره: ظاهرين فوقهم. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جاعل﴾ يعني: أن هذا الجعل مستمر إلىٰ ذلك اليوم، ويجوز أن يتعلق بما تعلق به الظرف؛ أعني: فوق الذين كفروا.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخٍ، ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لإفادة الحصر. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَحْكُمُ﴾: الفاء: حرف عطف وتعقيب، ﴿أحكم﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، فالجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ علىٰ كونها مقول القول، ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ﴿أحكم﴾، ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أحكم﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمها ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير فيه، والتقدير: فأحكم بينكم فيما كنتم مختلفين فيه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت رجوعكم إليّ وحكمي بينكم، وأردت بيان كيفية ذلك الحكم.. فأقول لك ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾: الفاء

رابطة لجواب ﴿أما﴾ ﴿أعذبهم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿شَدِيدًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ(أعذبهم) ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، وجملة (أعذبهم) في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنها خبر سيِّئ تقديره: فأما الذين كفروا.. فمعذب أنا إياهم، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة (أما) من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة، (ما): حجازية أو تميمية (لهم): جار ومجرور خبر (ما) الحجازية، أو خبر المبتدأ المؤخر. ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: اسم (ما) الحجازية، أو مبتدأ مؤخر تقديره: وما ناصرون كائنين أو كائنون لهم، والجملة معطوفة على جملة (ما) على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة (أما): حرف شرط ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: الفاء رابطة لجواب (أما) (يوفيهم): فعل مضارع ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سيِّىء، والجملة الاسمية جواب (أما) لا محل لها من الإعراب، وجملة (﴿أما) في محل النصب معطوفة على جملة (أما) الأولى ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة (أما).

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾،

والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلقان بـ﴿نتلوه﴾ ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ضمير ﴿نَتْلُوهُ﴾ ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة لـ﴿ذكر﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مَثَلَ﴾: اسمها، ﴿عِيسَىٰ﴾: مضاف إليه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾ الآتي، وقال أبو حيان[1]: والعامل في ﴿عِندَ﴾ العاملُ في كاف التشبيه. ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿مِن تُرَابٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ(خلق)، والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿مثل آدم﴾ لا محل لها من الإعراب، وقيل: حال من ﴿ءَادَمَ﴾ على تقديره: قد، قال أبو حيان[2]: وهذه الجملة تفسيرية لـ﴿مثل آدم﴾، فلا موضع لها من الإعراب. وقيل: هي في موضع الحال، وقد مع ﴿خَلَقَهُۥ﴾ مقدرةٌ، والعامل فيها معنى التشبيه. قال ابن عطية؛ ولا يجوز أن يكون ﴿خَلَقَهُۥ﴾ صفة لآدم، ولا حالاً منه إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها، بل هو كلام مقطوع منه، مُضَمَّنه تفسير المثل. انتهى كلامه، وفيه نظر ا هـ.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَالَ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾ معطوفة على جملة ﴿خَلَقَهُۥ﴾، ﴿كُن﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿كُن﴾: فعل أمر من كان التامة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ءَادَمَ﴾، والجملة معطوفة على جملة

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالَ﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾ الفاء استئنافية ﴿يكون﴾ فعل مضارع تام مرفوع بالضمة والفاعل هو والجملة مستأنفة.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا هو الحق، والجملة مستأنفة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾ تقديره: حال كونه كائناً من ربك. ﴿فَلَا تَكُن﴾: الفاء عاطفة تفريعية ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿تَكُن﴾ تقديره: فلا تكن كائناً من الممترين، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾.

﴿فَمَنْ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن هذا المذكور في شأن عيسىٰ هو الحق من ربك، وأردت بيان كيفية المعارضة مع من حاجك فيه.. فأقول لك ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما، أو موصولة بمعنىٰ الذي في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾، ودخلت الفاء في خبره لشبه الموصول بالشرط في العموم ﴿حَآجَّكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول في محل الجزم بـ(مَنْ) الشرطية، وفاعله ضمير يعود علىٰ (من) ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿حَآجَّكَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿حَآجَّكَ﴾. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَا﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿جَآءَكَ﴾ تقديره: حال كونه كائناً من العلم. ﴿فَقُلْ﴾: الفاء رابطة لجواب (من) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية (قل): فعل أمر في محل الجزم بـ(من) الشرطية علىٰ كونه جواباً لها مبني علىٰ السكون، وفاعله ضمير يعو دعلىٰ محمد، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا الشرطية، وجملة إذا الشرطية مستأنفة. ﴿تَعَالَوْا۟﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإن شئت

قلتَ: ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿نَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على النبي، ومن يخاصمه من النصارىٰ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قل﴾ ﴿أَبْنَاءَنَا﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿وَأَبْنَاءَكُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَبْنَاءَنَا﴾، وكذلك معطوف عليه قوله: ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخٍ. ﴿نَبْتَهِلْ﴾: فعل مضارع معطوف علىٰ ﴿نَدْعُ﴾ علىٰ كونه مجزوماً بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي، ومن يخاصمه من النصارىٰ ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ﴾ فعل مضارع ومفعول أول ومضاف إليه، معطوف علىٰ ﴿نَدْعُ﴾ علىٰ كونه مجزوماً بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي، ومن يخاصمه ﴿عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نجعل﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿هَٰذَا﴾: اسمها ﴿لَهُوَ﴾: اللام حرف ابتداء ﴿هو﴾: ضمير فصل ﴿الْقَصَصُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿الْحَقُّ﴾: صفة لـ﴿قصص﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾: الواو عاطفة أو استئنافية ﴿ما﴾: نافية، ﴿مِنْ﴾: زائدة زيدت لإفادة الاستغراق والعموم ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة تقدم النافي عليه ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿اللَّهُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة عاطفة علىٰ جملة ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنفة. وفي «الفتوحات الإلهية» قوله[1]: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، و ﴿مِنْ﴾ مزيدة فيه، وإلا الله خبره تقديره: ما إله إلاالله، وزيدت ﴿مِنْ﴾ للاستغراق والعموم.

---

(١) الجمل.

الثاني: أن يكون الخبر مضمراً تقديره: وما من إله لنا إلا الله و ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بدل من موضع ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ لأن موضعه رفع بالابتداء ا هـ. «سمين». انتهىٰ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الواو عاطفة أو استئنافية (إن): حرف نصب ﴿اللَّهَ﴾: اسمها ﴿لَهُوَ﴾: اللام حرف ابتداء ﴿هو﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة أو معطوفة علىٰ جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولىٰ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت كيفية المحاجة معهم، وأردت بيان حكم ما إذا تولوا عن قبول الحق بعد المحاجة.. فأقول لك. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل، في محل الجزم بـ(إن) علىٰ كونه فعل شرط لها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية (إن): حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبرها. ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة (إنَّ) في محل الجزم بـ(إن) الشرطية علىٰ كونها جواباً لها، وجملة (إنْ) الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾: الإحساس: الإدراك ببعض الحواس الخمس، وهي: الذوق والشم واللمس والسمع والبصر، يقال: أحسست الشيء وبالشيء وحسست به، ويقال: حسيت به بإبدال سينه الثانية ياءً، وأحست بحذف سينه الأولىٰ، وقال سيبويه: وما شذَّ من المضاعف ـ يعني: في الحذف ـ فشبيه بباب أقمت، وذلك قولهم: أحست وأحسن، يريدون أحسست وأحسسن، والمراد بالإحساس هنا: الإدراك القوي الجاري مجرىٰ المشاهدة.

﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: والأنصار جمع: نصير، نحو شريف وأشراف.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: جمع حواري، وهو الناصر، وهو مصروف وإن ماثل المفاعل؛ لأن ياء النسب فيه عارضة، وهو مشتق من الحور، وفعله من باب طَرِب يقال: حورت العين إذا صفا بياض بياضها وسواد سوادها، فسموا حواريين لخلوص بياض ألوانهم ونياتهم وسرائرهم، فعلىٰ هذا القول الحَوَر وهو البياض قائمٌ بذواتهم وقلوبهم، وقيل: مأخوذ من التحوير وهو: التبييض؛ لأنهم يحورون الثياب، ويقصرونها؛ أي: يبيضونها. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ والمكر[1]: الخداع والخبث، وأصله: الستر، يقال: مكر الليل وأمكر إذا أظلم، واشتقاقه من: المكر، وهو: شجر ملتف، فكأن الممكور به يلتف به المكر ويشتمل عليه، ويقال: امرأة ممكورة إذا كانت ملتفة الخلق، والمكر أيضاً ضرب من النبات، وفسره بعضهم بأنه: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان:

محمود: وهو أن يتحرىٰ به فعلَ جميلَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومذموم: وهو أن يتحرىٰ به فعل قبيحٍ؛ نحو: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾. ا هـ. «سمين».

﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾: العامة علىٰ فتح اللام؛ لأنه أمر من: تعالىٰ يتعالىٰ؛ كترامىٰ يترامىٰ، وأصل ألفه ياء، وأصل هذه الياء واو؛ وذلك لأنه مشتق من العلو وهو: الارتفاع، والواو متىٰ وقعت رابعة فصاعداً قلبت ياءً، فصار: تعاليَ فتحرك حرف العلة ـ وهو الياء ـ، وانفتح ما قبله، فقُلب ألفاً، فصار: تعالىٰ كترامىٰ، فإذا أمرتَ منه الواحد.. قلت: تعالَ يا زيد؛ بحذف الألف؛ لبناء الأمر علىٰ حذفها، وكذا إذا أمرت الجمع المذكر.. قلت: تعالَوا؛ لأنك لما حذفت الألف لأجل الأمر.. أبقيتَ الفتحة مشعرة بها، وإنْ شئت قلتَ: الأصل: تعاليوا، وأصل هذه الياء واو ـ كما تقدم ـ، ثم استثقلت الضمة علىٰ الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان، فحذف أولهما ـ وهو الياء ـ لالتقاء الساكنين، وتركت الفتحة علىٰ حالها، وإنْ

---

(١) الجمل.

شئت قلت: لما كان الأصل: تعاليوا.. تحرك حرف العلة، وانفتح ما قبله ـ وهو الياء ـ، فقلبت ألفاً، فالتقىٰ ساكنان، فحذف أولهما ـ وهو الألف ـ وبقيت الفتحة دالة عليها.

والفرق بين هذا وبين الوجه الأول: أن الألف في الوجه الأول حذفت لأجل الأمر، وإن لم يتصل به واو ضمير، وفي هذا حُذفت لالتقائها ساكنة مع واو الضمير، وكذلك إذا أمرت الواحدة.. تقولُ لها: تعالي، فهذه الياء هي ياء الفاعلة من جملة الضمائر، والتصريف فيه كما تقدم في أمر جماعة الذكور، فتأتي هنا الوجوه الثلاثة، فيقال: حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع ياء المخاطبة، وبقيت الفتحة دالة عليها، أو يقال: استثقلت الكسرة علىٰ الياء التي هي من أصل الكلمة، فحذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياءَان فحذفت الأولىٰ، أو يقال: تحركت الياء الأولى وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وأما إذا أمرت المثنىٰ.. فإن الياء تثبت فتقول: يا زيدان تعاليا، ويا هندان تعاليا أيضاً؛ يستوي فيه المذكران والمؤنثان، وكذلك أمر جماعة الإناث، تثبت فيه الياء فتقول: يا نسوة تعالَين، قال تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾؛ إذ لا مقتضىٰ للحذف، ولا للقلب، وهو ظاهر بما تمهد من القواعد الصرفية.

وقرأ الحسن شاذاً: ﴿تعالُوا﴾ بضم اللام، والذي يظهر في توجيه هذه القراءة أنهم تناسوا الحرف المحذوف، حتىٰ كأنهم توهموا أن الكلمة بُنيت علىٰ ذلك، وأن اللام هي الآخر في الحقيقة، فلذلك عوملت معاملة الآخر حقيقة، فضمت قبل واو الضمير، وكسرت قبل يائه. وتعال: فعل أمر صريح، وليس باسم فعل؛ لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة به.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: والابتهال: افتعال من البهلة ـ بفتح الباء وضمها ـ وهي: اللعنة، هذا أصله، ثم استعمل في كل دعاء مجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً، وفي «القاموس»: والبهل: اللعن، والترك، والاجتهاد في الدعاء، وإخلاصه. وفي «المصباح»: بهله بهلاً من باب نفع إذا لعنه، واسم الفاعل باهل، والأنثىٰ: باهلة، وبها سميت قبيلة، والاسم البُهْلة بالضم وزان: الغرفة، وباهله مباهلةً من

باب قاتل إذا لَعَن كل واحد منهما الآخر، وابتهل إلىٰ الله إذا تضرع إليه. ا هـ.

﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ﴾: والقصَص: مصدر قولهم: قصَّ فلانٌ الحديثَ، يقصه قصاً وقصصاً، وأصله: تتبع الأثر، يقال: فلان خرج يقص أثر فلان؛ أي: يتبعه ليعرف أين ذهب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾؛ أي: اتبعي أثره، وكذلك القاص في الكلام؛ لأنه يتتبع خبراً بعد خبر.

البلاغة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾: فيه استعارة تصريحية تبعية؛ إذ لا يحس إلا ما كان متجسداً، والكفر ليس بمحسوس، وإنما يعلم ويفطن به، ولا يدرك بالحس، إلا إذا كان أحس بمعنىٰ: رأىٰ أو سمع منهم كلمة الكفر، فيكون أَحسَّ لا استعارة فيه؛ إذ يكون المعنىٰ: أدرك ذلك منهم بحاسة البصر، أو بحاسة الأذن.

ومن ضروب البلاغة أيضاً في هذه الآيات:

منها: السؤال والجواب في قوله: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ و ﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ ﴿مكروا﴾ و ﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلىٰ غير فاعله في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾، والله لم يشافهه بذلك، بل بإخبار جبريل أو غيره من الملائكة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، وفي قوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

ومنها: التفصيل لِمَا أجمل في قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بقوله: ﴿فَأَمَّا﴾، ﴿وأما﴾.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ علىٰ قراءة الياء من ضمير المتكلم، وفي قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ إلىٰ ضمير الغيبة.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿نَتْلُوهُ﴾، وفي قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾.

ومنها: تشبيه الغريب بالأغرب في قوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛ لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشد خرقاً للعادة من الموجود من غير أب، وأقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته، والجامع: كون كل منهما من غير أب.

ومنها: الإلهاب والتهييج في قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾. إلىٰ غير ذلك من ضروب البلاغة.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ
بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
(٦٤) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ (٦٩) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن
تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

المناسبة

لما[١] بين الله سبحانه وتعالى فيما سلف أحوال عيسىٰ عليه السلام، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر دعوته ﷺ الناس إلىٰ التوحيد والإسلام، وظهور عناد أهل الكتاب حتىٰ اضطر إلىٰ دعوتهم إلىٰ المباهلة فأعرضوا، وبذلك انقطعت حججهم، ودلَّ ذلك علىٰ أنهم ليسوا علىٰ يقين من اعتقاد ألوهية المسيح، ومن يفقد اليقين يتزلزل حينما يدعىٰ إلىٰ شيء مما يخاف عاقبته.. دعاهم هنا إلىٰ أمر آخر هو أصل الدين، وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً، وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طرف،

---

(١) المراغي.

وهو عبادة الله وَحْده لا شريك له، فلما أعرضوا.. أمر بأن يقول لهم: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

ولما بين أيضاً أن من دأب أهل الكتاب أن يعرضوا عن الحق بعد ما تبين لهم، ولا يجدي معهم الدليل ولا البرهان، فدعوتهم إلىٰ دين الإسلام الذي كان عليه إبراهيم والأنبياء بعده، لا تجد منهم أذناً صاغية، ولا قلوباً واعية.. ذكر شأناً آخر لهم، وهو أنهم كانوا أشد الناس حرصاً علىٰ إضلال المؤمنين، فلا يَدعون فرصة إلا انتهزوها بالتفنن في إلقاء الشبه في نفوس المؤمنين، وقد كان النزاع بالغاً أشده بين الفريقين، فإذا تمسكنا نحن وأنتم بها، وصدَّقناها.. كنا علىٰ السواء والاستقامة، وفي قراءةٍ شاذةٍ لابن مسعود: ﴿إلى كلمة عدل بيننا وبينكم﴾.

ثم فسر الكلمة بقوله هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: تلك الكلمة: عدم عبادتنا سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾؛ أي: وعدم إشراكنا به سبحانه وتعالى شيئاً من المخلوقات في العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: وعدم اتخاذ وجعل بعضٍ منا بعضاً آخر منا ربّاً ومعبوداً ومطاعاً من دون الله سبحانه وتعالى؛ أي لا يطع أحد منا أحداً من الرؤساء في معصية الله، وفيما أحدثوا من التحريم والتحليل، ولا نقول عُزيرٌ ابنُ الله ولا المسيح ابن الله؛ لأنهما بشران مثلنا، ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحلوا أو حرموا.

روي أنه لما نزلت هذه الآية.. قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال ﷺ: «أما كانوا يحلون لكم، ويحرمون عليكم، فتأخذون بقولهم»؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: «هو ذاك».

وتفسير الكلمة بهذه الجمل؛ لأن العرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر: كلمة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن التوحيد، ورفضوا قبول تلك الكلمة العادلة، وأَبَو إلا الإصرار علىٰ الشرك.. ﴿فَقُولُوا﴾ أنتم؛ أيها النبي والمؤمنون

لأهل الكتاب ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: اعترفوا لنا يا معشر أهل الكتاب بأنَّنا منقادون لأوامر الله، مُقِرُّون لله بالوحدانية، مخلصون لهُ بالعبادة دُونكم، فقد لزمتكم الحجة، فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك، وبأنكم كافرون بما نطقت به الكتب، وتطابقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وفي قوله[1]: ﴿بَعۡضُنَا بَعۡضًا﴾ إشارة لطيفة وهي أنَّ البعضية تنافي الإلهية؛ إذ هي تماثل في البشرية، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً لك، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا أشد استبعاداً فيه، وهذه الأفعال الداخل عليها أداة النفي متقاربة في المعنى، يؤكد بعضها بعضاً؛ إذ اختصاص الله بالعبادة يتضمن نفي الاشتراك، ونفي اتخاذ الأرباب من دون الله، ولكن الموضع موضع تأكيد وإسهاب ونشر كلام.

والنصارىٰ جمعوا بين الأفعال الثلاثة: عبدوا عيسى، وأشركوا بقولهم: ثالث ثلاثة، واتخذوا أحبارهم أرباباً في الطاعة في تحليل وتحريم، وفي السجود لهم.

وروىٰ الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا سفيان أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهو بإلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دِحية الكلبي إلىٰ عظيم بصرىٰ، فدفعه إلىٰ هرقل، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا غرابة في ذلك فإن الدعوة إلىٰ هذا الدين الجديد وجدت مقاومة من أهل الكتاب، ومن المشركين.

أما أهل الكتاب: فلأن فيه هدماً لدينهم كما يزعمون، وأما المشركون؛ فلأن للإلف والعادة سلطاناً علىٰ النفوس، وهذه الدعوة دكت حصون المعتقدات

---

(١) البحر المحيط.

التي توارثوها عن أسلافهم الغابرين، ووجدوا عليها آباءهم من قبل، كما حكىٰ الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ قيل[1]: نزلت هذه الآية في شأن نصارىٰ نجران كما قاله ابن عباس، وقيل: نزلت في شأن الفريقين اليهود والنصارى، وذلك أنه لما قَدِم وفد نجران المدينة،، والتقوا مع اليهود.. اختصموا في دين إبراهيم، فزعمت النصارىٰ أنه كان نصرانياً، وأنهم علىٰ دينه، وأولىٰ الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً، ونحن علىٰ دينه، وأولىٰ الناس به، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً، وأنا علىٰ دينه، فاتبعوا دينه الإسلام»، فقالت اليهود: يا محمد، ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارىٰ عيسى، وقالت النصارىٰ: يا محمد، ما تريد إلا أن نقول فيك كما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ..﴾ الآية[2]، روى ابن إسحاق بسنده المتصل إلىٰ ابن عباس قال: اجتمعت نصارىٰ نجران، وأحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾. الآية أخرجه البيهقي في «الدلائل».

قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآية، روىٰ ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل علىٰ محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتىٰ نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع،

(١) المراح. (٢) لباب النقول.

فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك قال: كانت اليهود تقول أحبارهم للذين من دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿تَعَالَوْا۟﴾؛ أي: أقبلو وهلموا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام في قراءة العامة، وقرأ أبو السمال: (كَلْمة) كضَربة، و (كِلْمة) كسِدْرة وكلتاهما شاذتان؛ أي: أقبلوا إلىٰ كلمة ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: إلىٰ كلمة مستوية بيننا وبينكم، وحكم حق لا تختلف فيه الأنبياء والرسل، ولا يختلف فيه التوراة والإنجيل والقرآن.

«من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم: سلامٌ علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم.. تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت.. فإنما عليك إثم الأريسين، و ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» هذا لفظ إحدىٰ روايات البخاري، وقد أخرجه بأطول من هذا، وفيه زيادة، وفي رواية: الأريسين، والأريس: الأكار: وهو الزراع والفلاح.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: لِمَ تجادلون وتنازعون في إبراهيم، وتزعمون أنه علىٰ دينكم ﴿و﴾ الحال أنه ﴿ما أنزلت التوراة﴾ علىٰ موسىٰ ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾ علىٰ عيسىٰ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: إلا من بعد إبراهيم بزمن طويل، أي: والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة، فكيف يكون من أهلها؟.

والمعنىٰ[1] أن اليهودية والنصرانية حدثتنا بنزول التوراة والإنجيل علىٰ موسى وعيسىٰ عليهما السلام، وكان إبراهيم قبل موسىٰ بألف سنة، وعيسىٰ بألفين، فكيف يكون عليهما؟ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أتدَّعون أن إبراهيم منكم، وعلىٰ دينكم، فلا تعقلون بطلان قولكم، وفساد دعواكم يا معشر اليهود والنصارىٰ حتىٰ لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال؟

وأورد[2] علىٰ هذا التأويل أن الإسلام أيضاً إنما حدث بعد إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ بزمان طويل، وكذلك إنزال القرآن، إنما نزل بعد التوراة والإنجيل، فكيف يصح ما ادعيتم في إبراهيم أنه كان حنيفاً مسلماً؟ وأجيب عنه: بأن الله عزّ وجلّ أخبر في القرآن بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فصح وثبت ما ادعاه المسلمون، وبطل ما ادعاه اليهود والنصارىٰ.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقرأ إما بألف وبعدها همزة إما محققة أو مسهلة، أو بدون ألف، والهمزة إما محققة أو مسهلة، أو بألف فقط بدون همزة أصلاً، فالقراءات خمسٌ، وكلها سبعية متواترة، أي: انتبهوا أنتم يا معشر اليهود والنصارىٰ. ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ وخاصمتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ أي: فيما وجدتم في كتبكم، وأنزل عليكم بيانه في أمر موسىٰ وعيسىٰ، وادعيتم أنكم علىٰ دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾ وتخاصمون ﴿فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾؛ أي: فيما ليس في كتابكم من أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما كان عليه إبراهيم من الدين ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، ثم صرَّح بما فهم من قبل تلويحاً، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾؛ أي: ما كان إبراهيم علىٰ دين اليهودية، ولا علىٰ دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرفة عن شرع موسىٰ، وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسىٰ. ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ إبراهيم ﴿حَنِيفٗا﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة كلها إلىٰ الدين الحق القويم ﴿مُّسۡلِمٗا﴾؛ أي: منقاداً

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

لأوامر الله التي ألزم بها في شريعته، لا على ملة الإسلام الحادثة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله؛ أي: لم يكن مشركاً، وفي هذا تعريض بأنهم كانوا مشركين في قولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وردٌّ على المشركين في ادعائهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أقربهم وأحقهم ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: بالانتساب إلى إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: لأتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده؛ كإسماعيل وإسحق ويعقوب وأولادهم، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ؛ لموافقته له في أكثر شرعه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ، فهم الذين يليق بهم أن يقولوا: نحن على دينه؛ لأن غالب شرع محمد ﷺ موافق لشرع إبراهيم؛ أي: في الأصول، أو في الفروع من حيث السهولة، فإن شريعة محمد ﷺ سهلةٌ نهلةٌ كشريعة إبراهيم، لا كشريعة موسى فإنها صعبة التكاليف بسبب عناد بني إسرائيل.

والحاصل: أن أحق الناس بدين إبراهيم فريقان:

أحدهما: من اتبعه من أمته.

وثانيهما: النبي وسائر المؤمنين من أصحابه ﷺ.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي ولاةً من النبيين، وإن وَليي: أبي وخليل ربي إبراهيم، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾» أخرجه الترمذي.

والخلاصة: أنَّ أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته والانتساب إليه هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين، وهذا النبي محمد ﷺ، والذين آمنوا معه، فإنهم أهل التوحيد المخلصون لله في أعمالهم دون شرك ولا رياء.

وهذا هو روح الإسلام، والمقصود من الإيمان، ومن فاته ذلك.. فقد فاته الدين كله، ثم ذكر أنهم مع نصرتهم لإبراهيم، فالله ناصرهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: ناصرهم وحافظهم ومكرمهم، فهو يتولىٰ أمورهم بالنصرة والتأييد، والتوفيق والتسديد، ويصلح شؤونهم، ويثيبهم بحسب تأثير الإسلام في قلوبهم، ويجازيهم بالحسنىٰ.

ونبَّه علىٰ الوصف الذي يكون به الله ولياً لعباده، وهو الإيمان فقال: ﴿وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل: وليهم، وهذا وعد لهم بالنصر في الدنيا، وبالفوز بالآخرة، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقرىء شاذاً[1]: ﴿وهذا النبي﴾ ـ بالنصب ـ عطفاً علىٰ الهاء في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيكون مُتَّبَعاً لا مُتَّبِعاً؛ أي: أحق الناس بإبراهيم من اتبعه هو، ومحمداً ﷺ، ويكون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفاً علىٰ خبر ﴿إِنَّ﴾ فهو في موضع رفع، وقرىء: ﴿وهذا النبيِّ﴾ بالجر، ووُجِّه علىٰ أنه عطف علىٰ إبراهيم؛ أي: إنَّ أولىٰ الناس بإبراهيم، وبهذا النبي للذين اتبعوا إبراهيم. قالوا: والنبي بدل من ﴿هذا﴾، أو نعت، أو عطف بيان منه.

ولما دعت اليهود معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر من دين الإسلام إلىٰ دين اليهودية.. نزلت هذه الآية: ﴿وَدَّت﴾؛ أي: أحبَّت وتمنَّت ﴿طَّآئِفَةٞ﴾؛ أي: جماعة ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم أحبارهم ورؤساؤهم كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾؛ أي: وَدُّوا أن يضلوكم عن دينكم الإسلام ويوقعوكم في الضلال بإلقاء الشبهات التي تشككم في دينكم، وتردكم إلىٰ ما كنتم عليه أولاً من الكفر. ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿ما يضلون﴾ عن دين الإسلام ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، أو أمثالهم، وما يعودُ وبالُ الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، فالمؤمنون لا يقبلون قولهم، فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين، وهم صاروا خائبين عن مرادهم؛ حيث اعتقدوا شيئاً، وظهر لهم أن الأمر بخلاف ما قصدوه. ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: ما يعلمون أن هذا التمني يضرهم ولا يضر المؤمنين؛ لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم،

---

(١) البحر المحيط.

وتمني إضلال المسلمين، وفي نفي الشعور عنهم نهاية الذم والاحتقار لهم.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارىٰ ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأيِّ سبب تنكرون وتجحدون بآيات الله الورادة في التوراة والإنجيل، من البشارة بمحمد ﷺ، والإخبار بأن الدين هو الإسلام، وبأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ﴿وَأَنتُمۡ﴾؛ أي: والحال أنكم ﴿تَشۡهَدُونَ﴾ وتعترفون صحتها إذا خلا بعضكم ببعض، وتنكرون اشتمال التوراة والإنجيل علىٰ الآيات الدالة علىٰ نبوة محمد ﷺ عند حضور عوامكم، وعند حضور المسلمين.

أو المعنىٰ: لِمَ تكفرون بالقرآن، فإنكم تنكرون عند العوام كونه معجزاً، وأنتم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزاً؟

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ﴾ وتخلطون ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ المنزل في التوراة من نعت محمد ﷺ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ المحرف من عندكم، كما نقل عن الحسن وابن سيرين، أو لِمَ تشككون الناس بإظهار الإسلام بالتواضع أولَ النهار، ثم الرجوع عنه في آخره؟ كما نقل عن ابن عباس وقتادة. ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ الموجود في التوراة من نبوة محمد ﷺ ونعته، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم تعلمون أنه رسول من عند الله، وأن دينه حق، وإنما كتمتم الحق عناداً وحسداً، وأنتم تعلمون ما تستحقون علىٰ ذلك الكتمان من العقاب.

وقرأ يحيىٰ بن وثاب شاذاً: ﴿تَلبَسون﴾ ـ بفتح الباء ـ مضارعُ لَبِس الثوب، جعل الحق كأنه ثوب لبسوه، والباء في ﴿بالباطل﴾ علىٰ هذه القراءة للحال؛ أي: مصحوباً بالباطل، وقرأ أبو مجلز شذوذاً: ﴿تُلبِسون﴾ ـ بضم التاء وكسر الباء المشددة ـ والتشديد هنا للتكثير، وقرأ عبيد بن عمير شذوذاً أيضاً: ﴿لم تلبسوا﴾ و ﴿تكتموا﴾ بحذف النون فيهما للجزم، قالوا: ولا وجه له إلا ما ذهب إليه من شَذّ من النحاة في إلحاق ﴿لِمَ﴾ بلَمْ في عمل الجزم، والثابت في «لسان العرب»: أن لِمَ لا ينجزم ما بعدها، ولم أرَ أحداً من النحويين ذكر أن: لِمَ تجري مجرىٰ ﴿لَمْ﴾ في الجزم إلا ما ذكره أهل التفسير هنا، وإنما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع في لغة بعض العرب، كما في قول الراجز:

أَبِيْتُ أَسْرِيْ وَتَبِيْتِيْ تُدَلِّكِيْ   شَعْرَكِ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْمِسْكِ ٱلذَّكِيْ

ثم ذكر نوعاً آخر من تلبيسات اليهود، فقال:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: جماعة منهم، وهم اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر، منهم: عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكعب بن الأشرف، وأصحابه من الرؤساء؛ أي: قال بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿ءَامِنُواْ﴾ وصدّقوا ظاهراً ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: بالقرآن الذي أنزل عليهم، وامتثلوا بما أمر به محمد ﷺ، وصلُّوا معهم إلىٰ قبلتهم الكعبة ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وأوله وهو صلاة الفجر ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾ به وارجعوا عنه ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾؛ أي: في آخر النهار، وهو صلاة الظهر، وصلُّوا إلىٰ بيت المقدس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل العوام من أصحابه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ويرتدون عن دينه وقبلته معكم.

وقيل: هذا في شأن القبلة، وذلك أنه لما صرفت إلىٰ الكعبة.. شق ذلك علىٰ اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أُنزل علىٰ محمد في أمر الكعبة، وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا وارجعوا إلىٰ قبلتكم آخر النهار؛ لعلهم يرجعون، فيقولون هؤلاء أهل كتاب، وهم أعلم، فيرجعون إلىٰ قبلتنا، فأطلع الله رسوله ﷺ علىٰ سرهم، وأنزل هذه الآية حتىٰ لا تُؤَثِّر هذه الحيلة في قلوب ضعفاء المؤمنين؛ ولأنهم إذا افتضحوا فيها.. لا يقدمون علىٰ أمثالها، ويكون هذا وَازِعاً لهم، وفي هذا إنباء بالغيب، فيكون معجزةً لمحمد ﷺ.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: معطوف علىٰ قوله ﴿ءَامِنُواْ﴾؛ أي: وقالت طائفة من أهل الكتاب: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملة معترضة من كلام الله سبحانه، وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ معمول لتؤمنوا؛ أي: وقالت جماعة من أهل الكتاب في تلبيساتهم علىٰ المؤمنين؛ أي: قال بعضهم لبعض: لا تظهروا إيمانكم واعترافكم؛ بأن يؤتىٰ ويعطىٰ أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة، أو يحاججكم أحد ويغالبكم عند ربكم يوم القيامة، إلا لمن وافىٰ دينكم، بل أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، وبأنهم يحاجونكم

عند ربكم يوم القيامة، ولا تفشوه إلا إلىٰ أشياعكم وجماعتكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ذلك ثباتاً علىٰ دينهم، ودون المشركين؛ لئلا يدعوهم ذلك إلىٰ الإسلام. قل لهم يا محمد: ليست الهداية بأيديكم، وإنما الهدىٰ هدىٰ الله، يهدي من يشاء إلىٰ الإيمان، ويثبته عليه، كما هدىٰ المؤمنين.

وهذا التفسير علىٰ كون اللام في قوله: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ أصلية متعلقة بـ ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾، ويحتمل كونها زائدة، و ﴿من تبع دينكم﴾: استثناء مقدَّم و ﴿أَحَدٌ﴾ في قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ مستثنىٰ منه مؤخر، والمعنىٰ على هذا: وقالت طائفة من أهل الكتاب لا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يؤتىٰ أحد من الناس مثل ما أوتيتم من النبوة والكتاب، أو يغالبكم عند ربكم يوم القيامة إلا من تبع دينكم؛ أي: إلا إن كان ذلك الأحد من أهل دينكم.. قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ بيد الله، يؤتيه من يشاء، وليس مخصوصاً بكم؛ أي: ليس الهدىٰ مقصوراً علىٰ شعب معين، أو واحد بذاته، بل الله سبحانه يهدي من يشاء من عباده علىٰ لسان من يريد من أنبيائه، ومن يهد الله فلا مضل له، فكيدهم لا يضير من أراد الله به الخير، بل يحبط تدبيرهم له.

وقيل: في الكلام تقدير مضاف منصوب علىٰ كونه مفعولاً لأجله، والمعنى: قالت طائفة من أهل الكتاب بعضهم لبعض: لا تصدقوا كل من يدعي النبوة حتىٰ تنظروا في أمره، فإن كان متبعاً لدينكم.. فصدقوه، وإلا فكذبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة إلا إذا كان علىٰ دينكم؛ خشية أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم بنبوة محمد، ولم تدخلوا في دينه.. تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ.

وعبارة «الخازن»: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هو كلام متصل بالأول، وهو من قول اليهود، يقول بعضهم لبعض: ولا تؤمنوا؛ أي: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم؛ أي: وأفتىٰ ملتكم التي أنتم عليها، وهي: اليهودية، واللام في ﴿لِمَن﴾: زائدة، كقوله تعالى: ﴿ردف لكم﴾؛ أي ردفكم. ﴿قُلْ إِنَّ

﴿ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن الدين دين الله، والبيان بيانه، وهذا خبر من الله تعالىٰ، ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين، وما بعده متصل بالكلام الأول، وهو إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض، ومعنىٰ الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات، من فلق البحر، وإنزال المن والسلوىٰ عليكم، وغير ذلك من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنكم أصح ديناً منهم، فلما أخبر الله تعالىٰ ذلك عن اليهود.. قال في أثناء ذلك ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

والمعنىٰ: إن الذي أنتم عليه إنما صار ديناً بحكم الله وأمره، فإذا أمر بدين آخر.. وجب اتباعه والانقياد لحكمه؛ لأنه هو الذي هدىٰ إليه وأمر به.

وقيل: إن المعنىٰ: قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله، وقد جئتكم به، ولن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف.

وقرأ الحسن والأعمش شذوذاً: ﴿إن يؤتي﴾ ـ بكسر الألف ـ فيكون قول اليهود تاماً عند قوله: إلا لمن تبع دينكم، وما بعده من قول الله تعالى.

والمعنىٰ: قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾، وتكون ﴿أنْ﴾ بمعنىٰ الجحد والنفي؛ أي: ما يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا محمد من الدين والهدىٰ، و ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ بمعنىٰ: إلا؛ أي: إلا أن يحاجوكم؛ أي: اليهود بالباطل، فيقولوا: نحن أفضل منكم عند ربكم؛ أي: عند فعل ربكم وجزائه، وقيل: ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ بمعنىٰ: حتى، ومعنىٰ الآية: ما أعطىٰ الله أحداً مثلَ ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة، حتىٰ يحاجوكم عند ربكم.

وقرأ ابن كثير: ﴿أأن يؤتى﴾ بهمزتين: الأولى محققة والثانية مسهلة، وذلك علىٰ الاستفهام التوبيخي، وحينئذٍ يكون في الكلام اختصار تقديره: إن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة.. تحسدونه ولا تؤمنون به. هذا قول قتادة والربيع، قالا هذا من قول الله تعالىٰ يقول:

قل لهم يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله إلا إن أنزل الله كتاباً مثل كتابكم، وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ علىٰ هذه القراءة رجوع إلىٰ خطاب المؤمنين، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ إنْ الشرطية، لأنهما حرفا شرط وجزاء، يوضع أحدهما موضع الآخر.

والمعنىٰ: وإن يحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم.. فقل يا محمد: إن الهدىٰ هدىٰ الله، ونحن عليه، ويحتمل أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين، ويكون نظم الآية.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾؛ أي: ما يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين، فإن حسدوكم.. فقل: إن الفضل بيد الله، وإن حاجوكم.. فقل: إن الهدىٰ هدىٰ الله.

ويحتمل أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ من كلام الله تعالىٰ، ثبَّت به قلوب المؤمنين؛ لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم. يقول الله عزّ وجلّ: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتىٰ أحدٌ مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم، أو يقدروا علىٰ ذلك، فإن الهدىٰ هدى الله، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع، فتكون الآية كلها خطاباً للمؤمنين عند تلبيس اليهود؛ لئلا يرتابوا ولا يشكُّوا. انتهت.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن ذلك في الآخرة.

والثاني: عند كتب ربكم الشاهدة عليكم ولكم، وأضاف ذلك إلىٰ الرب تشريفاً، وكأن المعنىٰ: أو يحاجوكم عند الحق، ذكره أبو حيان.

وقال الشوكاني: وقد قيل: إن هذه الآية أعظم آي هذه السورة إشكالاً، وذلك صحيح. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ بالرسالة والنبوة والإسلام وقبلة إبراهيم مثلاً

﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ فإنه مالك له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده؛ أي: يعطيه محمداً وأصحابه.

والله تعالىٰ حكىٰ عن اليهود أمرين:

أحدهما: أنهم آمنوا وجه النهار وكفروا آخره؛ ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام، فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن مع كمال هداية الله وقوة بيانه، لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر.

وثانيهما: أنهم استنكروا أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكمة والنبوة، فأجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل وكامل القدرة، فيقدر أن يتفضل علىٰ أي عبد شاء بأي تفضل شاء ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: كامل العلم، فلا يكون شيء من أفعاله إلا علىٰ وجه الحكمة والصواب. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: يخص برحمته من النبوة والرسالة والدين، أي: برحمته التي بلغت في الشرف وعلو المرتبة إلىٰ أن تكون أعلىٰ وأجل من أن تقاس، أي: يجعل رحمته مقصورة علىٰ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده؛ أي: محمداً وأصحابه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمنّ الجسيم، فلا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده، والله أعلم بمعنىٰ كلامه، وهو ولي التوفيق لأقوم العبارة والتحقيق، وهذا من المواضع التي تشاك فيها الأقدام، وتكل فيها الأقلام، وارتابت فيها الأفهام، وارتبكت فيها الأعلام إلا من مُنح بمنح العالم العلّام. قال الواحدي: وهذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً وإعراباً، ولقد تدبرت أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية، فلم أجد قولاً يطرد في الآية من أولها إلىٰ آخرها مع بيان المعنىٰ، وصحة النظم.

الإعراب

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ منادىٰ مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلۡ﴾. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾: متعلق بـ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ ﴿سَوَآءِۭ﴾: صفة لـ ﴿كَلِمَةٖ﴾؛ لأنه في تأويل مستوية، ﴿بَيۡنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿سَوَآءِۭ﴾. ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿أَلَّا﴾: ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾ نافية. ﴿نَعۡبُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن)، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي ومن معه من أهل الكتاب ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: منصوب علىٰ الاستثناء، والمستثنى منه محذوف تقديره: أحداً إلا الله، والجملة الفعلية صلة (أنْ)، (أنْ) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بدل من ﴿كَلِمَةٖ﴾، أو مرفوع علىٰ كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي عدم عبادتنا غير الله.

﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُشۡرِكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نَعۡبُدَ﴾، منصوب بـ ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود علىٰ النبي ومن معه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿نُشۡرِكَ﴾ ﴿شَيۡـٔٗا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نَعۡبُدَ﴾ علىٰ كونها في تأويل مصدر مجرور أو مرفوع ﴿وَلَا﴾: الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية ﴿يَتَّخِذَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نَعۡبُدَ﴾، ﴿بَعۡضُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه ﴿بَعۡضًا﴾: مفعول أول ﴿أَرۡبَابٗا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿نَعۡبُدَ﴾ علىٰ كونها في تأويل مصدر مجرور أو مرفوع ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أرباباً﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا قلت لهم ما أمرتك به، وأردت بيان حكم ما إذا أعرضوا.. فأقول لك (إن): حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿أن﴾ علىٰ كونه فعل شرط لها. ﴿فَقُولُواْ﴾: الفاء رابطة لجواب (إن) وجوباً. ﴿قولوا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ (إنْ) علىٰ كونه جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل

النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: مقول محكي لـ ﴿قولوا﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿ٱشْهَدُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قولوا﴾. ﴿بِأَنَّا﴾: الباء حرف جر (أنا): حرف نصب، واسمها. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: خبرها، وجملة (أن) في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بكوننا مسلمين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ٱشْهَدُوا۟﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء مستأنفة، أو في محل النصب معطوفة بعاطف مقدَّر علىٰ جملة ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأولىٰ. ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري التوبيخي أو التعجبي في محل الجر وباللام مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين (ما) الموصولة ـ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تُحَآجُّونَ﴾ المذكور بعده. ﴿تُحَآجُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب مقول القول علىٰ كونها معطوفة ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: متعلق بـ ﴿تُحَآجُّونَ﴾. ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ﴾: الواو حالية ﴿ما﴾: نافية، ﴿أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أُنزِلَتِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من إبراهيم تقديره: لم تحاجون في إبراهيم، والحال أن التوراة والإنجيل متأخران عنه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة علىٰ مقدَّر هو المعطوف عليه بهذا العاطف المذكور ـ أعني: الفاء ـ تقديره: ألا تتفكرون. ﴿فلا تعقلون﴾: الفاء عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَعْقِلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ألا تتفكرون المقدرة علىٰ كونها جملة استفهامية لا محل لها من الإعراب.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ

﴿يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾.

﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿أنتم هؤلاء﴾: أنتم: مبتدأ، ها: حرف تنبيه، أولاء: اسم إشارة للجمع المذكر في محل النصب منادىٰ نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء، مبني بضم مقدر، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة البناء الأصلي، وجملة النداء معترضة لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿حَاجَجْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم ﴿عِلْمٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿عِلْمٌ﴾؛ إذ لو تأخر.. لصح جعله نعتاً، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿عِلْمٌ﴾؛ لأنه مصدر، والمصدر لا يتقدم معموله عليه، والجملة الاسمية صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾ ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾: الفاء عاطفة، اللام: حرف جر، (م): اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تُحَاجُّونَ﴾ المذكور بعده، ﴿تُحَاجُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾، ﴿فِيمَا﴾، جار ومجرور متعلق بـ ﴿تحاجون﴾. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿بِهِۦ﴾: حال من علم؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليه. ﴿عِلْمٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو استئنافية (الله): مبتدأ، ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو عاطفة ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾.

﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾: اسمها، ﴿يَهُودِيًّا﴾: خبرها، ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾: الواو اعتراضية ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص،

واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: خبر أول لها، ﴿مُّسْلِمًا﴾ خبر ثانٍ، وجملة ﴿كَانَ﴾ جملة استدراكية معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الواو عاطفة، (ما) نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور خبرها، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولىٰ.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: متعلق بـ ﴿أَوْلَى﴾، ﴿لَلَّذِينَ﴾: اللام حرف ابتداء (الذين): اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿وَهَٰذَا﴾ في محل الرفع معطوف علىٰ الموصول. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لاسم الإشارة، أو بدل، أو عطف بيان منه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع معطوف علىٰ الموصول الأول ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو عاطفة (الله): مبتدأ ﴿وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾، ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ﴿لَوْ﴾ المصدرية ﴿لَوْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية تقديره: وَدَّتْ طائفة من أهل الكتاب إضلالهم إياكم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾: الواو حالية (ما): نافية ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة حال من فاعل ﴿لو يضلون﴾، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿يَشْعُرُونَ﴾:

فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: منادىٰ مضاف، وجملة النداء مستأنفة ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾. ﴿تَكۡفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو حالية، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَشۡهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء معطوفة علىٰ جلة النداء الأولىٰ ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ﴾: ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَلۡبِسُونَ﴾، ﴿تَلۡبِسُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. ﴿ٱلۡحَقَّ﴾: مفعول به ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ متعلق بـ ﴿تَلۡبِسُونَ﴾: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف علىٰ ﴿تَلۡبِسُونَ﴾. ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: الواو حالية ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تكتمون﴾.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾.

﴿وَقَالَت﴾ الواو استئنافية، ﴿قالت طائفة﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ ﴿طَّآئِفَةٞ﴾، ﴿ءَامِنُواْ﴾ إلىٰ آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿ءَامِنُواْ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، الجملة صلة الموصول ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بقوله ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾. ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾: الواو عاطفة ﴿اكفروا﴾: فعل وفاعل ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾:

ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ ﴿اكفروا﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيٓ أُنزِلَ﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجٍ وتعليل، والهاء اسمها، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ ﴿اكفروا﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تُؤْمِنُوٓا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيٓ أُنزِلَ﴾ علىٰ كونها مقولاً لـ ﴿قالت﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِمَن﴾: اللام زائدة (من): اسم موصول في محل النصب علىٰ الاستثناء مقدَّم علىٰ المستثنى منه ﴿تَبِعَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على (من)، والجملة صلة الموصول ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة معترضة؛ لاعتراضها بين العامل والمعمول. ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ اسمها ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: خبرها ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ ﴿أَن﴾ ﴿أَحَدٌ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لـ (أتىٰ)؛ لأنه بمعنىٰ: أعطى، وهو المتثنى منه ﴿مِّثْلَ مَآ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه ﴿أُوتِيتُمْ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: أوتيتموه، وهو العائد على (ما)، وجملة ﴿أُوتِيتُمْ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجملة ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿أن﴾: مع صلتها في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا﴾ تقديره: ولا تؤمنوا إيتاء أحد من الناس مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم، أي: إلا إيتاءه. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾: أو: حرف عطف، ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف علىٰ ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ آخر الآية التالية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: اسمها. ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ، وجملة ﴿يَشَآءُۗ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: من يشاء إيتاءه، وجملة ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ في محل الرفع خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يؤتيه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿وَٰسِعٌ﴾: خبر أول ﴿عَلِيمٞ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة ﴿يَخۡتَصُّ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة ﴿بِرَحۡمَتِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَخۡتَصُّ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَخۡتَصُّ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُۗ﴾ صلة ﴿مَن﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾: أصل تعالوا: تعاليوا، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع الواو ـ كما مر ـ، وسواء: اسم مصدر بمعنىٰ؛ الاستواء، ويوصف به علىٰ أنه بمعنىٰ: مستو، فيحتمل حينئذٍ ضميراً، ويرفع الظاهر، ومنه قولهم: مررت برجل سواء والعدم ـ برفع العدم ـ، علىٰ أنه معطوف علىٰ الضمير المستكن في سواء، ولا يثنىٰ، ولا يجمع، إما لكونه في الأصل مصدراً وإما للاستغناء عن تثنيته بتثنية نظيره، وهو سيّ بمعنىٰ مثل، تقول: هما سِيَّان؛ أي: مثلان، وليس هو الظرف الذي يستثنىٰ به في قولهم: قاموا سواء زيد وإن شاركه لفظاً.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ﴾: وأولىٰ: اسم تفضيل من ولىٰ يلي، وألفه منقلبة عن

ياء؛ لأن فاءه واو، فلا تكون لامه واواً؛ إذ ليس لنا في كلام العرب ما فاؤه ولامه واو إلا واو التهجي، فمعنى ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾: أخصهم به وأقربهم منه؛ لأنه من الوَلي بمعنىٰ: القرب.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾: يقال: وددتُ لو تفعل كذا ـ من فَعِل المكسور المضاعف ـ يَوَد بفتح العين علىٰ القياس وُداً بضم أوله وفتحه ووِداداً ووَدادة بالفتح فيهما؛ أي: تمنيت وودت لو أنك تفعل كذا مثله، ووددت الرجل بالكسر وُداً بضم أوله: أحببته، والود ـ بضم الواو وفتحها وكسرها ـ: المودة ذكره في «المختار» ﴿والطائفة﴾ من الشيء: القطعة منه وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الواحد فما فوقه. انتهى. «مختار».

﴿تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾: اللبس الخلط، يقال: لبس الأمر عليه إذا اشتبه واختلط عليه يلبِس من باب: ضَرَب.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية، وناصبة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ ـ كما مر، ومعناه أوَّلَ[1] النهار. شُبِّه بوجه الإنسان؛ لأنه أول ما يواجه من النهار، وقال الربيع بن زياد العبسي في مالك بن زهير بن خزيمة العبسي:

مَنْ كانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ   فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهَارِ

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: يقال: اختصه بكذا إذا خصه به، وهو من باب: افتعل فبناؤه لمبالغة الثلاثي، والله أعلم.

البلاغة

وقد جمعت هذه الآية من ضروب البلاغة أنواعاً كثيرة[2]:

فمنها: المجاز في قوله: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾؛ حيث أطلق اسم الواحد علىٰ الجمع.

---

(١) البحر المحيط.   (٢) البحر المحيط.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إلا الله﴾ ﴿وإن الله﴾، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ﴾، وفي قوله: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ و ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ و ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿أَرۡبَابًا﴾ لما أطاعوهم في التحليل والتحريم، وأذعنوا إليهم.. أطلق عليهم أرباباً تشبيهاً لهم بالرب المستحق للعبادة والربوبية.

ومنها: الإجمال في الخطاب في قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾؛ كقول إبراهيم. ﴿يا أبت﴾، ﴿يا أبت﴾، وكقول الشاعر:

مَـهْـلاً بَـنِـيْ عَـمِّـنَـا مَـهْـلاً مَـوَالِـيْـنَـا ... لاَ تَـنْـبُـشُـوْا بَـيْـنَـنَـا مَـا كَـانَ مَـدْفُـوْنَـا

وقول الآخر:

بَنِيْ عَمِّنَا لاَ تَنْبُشُوْا ٱلشَّرَّ بَيْنَنَا ... فَكَمْ مِنْ رَمَادٍ صَارَ مِنْهُ لَهِيْبُ

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أَوۡلَى﴾ و﴿وَلِيُّ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾، ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾؛ لأن الشهادة إقرار وإظهار، والكفر ستر.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل والتكرار في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ و ﴿ءَامَنُواْ﴾، وفي ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ و ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، وقوله؛ ﴿يُؤۡتَىٰٓ﴾ و ﴿أُوتِيتُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ﴾ و﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾.

ومنها: التكرار أيضاً في اسم الله في أربعة مواضع.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾ وفي قوله: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ و ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ لأنه وقت اجتماعهم بالمؤمنين يراؤونهم و ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾؛ لأنه وقت خلوتهم بأمثالهم من الكفار والحذف في مواضع.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبكيت[1] لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلىٰ أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم، وإزراء علىٰ من قلد الرجال في دين الله، فحلل ما حللوه له، وحَرَّم ما حرموه عليه، فإنَّ من فعل ذلك.. فقد اتخذ من قلده رباً، ومنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الشوكاني.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

المناسبة

لمَّا بين الله سبحانه وتعالى خيانة أهل الكتاب في الدين وقبائحهم وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها، زعماً أنَّهم شعب الله المختار، وأنَّ الدين الحق خاص بهم، لا يعدوهم إلى شعب آخر، ولا إلى أمة أخرى.. أردف ذلك بذكر أوصاف طائفة أخرى منهم تخون الأمانات، وتستحل أكل أموال الناس بالباطل، تأويلاً للكتاب وغروراً في الدين، وهم اليهود خاصة، فهم خائنون من جهة الدين والمال فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن شقيق، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء هو عليها فاجر.. لقي الله وهو

عليه غضبان»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ الآية، فجاء الأشعث فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن، فيَّ أنزلت هذه الآية؟ كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، فقال لي: شهودك؟ قلت: مالي شهود، قال: فيمينه، قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف، فذكر النبي ﷺ هذا الحديث، فأنزل الله ذلك تصديقاً له.

وأخرج البخاري أيضاً من حديث عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلف فيها: لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا...﴾ الآية.

قال الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»، ولا منافاة بين الحديثين، بل يحمل على أنَّ النزول كان بالسببين معاً، ولفظ الآية أعم.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة[1]: أنَّ الآية نزلت في حيـي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة، وبدّلوه، وحلفوا أنّه من عند الله، قال الحافظ ابن حجر: الآية محتملة، لكن العمدة في ذلك ما ثبت في «الصحيح».

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ الآية، أخرج[2] ابن إسحاق والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو رافع القرظي ـ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام ـ: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال ﷺ: «معاذ الله». فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وأخرج عبد الرزاق في «تفسيره» عن الحسن قال: بلغني أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله؛ فإنَّه لا ينبغي أنْ يُسجَد لأحد من دون الله»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في الأموال بعد بيان خيانتهم في الدين، وفي «الخازن»؛ نزلت هذه الآية في اليهود، أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ فيهم أمانة وخيانة، وقسمهم قسمين، فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ومن اليهود ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾؛ أي: مَنْ إذا جعلته أميناً علىٰ مال كثير، وأودعته عنده ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ أي: يدفع ذلك القنطار ويرده ﴿إِلَيْكَ﴾ بلا خيانة فيه ولا تعب، لشدة أمانته، وكمال وثوقه؛ كعبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريش ألفاً ومئتي أوقية من ذهب، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن اليهود ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾؛ أي: من إذا جعلته أميناً علىٰ مال قليل، فضلاً عن كثير ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ أي: لا يدفع ذلك الدينار، ولا يرده ﴿إِلَيْكَ﴾ بل يستحله ويخون فيه، ؛ كفنحاص بن عازوراء، استودعه رجل من قريش ديناراً، فجحده وخانه ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾؛ أي: لا يرده إليك في جميع المُدَدَ والأزمنة، إلا مدة دوامك يا صاحب الحق قائماً على رأسه، ملازماً له، مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع، وإقامة البنية عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: تقوم عليه، وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة. وقيل: أراد أنَّه إنْ أودعته شيئاً، ثمَّ استرجعته منه في الحال، وأنت قائم علىٰ رأسه لم تفارقه.. رده عليك، وإنْ أخرت استرجاع ما أودعته.. أنكره ولم يرده عليك.

وقيل: أهل الأمانة هم النصارى، وأهل الخيانة هم اليهود؛ لأنَّ مذهبهم: أنْ يحل قَتل من خالفهم في الدين، وأخذ ماله بأي طريق كان ﴿تَأْمَنْهُ﴾ هذه[١] قراءة الجمهور، وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلي شذوذاً: (تيمنه) بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم، ومثله قراءة من قرأ شذوذاً: ﴿نِستعين﴾ بكسر النون.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ بكسر الهاء ووصلها بياء، وقرأ قالون باختلاس الحركة، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والأعمش: بالسكون، وقال الفراء:

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون: ضربته ضرباً شديداً، كما يسكنون ميم أنتم وقمتم، وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط، ليس بشيء؛ إذ هي قراءة في السبعة، وهي متواترة.

وقرأ أبو المنذر سلام والزهري شذوذاً[(١)]: ﴿يؤده﴾ بضم الهاء بغير واو، وقرأ قتادة وحمزة ومجاهد شذوذاً أيضاً: بواو في الإدراج.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي[(٢)]، ويحيى بن وثاب، والأعمش وابن أبي ليلى، والفياض بن غزوان، وطلحة وغيرهم شذوذاً: (دِمت) بكسر الدال، وهي لغة تميم.

وخلاصة الكلام: أنّ أهل الكتاب طائفتان:

الأولى: طائفة تُؤَمَّن علىٰ الكثير والقليل،؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه، استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية من ذهب، فأداها إليه كما مرَّ.

والثانية: طائفة أخرىٰ تخون الأمانة، فلو استودعتها القليل جحدته، ولا تؤديه إليك إلا إذا أدمت الوقوف علىٰ رأسها، ملحاً في المطالبة، أو لاجئاً إلى التقاضي والمحاكمة، ومن هؤلاء: كعب بن الأشرف، استودعه قريش ديناراً فجحده.

ثمَّ بيَّن السبب في فعلهم هذا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخيانة وترك أداء الأمانة، واستحلال أموال الناس، مستحق لهم ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾؛ أي: بسبب أنهم يقولون: ليس علينا فيما أخذنا من أموال المشركين من العرب سبيل؛ أي: مؤاخذة، وتبعة، وإثم عند الله تعالىٰ؛ لأن أموال العرب حلال لنا؛ لأنهم ليسوا على ديننا، ولا حرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم، أو المعنى: ليس علينا فيما أصبنا

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

من أموال العرب سبيل؛ أي: قدرة علىٰ المطالبة والإلزام؛ فإنَّهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: أنَّ الأموال كلها كانت لنا، فما في يد العرب فهو لنا، وإنَّما هم ظلمونا وغصبوها منا، فلا سبيل علينا في أخذها منهم بأي طريق كان.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ أي: يفترون علىٰ الله الكذب بادعائهم أنَّ ذلك في كتابهم. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم كاذبون في ذلك؛ أي: أنَّهم قالوا: إنَّ جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة، وكانوا كاذبين في ذلك، وعالمين بكونهم كاذبين فيه، ومَنْ كان كذلك.. كانت خيانته أعظم، وجرمه أفحش.

لكنهم لمَّا لم يكتفوا بالكتاب، ولجؤوا إلىٰ التقليد، وعدّوا كلام أحبارهم ديناً، وهؤلاء قالوا في الدين بالرأي والهوىٰ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، ليؤيدوا آرائهم.. وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم علىٰ ما يدَّعون.

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة؛ فإنَّها مؤداة إلىٰ البرِّ والفاجر».

﴿بَلَىٰ﴾: حرف يجاب به النفي، فيصير إثباتاً لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين؛ أي: بلىٰ علىٰ اليهود في العرب سبيل، فعلىٰ هذا يَحسن الوقف عليها، ثم يبتدىء بما بعده، وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدت ﴿بَلَىٰ﴾ مسدها، والضمير في ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ يرجع إلى الله تعالىٰ؛ أي: ولكن من أوفى بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، أو بأداء الأمانة إلىٰ من ائتمنه عليها، وقيل: الهاء في قوله: ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ عائد إلىٰ الموفي؛ أي: بعهده فيما بينه وبين الله، أو فيما بينه وبين الناس.

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: خاف عقاب الله بالكفر والخيانة، ونقض العهد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والخيانة؛ أي: يثيبهم علىٰ

تقواهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى ﴿مَنْ﴾؛ أي: فإنَّ الله يحبه، أخبر تعالى: بأن من أوفى بالعهد، واتقى الله في نقضه.. فهو محبوب عند الله.

وهذه الآية[١] دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد، وذلك لأنَّ الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً؛ لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله، وذلك أمر الله، فالوفاء بالعهد تعظيم لأمر الله، ثم الوفاء كما يكون في حق الغير، يكون في حق النفس، فالوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات، والتارك للمحرمات.

وخلاصة المعنى: بلى عليكم يا معشر اليهود في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالاً إلى أجل، أو باعك بثمنٍ مؤجل، أو ائتمنك على شيء.. وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له في حينه، دون حاجة إلى الإلحاف في الطلب، أو إلى التقاضي، وبذلك قضت الفطرة، وحتمت الشريعة، وفي هذا إيماء إلى أنَّ اليهود لم يجعلواالوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته، بل العبرة عندهم المعاهِد، فإنَّ كان إسرائيلياً.. وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره.

والعهد ضربان:

الأول: عهد المرء لأخيه في العقود والأمانات كما تقدم.

والثاني: عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه، من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله. واليهود لم يفوا بشيء منهما، إذ لو وفوا بعهد الله.. لآمنوا بالنبي ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى عليه السلام.

---

(١) المراح.

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد، المتقين بالإخلاف والغدر، محبته تعالى ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى أنَّ الوفاء بالعهود، واتقاء الإخلاف فيها، وفي سائر المعاصي والخطايا، هوالذي يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلاً لمحبته، أما الانتساب إلى شعب بعينه، والافتخار والترفع به على غيره، كما كثر في عصرنا هذا والعياذ بالله، فلا قيمة له عند الله تعالى.

وفي هذا أيضاً تعريض بأنَّ أصحاب هذا الرأي من اليهود ليسوا على حظ من التقوى، وهي الدعامة الأساسية في كل دين قويم، رزقنا الله إياها وجميع المسلمين.

وأخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» وفي رواية «إذا حدث كذب، وإذ وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الباء فيه داخلة على المتروك؛ أي: إنَّ الذين يأخذن بنقض عهد الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ، والأداء بالأمانات ﴿وبـ﴾ ـحنث ﴿أيمانهم﴾ وحلفهم من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا، والمراد بالثمن القليل متاع الدنيا من الرشا والتراؤس ونحو ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾؛ أي: لا نصيب ﴿لَهُمۡ فِي﴾ خير ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة أي: يشتد غضب الله عليهم ﴿وَلَا يَنظُرُ﴾ الله ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ بالإحسان والرحمة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

والمعنىٰ: إنَّ الذين يستبدلون بعهد الله إلى الناس في كتبه المنزلة، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ويتقوه في جميع الأمور، وبما حلفوا

عليه من قولهم: لنؤمنن به ولننصرنه، أي: يأخذون بدل وفاء عهدهم وبَرِّ أيمانهم ثمناً قليلاً هو العوض أو الرشا أولئك لا نصيب لهم في منافع الآخرة ونعيمها، ويغضب عليهم ربهم، ولا ينظر إليهم ولا يثنى عليهم يوم القيامة، ولهم عذاب أليم، هو الغاية في الألم.

قال القفال: هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم؛ لأن من منع غيره كلامه في الدنيا.. فإنَّما ذلك لسخطه عليه، وقد يأمره بحجبه عنه ويقول؛ لا أكلمك ولا أرى وجهك، وإذا جرى ذكره.. لم يذكره بالجميل اهـ.

وخلاصة القول: إنَّ الله توعد الناكثين للعهد، المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنَّهم يكونون في غضب الله، بحيث لا ترجى لهم رحمة، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة، ولم يتوعد الله تعالى مرتكبي الكبائر من الزناة وشاربي الخمر، ولاعبي الميسر، وعاقي الوالدين، بما توعد به ناكثي العهود، وخائني الأمانات، لأنَّ مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد، التي لأجلها حرمت تلك الجرائم.

فالوفاء بهما آية الدين البينة، والمحور الذي تدور عليه مصالح العمران، فمتى نكث الناس في عهودهم.. زالت ثقة بعضهم ببعض، والثقة روح المعاملات، وأساس النظام.

والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة، والنكث بالعهد، ألا ترى أنَّ النبي ﷺ جعله علامة النفاق فقال: «آية النفاق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» كما مر آنفاً.

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فما بال كثير من المسلمين ـ حتى المتدينين منهم ـ استهانوا بالعهود، وأصبحوا لا يحفظون الأيمان، ويرون ذلك شيئاً صغيراً، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد، ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها لعدم الإلف

والعادة فقط، مع أنَّها دون ذلك عند الله، كما تدل عليه هذه الآية.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل حلف على سلعة: لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل ماله فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي ما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وروى مسلم أيضاً عن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه.. حرم الله عليه الجنة، وأوجب له النار، فقالوا: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإنْ كان قضيباً من أراك».

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وإنَّ من اليهود ﴿لَفَرِيقًا﴾؛ أي: لطائفة ﴿يَلْوُونَ﴾؛ أي: يفتلون ويعطفون ﴿أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: بقراءة الكتاب، فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، ويبدلون المحرف عن المنزل، كتحريفهم حركات الإعراب في آية الرجم، واللفظة الدالة على نبوة محمد ﷺ، تحريفاً يتغير به المعنى ﴿لتحسبوه﴾؛ أي: لتظنوا أيها المسلمون أنَّ ذلك المحرف ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من كلام الله وتنزيله، يعني من التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: والحال أنَّ ذلك المحرف ليس من التوراة المنزل من عند الله، ولكنَّه من عند أنفسهم.

والمعنى(١): يلوون ألسنتهم ويعطفونها عن اللفظ المنزل إلى المحرَّف؛ لكي يظن السفلة أو المسلمون أنَّ المحرف من التوراة، وما هو من الكتاب؛ أي: والحال أن المحرف ليس من التوراة في نفس الأمر، وفي اعتقادهم ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) المراح.

﴿هُوَ﴾؛ أي: المحرف ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: موجود في كتب سائر الأنبياء، مثل شعياء وأرخياء وحيفوف ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فالأغمار الجاهلون بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنَّه من التوراة، والأذكياء زعموا أنَّه موجود في كتب سائر الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليهم السلام، وعلم من هذا التفسير المغايرة بين اللفظين، فإنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله، فإنَّ الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب، وتارة بالسنّة، وتارة بالإجماع وتارة بالقياس، والكل من عند الله.

وفي «الخازن» قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وإنَّما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى.. لأجل التأكيد؛ أي: إنَّهم[1] كاذبون فيما يقولون، وفي هذا تشنيع عليهم، بأن الجرأة قد بلغت بهم حداً عظيماً، فهم لم يكتفوا بالتعريض والتورية، بل يصرحون بنسبته إلى الله كذباً، لعدم خوفهم منه، واعتقادهم أنَّه يغفر لهم جميع ما يجترحون من الذنوب؛ لأنَّهم من أهل ذلك الدين.

وليس ذلك بالغريب عليهم، فإنَّا نرى كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أنَّ المسلم من أهل الجنة حتماً، مهما أصاب من الذنوب؛ لأنَّه إنْ لم تدركه الشفاعة. أدركته المغفرة، ويجلِّي اعتقادهم ذلك قولهم: أمة محمد بخير.

فالمسلم في نظرهم من اتخذ الإسلام ديناً، وإنْ لم يعمل بما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، من صفات المسلمين الصادقين، بل ولو فعل فِعْل الكافرين والمنافقين.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم كاذبون؛ أي: يتعمدون ذلك الكذب مع العلم، وهذا تأكيد وتسجيل عليهم بأنَّ ما افتروه على الله.. كان عن عمد لا عن خطأ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما[2]: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

الأشرف، وغيروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوا، فخلطوه بالكتاب الذي عندهم، وقد جاء في كتب السيرة والحديث: أنَّ اليهود كانوا إذا سلَّموا على النبي ﷺ يمضغون كلمة السلام، فيخفون اللام ويقولون: السام عليكم غير مفصحين بالكلمة؛ لأنَّهم يريدون معنى السام وهو الموت، وجاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ فهؤلاء وضعوا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ مكان «لا أسمعت مكروها» التي تقال عادة عند الدعاء و ﴿راعنا﴾ مكان انظرنا التي يقولها الناس لمن ينتظرون معونته ومساعدته، وإنَّما قالوا: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لأنَّها قد تستعمل في الدعاء على المخاطب، بمعنى لا سمعت، وقالوا: ﴿راعنا﴾ لأنَّ هذه الكلمة عبرانية أو سريانية، كانوا يَتَسابون بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَلْوُۥنَ﴾ مضارع لوى الثلاثي، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، وأبو حاتم عن نافع شذوذاً: ﴿يلوّون﴾ بالتشديد، مضارع لوّى مشدداً، ونسبها الزمخشري إلى أهل المدينة، والتضعيف للمبالغة والتكثير، لا للتعدية، وقرأ حميد شاذاً: (يلُوُن) بضم اللام، ونسبها الزمخشري إلى أنَّها رواية عن مجاهد وابن كثير، ووجهت على أنَّ الأصل يلوون، ثمَّ أبدلت الواو همزة، ثم نقلت حركتها إلى الساكن قبله، وحذفت هي.

وقرأ الجمهور: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ والمخاطب المسلمون وقرىء شاذاً: ﴿ليحسبوه﴾ بالياء وهو يعود على المسلمين أيضاً، كما هم المراد بالمخاطبين في قراءة العامة، والمعنى: ليحسب المسلمون أنَّ المحرف من التوراة.

ولمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى فيما سلف افتراء اليهود على الله الكذب، ونسبتهم إليه ما لم يقله.. أردف ذلك بذكر افترائهم على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فقال:

---

(١) البحر المحيط.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، أي: لا ينبغي ولا يليق لأحد من البشر، ولا لأحد من الأنبياء، كعيسى وموسى ومحمد عليهم السلام ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا يعطيه الله ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة أو الإنجيل أو القرآن ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: الفهم لذلك الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر المشرف بالصفات الثلاثة ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا﴾ كائنين ﴿لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين لله، أشراكاً أو أفراداً والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنَّما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته، والغرض أنَّه لا يصح أصلاً، ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط، أعطاه الله النبوة والشريعة، فضلاً على أنْ يحصل ذلك بالفعل، لأنَّ الرسول سفير بين الله وخلقه، ليرشد الناس على عبادة الله، فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟!

والمعنىٰ: أي لا ينبغي لأحد من البشر أن ينزل الله عليه كتابه ويعلمه فقه دينه، ومعرفة أسراره، ويعطيه النبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله؛ لأنَّ من أتاه الله ذلك؛ فإنَّما يدعوهم إلى العلم به، ويحثهم على شرائع دينه، وأن يكونوا القدوة في طاعته وعبادته، ومعلمي الناس الكتاب.

ومعنىٰ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين ما يجب من إفراده؛ فإنَّ العبادة الصحيحة لا تتحقق إلا إذا أخلصت له وحده، ولم تشبها شائبة، من التوجه إلى غيره كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ ومن دعا إلى عبادة نفسه.. فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله، وإنْ لم ينههم عن عبادة الله، بل وإنْ أمرهم بعبادة الله، وفي هذه الآية دلالة على عصمة الأنبياء.

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري.. تركته وشركه» وفي رواية «فأنا منه بريء، هو للذي عمله» رواه مسلم وغيره.

وقال ﷺ: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة.. نادى مناد: من أشرك في عمل عمله لله أحداً.. فيطلب ثوابه من عند غير الله؛ فإنَّ الله أغنى الشركاء عن

الشرك» رواه أحمد.

وقرأ الجمهور ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ وقرأ شبل عن ابن كثير ومحبوب، عن أبي عمرو: بالرفع على القطع؛ أي: ثم هو يقول، وقرأ الجمهور عباداً لي بتسكين ياء المتكلم، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها ﴿وَلَكِن﴾ يقول ذلك البشر المشرف بالكتاب والحكم والنبوة للناس ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، أي: علماء عالمين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: بسبب كونكم معلمين الناس الكتاب ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم دارسين قارئين الكتاب؛ فإنَّ فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير، للاعتقاد والعمل به فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً، فمن اشتغل بالعلم والتعليم لا لهذا المقصود.. ضاع علمه، وخاب سعيه، وقال ابن عباس معنى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾؛ أي: حكماء علماء حلماء.

والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم إلى أنْ تكونوا علماء فقهاء، مطيعين لله بتعليمكم الناس الكتاب، ودراستكم إياه.

قرأ عبد الله وابن كثير وأبو عمرو ونافع[1]: ﴿تعلمون﴾ بفتح التاء وسكون العين والباقون ﴿تُعَلِّمُون﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة، وقرأ مجاهد والحسن شذوذاً (تَعَلّمون) بفتح التاء والعين واللام المشددة، وهو مضارع حذفت منه التاء والأصل: (تتعلمون).

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ من درس، من باب نصر، وقرأ أبو حيوة شاذاً (تدرِسون) بكسر الراء وروى عنه (تُدَرِّسون) بضم التاء وفتح الدال وكسر الراء المشددة؛ أي: تدرسون غيركم العلم، ويحتمل أن يكون التضعيف للتكثير لا للتعدية، وقرىء: (تدرسون) من أدرس بمعنى درس، نحو: أكرم وكرم، وأنزل ونزل، ويحتمل أنْ تكون القراءة المشهورة بهذا المعنى على تقدير: وبما كنتم تدرسونه على الناس.

---

(١) البحر المحيط ومراح.
(٢) البحر المحيط.

وخلاصة المعنى: ولكن يأمرهم هذا البشر، والنبي الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة، بأنْ يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة، وإنَّما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك، وهي تعليم الكتاب ودراسته، فبعلم الكتاب، وتعليمه، والعمل به، يكون الإنسان ربانياً مرضياً عند الله، إذ العلم الذي لا يبعث على العمل لا يعد علماً صحيحاً، ومن ثمَّ استغنى بذكره عن التصريح بالعمل، فالعلم بسبب للعمل، فقبيح على العالم تركه العمل، وأقبح منه أن يرشد الناس ويهديهم مع كونه هو غير مهتد في نفسه، فمثل العالم الذي يعلم الناس ـ وهو غير عامل ـ كشمعة موقودة تضيء للناس وتحرق نفسها، وفي هذا المعنى قال بعضهم:

أَتَنْهَىٰ ٱلنَّاسَ وَلاَ تَنْتَهِيْ ... مَتَىٰ تُلْحَقُ ٱلْقَوْمَ يَا أَكْوَعُ

فَيَا حَجَرَ ٱلسَّنِّ حَتَّىٰ مَتَىٰ ... تَسُنُّ ٱلْحَدِيْدَ وَلاَ تَقْطَعُ

وكفى به[1] دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه، وكد روحه في جمع العلم، ثمَّ لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمن غرس شجرة حسناء تؤنقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ قرأ[2] عاصم وحمزة وابن عامر ويعقوب وخلف العاشر ﴿يأمركم﴾ بفتح الراء عطفاً على يقول، والفاعل ضمير يعود على البشر، و﴿لا﴾ مزيدة لتأكيد معنىٰ النفي؛ أي: ما كان لبشر أن يجعله الله نبياً، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه، أو باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وقرأ الباقون برفع الراء على سبيل الاستئناف، كما يدل على ذلك ما روي شاذاً عن ابن مسعود أنه قرأ؛ ﴿ولن يأمركم﴾ والفاعل حينئذٍ ضمير يعود على الله، كما قاله الزجَّاج، أو على محمد، كما قاله ابن جريج، أو إلى عيسى، أو إلى كل نبي من الأنبياء، كما قيل بكل؛ أي: ولا يأمركم محمد يا معشر قريش، أو موسى يا معشر اليهود، أو عيسى يا معشر النصارى مثلاً، بأنْ تتخذوا الملائكة والنبيين

---

(١) النسفي.

(٢) المراح.

أرباباً، كما اتخذت الصابئة وقريش الملائكة، واليهود عزيراً، والنصارى المسيح ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: كيف يأمركم ذلك البشر أو الله بالكفر ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: لا يأمركم، بل يأمركم بالإسلام، والهمزة فيه للاستفهام التعجبي؛ لأنه خطاب للمؤمنين على طريق التعجب من حال غيرهم.

وإنَّما خص[1] الملائكة والنبيين بالذكر؛ لأنَّ الذين وصفوا بعبادة غير الله عزّ وجلّ من أهل الكتاب، لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة، وعبادة المسيح، وعزير، فلهذا المعنىٰ خصهم بالذكر.

والمعنىٰ: أيأمركم بعبادة الملائكة، والسجود للأنبياء بعد توحيدكم لله، والإخلاص له إذ لو فعل ذلك لكفر، ونزعت منه النبوة والإيمان، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله، فإنَّ الله لا يؤتي وحيه إلا نفوساً طاهرة، وأرواحاً طيبة، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله.

وأُثِرَ عن علي رضي الله عنه أنَّه قال: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك؛ لأنَّ العالم ينفِّر الناس عن العلم بتهتكه، والجاهل يرغب الناس في الجهل بتنسكه، وقال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع».

الإعراب

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَمِنْ﴾ الواو استئنافية ﴿من أهل الكتاب﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم من اسم موصول، أو: نكرة موصوفة، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على المخاطب. ﴿بِقِنطَارٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تأمن﴾

(١) الخازن.

والباء فيه بمعنى على، ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿تؤده﴾، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو في محل الرفع صفة لـ ﴿مَنْ﴾، إن قلنا إنَّها نكرة موصوفة تقديره: ومن أهل الكتاب شخص مؤد أمانته إنْ تأمنه علىٰ قنطار.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ الواو عاطفة، ﴿منهم﴾: خبر مقدم، ﴿مَّنْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المخاطب ﴿بِدِينَارٍ﴾: متعلق بـ ﴿تَأْمَنْهُ﴾ ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية. صلة لـ ﴿مَّنْ﴾ الموصولة، أو صفة لها ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من الظرف العام، إذ التقدير: لا يؤده إليك في جميع المدد والأزمنة إلا في مدة دوامك قائماً عليه، ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية ﴿دُمْتَ﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿قَآئِمًا﴾، و ﴿قَآئِمًا﴾: خبر دام، وجملة دام من اسمها وخبرها صلة ﴿مَا﴾ المصدرية، ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: إلا مدة دوامك قائماً عليه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء حرف جر، أنَّ: حرف نصب ومصدر والهاء اسمها، وجملة ﴿قَالُوا۟﴾ خبرها، وجملة أنَّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مجرور بالباء، المتعلقة بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك الاستحلال مستحق بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ مقول محكى لـ ﴿قَالُوا۟﴾ وإنْ شئت قلت ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، ﴿عَلَيْنَا﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم على اسمها ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور قبله، أو

صفة لسبيل، قدمت عليه فصارت حالاً، وذهب قوم إلى عمل ليس في الحال، فيجوز على هذا أنْ يتعلق بها، ذكره أبو البقاء، ﴿سَبِيلٌ﴾: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر عن خبرها، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو استئنافية ﴿يقولونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يقولون﴾: لأنَّه بمعنى يفترون ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به، ﴿وَهُمْ﴾: الواو حالية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، ومفعول العلم محذوف تقديره: أنَّه كاذبون، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب يجاب بها النفي فيصير إثباتاً، داخلة على جملة محذوفة تقديرها: بلى عليهم سبيل في الأميين ﴿مَنْ﴾: موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أو شرطية في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾: الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَوْفَىٰ﴾، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: معطوف على ﴿أَوْفَىٰ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: الفاء رابطة لجواب (من) الشرطية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً ﴿إنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ): في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة مقررة للجملة المحذوفة بعد ﴿بَلَىٰ﴾. وفي «الفتوحات» والربط من الجملة الجزائية أو الخبرية هو العموم في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمر يقول، ذلك هنا، وقيل: الجزاء أو الخبر محذوف تقديره: يحبه الله، ودل على هذ المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ا هـ «سمين».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ﴿يَشْتَرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَشْتَرُونَ﴾، ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾: معطوف على ﴿عهد الله﴾ ومضاف إلى الضمير ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿لَا﴾: نافية، ﴿خَلَٰقَ﴾: اسمها ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وجملة ﴿لَا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع، معطوف على جملة قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو عاطفة (لا): نافية ﴿يَنظُرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَنظُرُ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنظُرُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ على كونها خبر المبتدأ، وكذلك جملة قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو عاطفة ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو استئنافية ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿لأنَّ﴾ على اسمها، ﴿لَفَرِيقًا﴾: اللام لام الابتداء ﴿فريقاً﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿يَلْوُنَ﴾: فعل وفاعل ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بمحذوف حال من الألسنة تقديره: ملتبسة بالكتاب، أو ناطقة بالكتاب، وجملة ﴿يَلْوُنَ﴾: في محل النصب صفة ﴿لَفَرِيقًا﴾ وجمع الضمير نظراً إلى المعنى؛ لأنَّه اسم جمع كالرهط والقوم، وجملة ﴿إِنَّ﴾: من اسمها وخبرها مستأنفة ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: اللام حرف جر وتعليل، (تحسبوا): فعل مضارع منصوب بأنْ مضمرة جوازاً بعد لام كي، والواو فاعل، والهاء مفعول أول ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ (تحسبوه) وهو في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لحسبانهم إياه ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَلْوُنَ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾: الواو حالية ﴿ما﴾ نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبره، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تحسبوه﴾.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو عاطفة ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿يَلْوُنَ﴾ ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا هُوَ﴾: الواو حالية، ﴿ما﴾: نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، أعني قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: الواو عاطفة ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَلْوُنَ﴾ أيضاً ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أو متعلق بـ﴿يقولون﴾؛ لأنَّه بمعنى يفترون، ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول لـ (يقولون) ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل (يقولون) كما مر نظيره.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿لِبَشَرٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾: حرف ناصب، وفعل ومفعول أول وفاعل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثانٍ ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ معطوفان على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾، مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسماً لكان تقديره: ما كان إيتاء الله بشراً الكتاب والحكم والنبوة، ثم قوله للناس كونوا عباداً لي لائقاً لبشر، وممكناً منه. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب ﴿يَقُولَ﴾: معطوف على ﴿يؤتي﴾ منصوب بأنْ المصدرية، وفاعلة ضمير يعود على ﴿بشر﴾ ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلقان لـ﴿يقول﴾ ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مقول محكي وإنْ شئت قلت: ﴿كُونُوا۟﴾ فعل أمر ناقص واسمه ﴿عِبَادًا﴾: خبره ﴿لِّى﴾: صفة لـ﴿عِبَادًا﴾ وجملة ﴿كُونُوا۟﴾: في محل النصب مقول ليقول ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق[1] بمحذوف حال من الواو في ﴿كُونُوا۟﴾ تقديره: كونوا عباداً لي حال كونكم متجاوزين الله، إشراكاً أو إفراداً.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾ الواو اعتراضية ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كُونُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: خبر ﴿كُونُوا۟﴾ وجملة ﴿كُونُوا۟﴾: في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ولكن يقول كونوا ربانيين، والجملة جملة استدراكية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: الباء حرف جر (ما) مصدرية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثانٍ، والأول محذوف تقديره: غيركم، وجملة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ خبر (كان)، وجملة (كان) صلة (ما) المصدرية (ما): مع صلتها في تأويل مصدر

(١) الصاوي.

مجرور بالياء تقديره: بسبب كونكم معلمين غيركم الكتاب، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿كُونُوا﴾ أو بـ ﴿رَبَّنِيِّـۧنَ﴾ ﴿وَبِمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الباء﴾ حرف جر، ﴿ما﴾ مصدرية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿تَدْرُسُونَ﴾: فعل وفاعل، ومفعوله محذوف تقديره: الكتاب، وجملة ﴿تَدْرُسُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾: صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾: مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: وبسبب كونكم دارسين الكتاب، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد معنى النفي في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾: فعل ومفعول معطوف على ﴿يَقُولَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿بشر﴾ ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول منصوب بأنْ ﴿وَالنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على ﴿الْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿أَرْبَابًاۗ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾، وجملة ﴿تَتَّخِذُوا﴾: صلة أنْ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿يأمركم﴾ تقديره: ولا يأمركم اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وجملة ﴿يأمركم﴾: في تأويل مصدر معطوف على مصدر ﴿يَقُولَ﴾ والتقدير؛ ما كان إيتاء الله البشر الكتاب والحكم والنبوة، ثم قوله للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، وأمره الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً لائقاً به ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿يأمركم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿البشر﴾، أو على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿بِالْكُفْرِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة، أي: لا يأمركم بالكفر ﴿بَعْدَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ أو ﴿بِالْكُفْرِ﴾ ﴿بَعْدَ﴾: مضاف، ﴿إِذْ﴾ مضاف إليه، ولا يضاف ﴿إِذْ﴾ إلا إلى ظرف زمان، و ﴿إِذْ﴾: مضاف وجملة ﴿أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مضاف إليه؛ أي: لا يأمركم بالكفر بعد إسلامكم، ولا قبله، سواء كان الآمر الله، أم الذي استنبأه الله والله أعلم.

﴿بِدِينَارٍ﴾ والدينار أصله دنّار بنونين، فاستثقل توالي مثلين، فأبدلوا أولهما حرف علة تخفيفاً لكثرة دورانه على ألسنتهم، ويدل على ذلك رده إلى النونين تكسيراً وتصغيراً في قولهم؛ دنانير ودنينير، ومثله قيراط، أصله قراط، بدليل قولهم: قراريط وقريريط، والدينار معرب، قالوا: ولم يختلف وزنه أصلاً، وهو أربعة وعشرون قيراطاً، كل قيراط، ثلاث شعيرات معتدلة، فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ ﴿دُمْتَ﴾ بضم الدال، من دام يدوم، من باب قال يقول، قال الفراء: هذه لغة الحجاز وتميم، تقول: دمت بكسر الدال، قال: ويجتمعون في المضارع يقولون: يدوم، وأصل هذه المادة الدلالة على الثبوت والسكون، يقال: دام الماء إذا سكن وفي الحديث «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم»؛ أي: الذي لا يجري ﴿قَآئِمًاۗ﴾ والمراد بالقيام هنا الملازمة؛ لأنَّ الأغلب أنَّ المطالب يقوم على رأس المطالب، ثمَّ جعل عبارة عن الملازمة، وإنْ لم يكن ثَمَّ قيام.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ جمع أمي، وأصل الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب، لأنَّهم كانوا كذلك ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يقال: لوى الحبل والتوى إذا فتله، ثم استعمل في الإزاغة في الحجج والخصومات، ومنه ليان الغريم، وهو دفعه ومطله، ومنه خصم ألوى؛ أي: شديد الخصومة، شبهت المعاني بالأجرام، والمراد أنَّهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة.

﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ جمع لسان، واللسان الجارحة المعروفة، قال أبو عمرو: اللسان يذكَّر ويؤنث، فمن ذكَّر جمعه على ألسنة، ومن أنَّث جمعه على ألسن، كذراع وأذرع، وكراع وأكرع وقال الفراء: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مذكراً. انتهى. ويعبر باللسان عن الكلام، وهو أيضاً يذكر ويؤنث إذا أريد به ذلك.

﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ جمع رباني، والرباني إما منسوب إلى الرب، والألف والنون فيه

زائدتان في النسب دلالة على المبالغة، كما قالوا: رقباني وشعراني ولحياني، للغليظ الرقبة، والكثير الشعر، والطويل اللحية، ولا تفرد هذه الزيادة عن النسب، أمَّا إذا نسبوا إلى الرقبة والشعر واللحية من غير مبالغة قالوا: رقبي وشعري ولحوي، هذا معنى كلام سيبويه، وإمَّا منسوب إلى الربان، والربان هو المعلم للخير، ومن يسوس الناس ويعرفهم أمر دينهم، فالألف والنون دالان على زيادة الوصف، كهي في عطشان وريان وجوعان، وتكون النسبة على هذا للمبالغة في الوصف كما قالوا: أحمري، في أحمر، وكلا القولين شاذ لا يقاس عليه.

واختلف في معناه فقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلوم وكبارها، وقيل: هو العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل هو العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، وقيل: هو الذي جمع بين علم البصيرة، والعلم بسياسة الناس.

ولما مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد ابن الحنفية: اليوم مات رباني هذه الأمة، وقيل: الربانيون هم ولاة الأمر والعلماء، وهما الفريقان اللذان يطاعان، ومعنى الآية على هذا التأويل: لا أدعوكم إلى أنْ تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم إلى أنْ تكونوا ملوكاً، وعلماء، ومعلمين الناس الخير، ومواظبين على طاعة الله وعبادته، وقال أبو عبيدة: أحسب أن هذه الكلمة ليست عربية، وإنَّما هي عبرانية أو سريانية، وسواء كانت عربية أو عبرانية، فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم، وعلَّم الناس طريق الخير ﴿تَدْرُسُونَ﴾ يقال: درس الكتاب يدرسه أدمن قراءته وكرره، ودرس المنزل، إذا عفا، وطلل دارس عاف.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من البلاغة[1]:

منها: الطباق في قوله: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ و ﴿بِدِينَارٍ﴾ إذا أريد بهما معنىٰ القليل والكثير وفي قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الأداء معناه الدفع وعدمه معناه المنع، وهما ضدان، وفي قوله: ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ و ﴿مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الإشارة بالبعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ إيذاناً بكمال غلوهم في الشر والفساد.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿اتقىٰ﴾ و ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ الأصل: فإنَّ الله يحبهم اعتناء بشأن المتقين، وإشارة إلى عمومه لكل تَقي.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ و﴿أَيَأْمُرُكُم﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وفي قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختصه بالذكر لأنَّه اليوم الذي تظهر فيه مجازاة الأعمال.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و ﴿لا يؤده﴾ وفي اسم: ﴿ٱللَّهِ﴾ في مواضع، وفي: ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ وقوله: ﴿بِدِينَارٍ﴾؛ لأنَّ القنطار كناية عن المال الكثير، والدينار كناية عن المال القليل كما مر.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أكدت الجملة بإنَّ، واللام إشارة إلى أنَّ ذلك محقق منهم.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾؛ لأنَّه مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم، وكذلك في الآتي بعدها: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم، والسخط عليهم؛ لأنَّ من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها[(١)]: أنّه تعالى لما حكى عن أهل الكتاب قبائح أقوالهم وأفعالم، وكان مما ذكر أخيراً اشتراءهم بآيات الله ثمناً قليلاً، وما يؤول أمرهم إليه في الآخرة، وإنّ منهم مَنْ بَدل في كتابه، وغير وصف رسول الله ﷺ المذكور في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ونزه رسوله عن الأمر بأن يعبد هو أو غيره، بل تفرد تعالى بالعبادة.. أخذ تعالى يقيم الحجة على أهل الكتاب وغيرهم ممن أنكر نبوته ودينه، فذكر أخذ الميثاق على أنبيائهم، بالإيمان برسول الله ﷺ، والتصديق له، وبأن يكونوا من أتباعه

(١) البحر المحيط.

وأنصاره إنْ أدركوا زمنه، وذكر إقرارهم بذلك، وشهادتهم على أنفسهم، وشهادته تعالى عليهم بذلك، وهذا العهد مذكور في كتبهم، وشاهد بذلك أنبياؤهم، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد: أنْ يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه.. فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ﷺ، ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وبيَّن أنَّ الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، فالغرض من هذه الآيات: إثبات نبوة محمد ﷺ، بتعداد أشياء معروفة عند أهل الكتاب قطعاً لعذرهم، وإظهاراً لعنادهم، ودحضاً لمزاعمهم، وإزالةً لشبهات من أنكر منهم بعثة نبي من العرب.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ قيل سبب نزولها: أنَّ[1] أهل الكتاب اختلفوا، فادعى كل فريق منهم أنَّه على دين إبراهيم عليه السلام، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبب نزولها[2]: ما رواه النسائي وابن جرير وابن حبَّان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان رجلٌ من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديث رجاله رجال الصحيح.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ سبب نزولها[3]: ما رواه ابن كثير في تفسيره، عن

(١) الخازن.
(٢) لباب النقول.
(٣) المسند الصحيح.

عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم؟ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ هكذا رواه، وإسناده جيد.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ قرأ جمهور السبعة: ﴿لَمَآ﴾ بفتح اللام وتخفيف الميم، وعلى هذه القراءة يُقرأ: ﴿أتيناكم﴾ بنون العظمة، وهي قراءة نافع وجعفر، ويُقرأ ﴿أتيتكم﴾ بالإفراد، وهو الموافق لما قبله وما بعده؛ لأنَّه تقدم قبله ﴿إذ أخذ الله﴾ وجاء بعده: ﴿إِصْرِىٓ﴾؛ وهي قراءة الباقين من العشرة، وعلى هذه القراءة، أعني قراءة الجمهور بفتح اللام وتخفيف الميم، فاللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق، و ﴿ما﴾ شرطية منصوبة على المفعولية بالفعل المذكور بعدها، ﴿وأتيتكم﴾: فعل شرط لها، وقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على فعل الشرط وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾: جواب القسم ودال على جواب الشرط.

والمعنىٰ على هذه القراءة: واذكر يا محمد لأهل الكتاب قصة إذ جعل الله سبحانه وتعالى العهد المؤكد باليمين على جميع النبيين المرسلين في عالم الذرة، أوفى كتبهم بقوله لمهما أعطيتكم به من كتاب منزل، أو حكمة وعلم نافع ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عندي، وهو محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: موافق وصفه ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لوصفه المذكور في الكتاب الذي معكم من التوراة والإنجيل ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: لتصدقن أنتم وأممكم برسالته ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ على أعدائه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته.

وقيل: إنَّ ﴿ما﴾ موصولة مبتدأ، وصلتها ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾، والعائد محذوف تقديره أتيتكموه، و ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة، فهو صلة العائد منه قيل: مقدر؛ أي: جاءكم به، وقيل: الربط حاصل بإعادة الموصول بمعناه في

قول ما معكم.

وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ جواب قسم مقدر، وهذا القسم المقدر وجوابه خبر المبتدأ الذي هو ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ والهاء في ﴿بِهِۦ﴾ تعود على المبتدأ، ولا تعود على ﴿رَسُولٌ﴾ لئلا يلزم خلو الجملة الواقعة خبراً من رابط يربطها بالمبتدأ، وقيل: إنَّ ﴿لَمَآ﴾ مخفف لما، والتقدير: حين آتيتكم، ويأتي توجيه قراءة التشديد.

وقرأ حمزة: بكسر اللام مع تخفيف الميم في ﴿لما﴾ وعلى هذه القراءة يقرأ ﴿آتيتكم﴾ بالتاء فقط، فاللام في هذه القراءة للتعليل، متعلقة بـ ﴿أَخَذَ﴾ و ﴿ما﴾ موصولة و ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ صلته والعائد محذوف، و ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة، والرابط لها بالموصول إمَّا ضمير محذوف، وإمَّا هذا الظاهر الذي هو بمعنى الموصول، أعني قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ كما مر آنفاً.

والمعنىٰ على هذه القراءة: واذكر يا محمد لأهل الكتاب، قصة إذ أخذ الله ميثاق النبيين لرعاية الذي آتيتكم من الكتاب والحكمة. الخ، ففي هذه القراءة تقدير مضاف بعد لام التعليل.

وأجاز الزمخشري[1] في قراءة حمزة أنْ تكون (ما) مصدرية، وقال: معنى الكلام حينئذٍ لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة، ثم لمجيء رسول مصدق لِمَا معكم لتؤمنن به، قالوا: فهو مخالف لظاهر الآية، لأنَّ ظاهر الآية يقتضي أنْ تكون تعليلاً لأخْذِ الميثاق، لا لمتعلقه، وهو الإيمان، فاللام متعلقة بـ ﴿أَخَذَ﴾، وعلى ظاهر تقدير الزمخشري تكون متعلق بقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ ويمتنع ذلك من حيث إن اللام المتلقى بها القسم، لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وقال النسفي: والمعنى على كونها مصدريّة: أي أخذ الله ميثاقكم لتؤمنن بالرسول، ولتنصرنه، لأجل أنِّي آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته، موافق لكم غير مخالف. انتهىٰ.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ سعيد بن جبير والحسن شذوذاً: ﴿لمّا﴾ بتشديد الميم، على أنَّها ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿تؤمنن﴾، والمعنى: اذكر يا محمد لأهل الكتاب، قصة إذ جعل الله العهد المؤكد باليمين على النبيين في عالم الأرواح بقوله: حين أعطيتكم الكتاب والحكمة في عالم الأشباح، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه.

وقرأ أبي وعبد الله شذوذاً: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ بدل النبيين، وكذا هو في مصحفيهما، وقرأ عبد الله شذوذاً: ﴿رسول مصدقاً﴾ بالنصب على الحال من النكرة المتقدمة، وهو جائز، وإن كان قليلاً، وقد ذكروا أن سيبويه قاسه، ويحسن هذه القراءة أنَّه نكرة في اللفظ معرفة من حيث المعنىٰ؛ لأن المعني: به محمد ﷺ على قول الجمهور.

والمقصود من الآية[1]: أنَّ الله تعالى، أخذ الميثاق من النبيين خاصة، قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده: أنْ يصدق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي: أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه، وإنْ لم يدركه: أن يأمر قومه بنصرته إنْ أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسىٰ، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاووس.

وقيل: إنَّما أخذ الله الميثاق من النبيين في أمر محمد ﷺ بأنَّ يبين بعضهم لبعض صفة محمد وفضله، وهو قول علي، وابن عباس، وقتادة، والسدي، وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ﷺ، وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه.

وقيل: إن المراد من الآية أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق على أممهم، بأنَّه إذا بعث محمد ﷺ يؤمنون به وينصرونه، وهذا قول كثير من المفسرين، والمراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمد ﷺ، والمراد بكونه مصدقاً لما معهم: أنْ صفاته ونعوته وأحوله مذكورة في

---

(١) المراح.

التوراة والإنجيل، فلمَّا ظهر على نعوت وأحوال مطابقة لما كان مذكوراً في تلك الكتب.. كان نفس مجيئه تصديقاً لما كان معهم.

وصفوة القول: إنكم يا أهل الكتاب ملزمون باتباع محمد ﷺ، والتصديق بشريعته، بمقتضى الميثاق الذي أخذ على كل من موسى وعيسى عليه السلام، أنَّه إذا جاء نبي بعده، وصدق بما معه، يؤمن به، وينصره.

وإيمانكم بموسى أو عيسى عليه السلام يقتضي التصديق بكل ما يؤمن به كل منهما.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى للنبيين ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين، مع إدخال ألف بينهما وتركه، وبتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وبين الأولى المحققة وتركه، وبإبدال الثانية ألفاً ممدودة، فالقراءات خمسٌ كما في «الخطيب»؛ أي: هل اعترفتم بالإيمان به والنصرة له ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ أي: قبلتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان به والنصر له ﴿إِصْرِيۖ﴾؛ أي: عهدي، وسمي العهد إصراً؛ لأنَّه مما يؤصر؛ أي: يشد ويعقد والإصر في الأصل الحمل الثقيل، وقرىء شاذاً بضم الهمزة (أُصري) وهي مروية عن أبي بكر، عن عاصم شذوذاً، ويحتمل أن يكون لغة فيه، ويحتمل أن يكون جمعاً لأصار، كإزار وأزر ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال النبيون جواباً للرب جل جلاله ﴿أَقْرَرْنَاۚ﴾؛ أي: اعترفنا بذلك العهد وقبلناه، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى للنبيين ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾؛ أي: على أنفسكم وعلى أتباعكم؛ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقبول العهد ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً، من الشاهدين معكم، لا يعزب عن علمي شيء.

وهذا الحوار لتثبيت المعنى وتوكيده، على طريق التمثيل، وليست الآية نصاً في أنَّ هذه المحاورة وقعت، وهذه الأقوال قيلت، وله نظائر كثيرة في الأساليب العربية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فمن أعرض عن الإيمان بهذا الرسول ونصرته

بعد قبول الميثاق والعهد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعرضون ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله وميثاقه.

وخلاصة المعنى: فمن أعرض بعد أخذ الميثاق على هذه الوحدة، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان، ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه، ولم ينصره.. فأولئك الجاحدون هم الفاسقون، فأهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ خارجون عن ميثاق الله، ناقضون لعهده، وليسوا من الدين الحق في شيء.

وبعد أنْ بين الله سبحانه وتعالى أنَّ دين الله واحد، وأنَّ رسله متفقون فيه، ذكر حال منكري نبوة محمد ﷺ فقال:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ والهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض، وهي داخلة على محذوف، والفاء عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، والتقدير: أيتولون ويعرضون عن الحق بعد ما تبين لهم، ويطلبون غير دين الله وهو، الإسلام، والإخلاص له في العبادة في السر والعلن ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: والحال أنَّه قد خضع له تعالى، وإنقاذ لحكمه أهل السموات والأرض حالة كونهم ﴿طَوْعًا﴾؛ أي؛ طائعين راضين، يعني: الملائكة والمسلمين ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿كرهاً﴾؛ أي: كارهين، يعني الكفار في حالة البأس، ورؤية العذاب.

فالطَّوْع(١): الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في معنى قوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾، فقيل: أسلم أهل السموات طوعاً، وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً، وبعضهم كرهاً من خوف القتل والنبي، وقيل: أسلم المؤمن طوعاً، وانقاد الكفار كرهاً، وقيل: هذا في يوم أخذ الميثاق حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فمن سبقت له السعادة.. قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة. قال ذلك كرهاً، وقيل: أسلم المؤمن

---

(١) الخازن.

طوعاً، فنفعه إسلامه يوم القيامة، والكافر يسلم كرهاً عند الموت في وقت اليأس، فلم ينفعه ذلك في القيامة، وقيل: أنَّه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله في مراده، فأمَّا المسلم فينقاد لله، فينفذ أمره أو نهاه طوعاً، وأمَّا الكافر فينقاد لله كرهاً في جميع ما يقضى عليه، ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه.

وحاصل معنى الآية(١): أنَّ هذا الميثاق لمَّا كان مذكوراً في كتبهم، وهم كانوا عارفين بذلك، فقد كانوا عالمين بذكر محمد ﷺ في النبوة، فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد، فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله أنَّهم متى كانوا كذلك.. كانوا طالبين ديناً غير دين الله، ومعبوداً سوىٰ الله تعالى، ثمَّ بين أنَّ الإعراض عن حكم الله تعالى مما لا يليق بالعقلاء، فقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لجلال الله تعالى لا لغيره انقاد في طرفي وجوده وعدمه؛ لأنَّ كل ما سوى الله تعالى ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاده، ولا يعدم إلا بإعدامه، سواء كان عقلاً، أو نفساً، أو روحاً، أو جسماً، أو جوهراً، أو عرضاً، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين، وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم، من الفقر، والمرض، والموت، وما أشبه ذلك، أمَّا الكافرون.. فهم مناقدون لله تعالى كرهاً على كل حال؛ لأنَّهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين، ويخضعون له تعالى في غير ذلك كرهاً؛ لأنَّه لا يمكنهم دفع قضائه تعالى، وقدره أيضاً، كل الخلق منقادون لإلهيته تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ومنقادون لتكاليفه، وإيجاده للآلام كرهاً.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يرجع الخلائق كلهم للمجازاة يوم القيامة، ففيه وعيد شديد لمن خالفه في الدنيا؛ أي: أيبتغون غير

---

(١) المراح.

دين الله، مع أن مرجعهم إليه تعالى.

وقرأ أبو عمرو وحفص وعياش ويعقوب وسهل[1]: ﴿يبغون﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ الباقون ﴿تبغون﴾ بالتاء على الخطاب، فالياء على نسق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، والتاء على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ الأعمش شاذاً: (كُرهاً): بضم الكاف والجمهور بفتحها.

وقرأ حفص وعياش ويعقوب وسهل ﴿يرجعون﴾ بالياء على الغيبة، فيحتمل أن يكون عائداً على ﴿من أسلم﴾، ويحتمل أن يكون عائداً على ضمير ﴿يَبْغُونَ﴾، فيكون على سبيل الالتفات على قراءة من قرأ: ﴿تبغون﴾ بالتاء، إذ يكون قد انتقل من خطاب إلى غيبة، وقرأ الباقون بالتاء، فإن كان الضمير عائداً على ﴿من أسلم﴾.. كان التفاتاً، أو على ضمير ﴿تبغون﴾ كان التفاتاً على قراءة من قرأ: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء، إذ يكون قد انتقل من غيبة إلى خطاب.

ولمَّا ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة، أنَّه إنَّما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقاً لما معهم.. بين الله تعالى من صفة محمد ﷺ، كونه مصدقاً لما معهم فقال تعالى:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ وإنَّما وحد الضمير في قوله: ﴿قُلْ﴾ وجمع في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إشعاراً بأنَّه لا يبلغ هذا التكليف من الله تعالى إلى الخلق إلا هو، فلذلك وحد الفعل في قوله: ﴿قُلْ﴾ وتنبيهاً على أنه وافقه حين قال هذا القول أصحابه فلذا حسنا الجمع في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾.

ومعنى الآية: قل يا محمد ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقت أنا ومن معي ﴿بِاللَّهِ﴾؛ أي: بوجود الله ووحدانيته، وتصرفه في الأكوان كلها، وأنَّه ربنا وإلهنا، لا إله لنا غيره، ولا رب سواه، والمراد؛ آمنا بالله وحده، لا كما آمن أهل الكتاب به على وجه التثليث؛ وإنَّما قدم الإيمان بالله على غيره لأنَّه الأصل ﴿و﴾ قل يا محمد

(١) البحر المحيط.

أيضاً صدقنا بـ ﴿ما أنزل علينا﴾ من وحيه وتنزيله؛ وإنَّما قدم ذكر القرآن لأنَّه أشرف الكتب المنزلة؛ لأنَّ المعيار عليه؛ ولأنَّه لم يحرف ولم يبدل، وغيره حرف وبدل؛ أي: آمنا بالقرآن المنزل عليه ﷺ أولاً، وعلى أمته بتبليغه إليهم.

وإنَّما عدي الإنزال هنا بعلى، وفي البقرة بإلى؛ لأنَّه يصح تعديته بكل منهما، فله جهة علو باعتبار إبتدائه، وجهة انتهاء باعتبار آخره، وهو باعتبار ابتدائه متعلق بالنبي، وباعتبار انتهائه متعلق بالمكلفين، ولمَّا خص الخطاب هنا بالنبي.. ناسب الاستعلاء، ولما عمم هناك جميع المؤمنين.. ناسبه الانتهاء ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ أي: وقل يا محمد أيضاً: صدقنا بأنَّ الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم، وأنَّه موافق في أصوله لما أنزل علينا؛ أي: آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحى، والأسباط هم بطون بني إسرائيل، المتشعبة من أولاد يعقوب، وإنَّما خص هؤلاء بالذكر؛ لأنَّ أهل الكتاب يعترفون بفضلهم وبنبوتهم، ولم يختلفوا فيهم ﴿و﴾ صدقنا بـ ﴿ما أوتي﴾ وأعطي ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل، وسائر المعجزات الظاهرة على أيديهم، كما ينبيء عنه إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب، وإنَّما أفرد هذين النبيين بالذكر؛ لأنَّ الكلام مع اليهود والنصارى، ثم جمع جميع الأنبياء فقال: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾؛ أي: وما أعطى النبيون ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ كداود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ تعالى بالتصديق والتكذيب، فنصدق بالبعض، ونكفر بالبعض، كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بالكل.

فما مثل الأنبياء إلا كمثل الأمراء الأمناء الصادقين، يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشؤون ولاية من ولاياته، وإصلاح أحوال أهلها، وعمل القوانين النافعة لحكمها، فقد يغير التالي بعض القوانين السابقة، بحسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم، من شراسة إلى لين، ومن جهل إلى علم، ومن بداوة إلى مدينة وحضارة، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها، وبذل الوسع في سعادة أهلها، وإيصال الخير إليهم.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون له بالطاعة، مخلصون له في العبادة، مقرون بالألوهية والربوبية، لا نشرك به أحداً أبداً، ولا نبتغي بذلك إلا التقرب إليه، بإصلاح نفوسنا، وتزكية أرواحنا وتطهيرها من أدران الذنوب والخطايا.

وقد افتتحت الآية بالإيمان واختتمت بالإسلام والخضوع، وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبي.

ثم أخبر تعالى: بأنَّ كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾؛ أي: ومن يطلب ديناً غير التوحيد والانقياد لحكم الله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ أي من سلك شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة محمد ﷺ، وتدين بها، لن يقبل الله منه؛ يعني: إنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإن كل دين سواه غير مقبول عنده؛ لأنَّ الدين الصحيح ما يأمر الله به، ويرضى عن فاعله، ويثيبه عليه ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك المبتغي ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من الواقعين في الخسران، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا.. فهو رد». والمعنى: أنَّ المعرض عن الإسلام، والطالب لغيره، فاقد للنفع، واقع في الخسران، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، محروم من الثواب، واقع في العقاب، متأسف على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح، وعلى ما تحمله من التعب في الدنيا، في تقرير الدين الباطل.

فائدة: قوله: ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ العامة[1] على إظهار هذين المثلين؛ لأنَّ بينهما فاصلاً، فلم يلتقيا في الحقيقة، وذلك الفاصل هو الياء التي حذفت للجازم، وروي عن أبي عمرو فيها الوجهان: الإظهار على الأصل ولمراعاة الفاصل الأصلي، والإدغام لمراعاة اللفظ، إذ يصدق أنَّهما التقيا في الجملة؛ لأن ذلك الفاصل مستحق الحذف لعامل الجزم، وليس هذا مخصوصاً بهذه الآية، بل كلما التقى فيه مثلان بسبب حذف حرف العلة اقتضت ذلك، يجرى فيه الوجهان،

---

(١) الجمل.

نحو ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وإن يأت كاذباً، وقد استشكل على هذا نحو ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾، فأنَّه لم يرد من أبي عمرو خلاف في إدغامهما، وكان القياس يقتضي جواز الوجهين؛ لأنَّ ياء المتكلم فاصلة تقديراً. اهـ «سمين».

ولفظ ﴿دِينًا﴾ إما مفعول و ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ حال منه مقدم عليه، أو تمييز، أو بدل من غير، كما سيأتي ذلك في مباحث الإعراب.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ نزلت[1] في إثني عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة، وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، وطعمة بن أبيرق، وحجوج بن الأسلت، كما أخرجه عن عكرمة ابن عساكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والنصارى، وذلك أنَّ اليهود كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون به على الكفار، ويقرون به ويقولون: قد أظل زمان نبي مبعوث، فلما بعث محمد ﷺ.. كفروا به بغياً وحسداً.

والاستفهام هنا[2] للإنكار، ويجوز أن يكون للتعجب والتعظيم لكفرهم بعد الإيمان، أو للاستبعاد والتوبيخ؛ فإنَّ الجاحد عن الحق بعد ما وضح له.. منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد، فليس للإنكار، حتى. يستدل به على عدم توبة المرتد، وإنْ كان إنكاراً فالاستشهاد يمنعه.

ومعنى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾؛ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: تصديقهم إياه بالقلب، وإذعانهم به، وبما جاء به من عند ربه ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾؛ أي: وبعد أنْ شهدوا وأقروا بلسانهم أنَّ محمداً رسول الله إلى خلقه، وأنَّه حق وصدق ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: والحال أنَّه قد جاءهم الحجج والبراهين، والمعجزات

---

(١) الخازن.

(٢) الجمل.

الدالة على صحة نبوته، وصدقه ﷺ؛ أي: لا يوفق القوم الكافرين الأصليين والمرتدين طريق الهدى والرشاد، لما سبق في علمه تعالى أنَّهم ظالمون، وقيل: لا يهديهم في الآخرة إلى الجنة والثواب، فإنْ قلت[1]: كيف قال في أول الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِى﴾ وفي آخر الآية: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا تكرار؟

قلتُ: ليس فيه تكرار؛ لأن قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ إنَّما هو مختص بأولئك المرتدين عن الإسلام، ثمَّ إنَّه تعالى عمم ذلك الحكم في آخر الآية فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني جميع الكفار، المرتدين عن الإسلام والكافر الأصلي، وإنَّما سمى الكافر ظالماً لأنَّه وضع العبادة في غير موضعها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ على كفرهم ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سخطه وغضبه، وإبعاده لهم عن رحمته ﴿و﴾ أنَّ عليهم لعنة ﴿الملائكة والناس أجمعين﴾؛ أي: يستحقون غضب الله وسخطه، وسخط الملائكة والناس كلهم، إذ هم متى عرفوا حقيقة حالهم لعنوهم؛ لأنَّها مجلبة للَّعن بطبعها لكل من عرفها.

وهذا يدل[2] بمنطوقه على جواز لعنهم، وبمفهومه ينفي جواز لعن غيره، ولعل الفرق أنَّهم مطبوعون على الكفر، ممنوعون عن الهدى، آيسون عن الرحمة رأساً، بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون، أو العموم؛ فإنَّ الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، والمرتد عنه، ولكن لا يعرف الحق بعينه حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: مقدرين الخلود في اللعنة أو العقوبة، أو النار، وإنْ لم يجر ذكرهما لدلالة الكلام عليهما ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: لا ينقصون من العذاب شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولا هم يمهلون لمعذرة يعتذرون بها؛ لأنَّ سببه ماران على قلوبهم من ظلمات الجحود والعناد، وسخط الله وغضبه، وهو معهم لا يفارقهم أينما كانوا، ثمَّ استثنى سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

من الكفر إلى الإيمان ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ارتدادهم وكفرهم، وذلك أن الحارث بن سويد الأنصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك، فأرسل إلى قومه: أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ ففعلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ الآية. فبعث إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه، فأقبل إلى المدينة تائباً، وقبل رسول الله ﷺ توبته، وحسن إسلامه ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة، وقيل: معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات، وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لقبائحهم في الدنيا بالستر لها ﴿رَّحِيمٌ﴾ في الآخرة بالعفو عنها، وقيل: غفور بإزالة العذاب، رحيم بإعطاء الثواب، وفي هذا الاستثناء وما بعده إشارة إلى أنَّ الكفار تنقسم ثلاثة أقسام:

قسم: تاب توبة صادقة فنفعته، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

وقسم: تاب توبة فاسدة فلم تنفعه، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾.

وقسم: لم يتب أصلاً ومات على الكفر، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾.

وخلاصة المعنى: أي إلا الذين تابوا من ذنوبهم، وتابوا إلى ربهم، وتركوا ذلك الكفر، الذي دنسوا به أنفسهم، نادمين على ما أصابوا منه، وأصلحوا نفوسهم بصالح الأعمال التي تغذي الإيمان، وتمحو من صفحة القلب ما كان قدْ ران عليها، من ذميم الأخلاق والصفات. وفي هذا إيماء إلى أنَّ التوبة التي لا أثر لها في العمل، لا يعتد بها في نظر الدين، إذ كثير من الناس يظهرون التوبة بالندم، والاستغفار، والرجوع عن الذنب، ثم لا يلبثون أنْ يعودوا إلى مثل ما كانوا قد اجترحوا من السيئات؛ لأنَّ التوبة لم يكن لها أثر في نفوسهم، ينبههم إذا غفلوا، ويهديهم إلى اتخاذ الطرق الموصلة لإصلاح شؤونهم، وتقويم المعوج من أمورهم، فإذا هم فعلوا ذلك.. نالهم من مغفرة ربهم ما يؤهلهم لدخول

جنته، والفوز برحمته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بموسى والتوراة، وهم اليهود ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا أو ماتوا كفاراً، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، وذلك أنَّهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه، وشهدوا أنَّه حق لما رأوا في كتبهم من نعته ووصفه، ثم كفروا به بعد بعثته، ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد، والصد عن سبيل الله، وبالحرب، فهؤلاء لا تقبل توبتهم ما أقاموا على ذلك؛ لأنَّ نفوسهم قد توغل فيها الشرك، وتمكن فيها الكفر، وأحاطت بها خطيئتها، وضلت على علم، وقرأ عكرمة شاذاً: ﴿لن نقبل﴾: بالنون ﴿توبتَهم﴾: بالنصب.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً ﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: المتناهون في الضلال، الذين ضلوا عن سبيل الحق، وأخطأوا منهاجه.

وما مثل ذلك إلا مثل الثوب الأبيض، تصيبه بعض الأوساخ، فيبادر صاحبه إلى غسله، فينظف، ويزولُ أثر ذلك الدنس، ولكن إذا تراكمت عليه الأقذار مدة طويلة، حتى تخللت جميع خيوطه وتمكنت منها.. تعذر تنظيفه، وإعادته إلى حاله الأولى، وبين هذه الحال وما قبلها مراتب متفاوتة.

وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وبمحمد ﷺ ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ بهما ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مقدار ما يملأ الأرض مشرقها ومغربها ﴿ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ﴾ نفسه ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بذلك الملء، قال الزجاج: إن الواو للعطف والتقدير: لو تقرب إلى الله في الدنيا بملء الأرض ذهباً.. لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً.. لم يقبل منه، أو المراد بالواو التعميم في الأحوال، كأنَّه قيل: لن يقبل من الكفار الفداء في جميع

الأحوال، ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة، وقيل: هي زائدة، كما قرىء شاذاً بإسقاطها، ومفعول افتدى محذوف؛ أي: ولو افتدى نفسه. وقرأ عكرمة شاذاً ﴿فلنْ نقبل﴾: بالنون، و﴿وملء﴾: بالنصب، وقرىء شاذاً: ﴿فلن يَقبل﴾ بالياء مبنياً للفاعل؛ أي: فلن يقبل الله و﴿ملء﴾ بالنصب، وقرأ أبو جعفر وأبو السمال شذوذاً: ﴿مل الأرض﴾ بدون همز، ورويت عن نافع، ووجهه أنَّه نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبل - وهو اللام - وحذفت الهمزة، وهو قياس في كل ما كان نحو هذا، وقرأ الأعمش شذوذاً أيضاً: ﴿ذهبٌ﴾: بالرفع، وحمل على أنَّه بدل من (ملء)، وقرأ ابن أبي عبلة شذوذاً أيضاً: ﴿لو افتدى به﴾: بدون واو.

فإن قلت[1]: الكافر لا يملك شيئاً في الآخرة فما وجه قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾؟.

قلتُ: الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير، والمعنى: لو أنَّ للكافر قدر ملء الأرض ذهباً يوم القيامة.. لبذله في تخليص نفسه من العذاب، ولكن لا يقدر على شيء من ذلك.

وقيل معناه: لو أنَّ الكافر أنفق في الدنيا ملء الأرض ذهباً، ثم مات على كفره.. لم ينفعه ذلك؛ لأنَّ الطاعة مع الكفر غير مقبولة، لأنَّ الكفر يحبط أعماله، ويمحو كل حسناته، فمن لم تزك نفسه في الدنيا، وتسمُ عما يكدرها من ظلمات الكفر، وأوضار الشرك.. فلن ينفعها يوم مناقشة الحساب عمل وإنْ جَلَّ، ولا فضيلة وإن عظمت، إذ المعول عليه في ذلك اليوم هو الإيمان الصحيح بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح الذي يرقى بصاحبه إلى حظيرة القدس في جوار الرب الرحيم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار الذين ماتوا على الكفر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: مانعين يدفعون عذاب الله

---

(١) الخازن.

عنهم، أو يخففونه عنهم، كما كانوا ينصرونهم في الدنيا إذا حاول أحد أذاهم، أو إيقاع المكروه بهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ: لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم، أنْ لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك». متفق عليه وهذا لفظ رواية مسلم.

الإعراب

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: أذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾ ﴿لَمَآ﴾ اللام: حرف زائد لتوطئة معنى القسم الآتي ﴿ما﴾: شرطية في محل النصب على كونه مفعولاً ثانياً لآتي ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: فعل وفاعل، ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّن كِتَـٰبٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لاسم الشرط، أو حال منه ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: معطوف على ﴿كِتَـٰبٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم معطوف على ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة ﴿لِّمَا﴾. أو صفة لها ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿تؤمنن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، لعدم مباشرة نون التوكيد، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل

الجزم جواب لما الشرطية، وجملة الشرط مع جوابه في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾. ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، اللام: موطئة للقسم ﴿تنصرن﴾: فعل مضارع مرفوع لتوالي الأمثال لعدم مباشرة نون التوكيد، والواو المحذوفة فاعل، والهاء مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، كما أشرنا إليها في مقام التفسير، لا نطيل الكلام بذكرها؛ لأنَّها تحتاج إلى أوراق كثيرة، تكون رسالة نفردها بالتأليف إنْ شاء الله تعالى.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة مستأنفة ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: إلى ﴿قَالُوٓا۟﴾: مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت الهمزة: للاستفهام التقريري ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أخذتم﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أخذتم﴾ ﴿إِصْرِى﴾: مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَقْرَرْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ الفاء عاطفة[1] على محذوف تقديره: قال: أأقررتم فاشهدوا، فالفاء دخلت للعطف، ونظير ذلك قولك: ألقيت زيداً؟ قال: لقيت، قلت فأحسن إليه، التقدير: لقيت زيداً فأحسن إليه، فما فيه الفاء بعض المقول، ولا يجوز أن يكون كل المقول لأجل الفاء، ذكره أبو حيان ﴿اشهدوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب، معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَنَا۠

---

(١) البحر المحيط.

مَعَكُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية ﴿أنا﴾: مبتدأ. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جار ومجرور، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿اشهدوا﴾ ولكنها سببية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكر من إقراركم، وشهادتكم، وشهادتي معكم، وأردتم بيان حكم من تولى بعد ذلك.. فأقول لكم. (مَنْ): اسم شرط جازم، أو اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو جملة الجواب فقط، أو هما إن كانت شرطية، أو جملة (أولئك) إنْ كانت موصولة، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ (من) الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ أو الجملة الفعلية صلة من الموصولة إنْ قلنا: ﴿من﴾: موصولة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة اسمية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ، لما في المبتدأ من العموم إنْ كانت موصولة، (أولئك): مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم على كونها جواباً لـ ﴿من﴾ الشرطية، أو خبر لـ ﴿من﴾ الموصولة، والجملة الشرطية، أو الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَفَغَيۡرَ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخله على محذوف تقديره: أيتولون.. فيبتغون غير دين الله، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿غير﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَبۡغُونَ﴾ وهو مضاف ﴿دِينِ﴾: مضاف إليه وهو مضاف، ولفظ الجلالة مضاف إليه، ﴿يَبۡغُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة جملة إنشائية مستأنفة،

﴿وَلَهُۥٓ﴾: الواو حالية ﴿له﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَسۡلَمَ﴾ ﴿أَسۡلَمَ﴾: فعل ماضٍ. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ ﴿مَنْ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من لفظ الجلالة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ حالان من فاعل ﴿أَسۡلَمَ﴾ تقديره: حالة كونهم طائعين وكارهين ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، (إليه): جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ على كونها حالاً من الجلالة، أو مستأنفة.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾. إلى قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لقل. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على لفظ الجلالة، ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير النائب، ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ معطوف على ﴿ما أنزل علينا﴾ ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُنزِلَ﴾ ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: معطوفات على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿أُوتِىَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ﴿مُوسَىٰ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول لأوتي، والثاني محذوف تقديره: أوتيه موسى، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾: معطوفان على ﴿مُوسَىٰ﴾، ﴿مِن

﴿رَّبِّهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المحذوف ﴿لَا﴾: نافية، ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على النبي ومن معه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾ تقديره: آمنا بما أوتي النبيون حالة كوننا لا نفرق ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾ ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق بـ ﴿نُفَرِّقُ﴾. ﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿نحن﴾ مبتدأ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ ﴿مُسْلِمُونَ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿ءَامَنَّا﴾ تقديره: آمنا بالله حالة كوننا منقادين له.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو الجواب فقط، أو هما معاً، ﴿يَبْتَغِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾؛ على كونه فعل الشرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿دِينًا﴾: تمييز، ويجوز أن يكون ﴿دِينًا﴾: مفعولاً، و ﴿غَيْرَ﴾ صفة له، قدمت عليه فصارت حالاً، ويجوز أن يكون ﴿دِينًا﴾ بدل من ﴿غَيْرَ﴾ ﴿فَلَن﴾ الفاء: رابطة لجواب (من) الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ (لن)، (لن): حرف نصب ﴿يُقْبَلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ (لن)، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية أو عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآتي، على أن الألف واللام ليست موصولة، بل للتعريف، كهي في الرجل، أو على أنها موصولة، وتُسومِح في الظرف والمجرور؛ لأنه يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما، ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، أو في محل الجزم معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾ على كونها جواباً لـ ﴿من﴾ الشرطية.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾: اسم للاستفهام الإنكاري لتعميم الأحوال، في محل النصب حال، أو ظرف والعامل فيها ﴿يَهْدِي﴾ ﴿يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (شهدوا): فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنَّ﴾ مضمرة وجوباً بعد الواو العاطفة على المصدر الصريح، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ تقديره: كفروا بعد إيمانهم، وبعد شهادتهم أنَّ الرسول حق، ويجوز أن تكون جملة (شهدوا) حالاً من ضمير ﴿كَفَرُوا﴾ وأنْ تكون معطوفة على ﴿كَفَرُوا﴾ كما ذكره أبو البقاء، ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب، ﴿الرَّسُولَ﴾: اسمها، ﴿حَقٌّ﴾: خبرها، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿شهدوا﴾ تقديره: وشهدوا حقية الرسول ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواو حالية، ﴿جاءهم البينات﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾، ولكنه على تقدير، قد، تقديره: كيف يهدي الله قوماً كفروا وقد جاءهم البينات؟ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الله﴾ مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَهْدِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿الْقَوْمَ﴾: مفعول به ﴿الظَّالِمِينَ﴾: صفة له.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ، ومضاف إليه، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لأنَّ. ﴿لَعْنَةَ اللَّهِ﴾: اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر عن خبرها، ولفظ الجلالة مضاف إليه ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ﴾ معطوفان على لفظ الجلالة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد للناس، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في

تأويل مصدر خبر للمبتدأ الثاني تقديره: جزاؤهم كون لعنة الله عليهم، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل فيها الجار والمجرور، أو ما يتعلق به ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فعل ونائب فاعل، و ﴿لَا﴾ نافية عنهم، متعلق بـ ﴿يُخَفَّفُ﴾، والجملة في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿عَنْهُمُ﴾ ولكنها حال سببية ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (لا): نافية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنظَرُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ على كونها حالاً من ضمير ﴿عَنْهُمُ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿تَابُوا۟﴾، فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاء: تعليلية لقولهم: إنَّ الفاء بعد الاستثناء للتعليل (إنَّ): حرف نصب ولفظ الجلالة اسمها ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها، ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، والجملة في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلقة بمعلول محذوف تقديره؛ وإنَّما استثنيناهم لكون الله غفوراً رحيماً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: ظرف زمان، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿كَفَرُوا۟﴾ ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟﴾ عطف وفعل وفاعل ﴿كُفْرًا﴾: مفعول به منصوب وفي «الفتوحات» قوله: ﴿كُفْرًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، والأصل: ثم ازداد كفرهم، كذا أعربه أبو حيان، وفيه نظر، إذ المعنى على أنَّه مفعول به، وذلك أن الفعل المتعدي إلى اثنين، إذا جعل مطاوعاً.. نقص مفعولاً، وهذا من ذلك، كقولهم: زدت زيداً خيراً فازداده، وكذلك أصل الآية

الكريمة: زادهم الله كفراً فازدادوه، ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب ﴿تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾، مستأنفة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿لَّن تُقْبَلَ﴾: على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾ أو معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ﴿كَفَرُواْ﴾: صلة الموصول ﴿وَمَاتُواْ﴾: معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿ماتوا﴾. ﴿فَلَن﴾ الفاء: رابطة لخبر ﴿إن﴾ باسمها لشبه الذين بالشرط في العموم، وإيذاناً بتسبب عدم القبول عن الموت على الكفر، الذي هو معطوف على الصلة، فهو من جملة المبتدأ، ولما لم يقع مثل هذا العطف في الآية التي قبلها.. لم يقترن خبر إنَّ بالفاء؛ لأنَّ الكفر في حد ذاته ليس سبباً في عدم قبول التوبة، بل السبب مجموعه، هو والموت عليه، كذا ذكره في «الفتوحات» ﴿لن﴾: حرف نصب ﴿يُقْبَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْ أَحَدِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يُقْبَلَ﴾. ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ نائب فاعل ومضاف إليه ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز لـ ﴿مِّلْءُ﴾ منصوب، والجملة من الفعل المغير ونائبه في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة كما قاله الزجاج ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدِهِم﴾، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: لم يقبل منه، وجملة ﴿لو﴾ معطوفة على محذوف تقديره: لو تقرب إلى الله في الدنيا بملء الأرض ذهباً.. لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً.. لم يقبل منه. وقيل: الواو زائدة و (لو): غائبة لا جواب لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره مستأنفة ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة، ﴿وَمَا لَهُم﴾: الواو عاطفة ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: من: زائدة ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وفي «الفتوحات»: يجوز أن يكون ﴿لَهُم﴾ خبراً لاسم الإشارة، و ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل به، وعمل لاعتماده على ذي خبر، أي: أولئك استقر لهم عذاب، وأن يكون ﴿لَهُم﴾: خبراً مقدماً و ﴿عَذَابٌ﴾؛ مبتدأً مؤخراً، والجملة خبر عن اسم الإشارة، والأول أحسن؛ لأنَّ الإخبار بالمفرد أقرب من الإخبار بالجملة، والأول من قبيل الإخبار بالمفرد. ا هـ. «سمين».

وفيها أيضاً قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يجوز أن يكون ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: فاعلاً وجاز عمل الجار لاعتماده على حرف النفي؛ أي: وما استقر لهم من ناصرين، والثاني: أنَّه خبر مقدم، و ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، و ﴿مِّن﴾: زائدة على الإعرابين، وأتى بـ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ جمعاً لرعاية الفواصل.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الميثاق: العهد الموثق المؤكد باليمين، وهو أنْ يلتزم المعاهِد ـ بكسر الهاء ـ للمعاهَد ـ بفتحها ـ أنْ يفعل شيئاً، ويؤكد ذلك بيمين، أو بصيغة مؤكدة من ألفاظ المعاهدة أو المواثقة، يجمع على مواثق، ومياثق، ومواثيق، ومياثيق، وأصله موثاق، قلبت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة؛ لأنَّه من وثق يثق.

﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أصله؛ أقر، بالإدغام، وإنَّما فك هنا؛ لأنَّه إذ اتصل بالفعل المدغم عينه في لامه ضمير رفع سكن آخره. فيجب حينئذٍ الفك، نحو: حللت وحللنا، كما قال في الخلاصة:

وَفُكَّ حَيْثُ مُدْغَمٌ فِيْهِ سَكَنْ   لِكَوْنِهِ بِمُضْمَرِ ٱلرَّفْعِ ٱقْتَرَنْ
نَحْوِ حَلَلْتُ مَا حَلَلْتُهُ وَفِيْ   جَزْمٍ وَشِبْهِ ٱلْجَزْمِ تَخْيِيْرٌ قُفِيْ

وهو من قر الشيء إذا ثبت مكانه ﴿أخذتم﴾ بمعنى قبلتم؛ لأنَّه من أخذ الشيء إذا قبل، يأخذ من باب نصر ينصر، كما جاء نحوه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾.

﴿إِصْرِيٓ﴾ الإصر ـ بكسر الهمزة ـ: العهد المؤكد الذي يمنع صاحبه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه، وهمَّ، اسم من أصره إذا حبسه، من باب ضرب، وهو أيضاً الذنب والثقل كما في «المختار».

﴿طَوْعًا﴾ الطوع: مصدر لطاع لفلان يطوع طوعاً، من باب قال، إذا انقاد له وامتثل أمره.

﴿كرهاً﴾ الكره: مصدر كره الشيء يكره، من باب علم، كرهاً وكرهاً وكراهة وكراهية ضد أحبه، وفي «السمين» ﴿طَوْعًا﴾ ﴿وَكَرْهًا﴾ مصدران في موضع الحال، والتقدير: طائعين وكارهين.

﴿الأسباط﴾ جمع سبط، والمراد بهم الأحفاد، وهم أبناء يعقوب الاثني عشر وذراريهم، ولكن المراد بالأسباط هنا قبائل بني إسرائيل، المتشعبة من أولاد يعقوب.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ وهو مضارع ابتغى الشيء يبتغي ابتغاء، إذا طلبه، من باب التفعل، وبناؤه لمبالغة ثلاثيه يقال: بغى الشيء من باب رمى بغياً وبغاء، وبغى وبغية وبغية إذا طلبه.

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسم فاعل من الظلم، والظلم هو العدول عن الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إلى الحق ﴿لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ واللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ الإنظار، الإمهال والتأخير.

﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ والملء ـ بكسر الميم وسكون اللام ـ وهو ما يؤخذه الإناء إذا امتلأ، يقال: إنه ينام ملء جفنه، إذا نام خالياً من الغم والهم، ويقال: فلان ملء كسائه؛ أي: سمين، ويجمع على أملأ.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة:

فمنها: الالتفات في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، ففيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، إذ قبله ميثاق النبيين، وهو لفظ غائب.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿أَقْرَرْنَا﴾ لأن الظاهر في الجواب أن يقال: أقررنا وأخذنا إصرك، فلم يذكر الثاني اكتفاء بالأول.

ومنها: جناس الاشتقاق بين لفظ: ﴿اشهدوا﴾ و ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وكذلك بين لفظ: ﴿كَفَرُوا۟﴾ و ﴿كُفْرًا﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الطباق بين ﴿طَوْعًا﴾ ﴿وَكَرْهًا﴾ وبين لفظ الكفر والإيمان في قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ في موضعين.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَهْدِى﴾ و ﴿لَا يَهْدِى﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿كَفَرُوا۟﴾ و ﴿كُفْرًا﴾.

ومنها: التأكيد بلفظ هم في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

ومنها: قصر صفة على موصوف في قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ومثله قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ شبه تماديهم على كفرهم وإجرامهم، بالأجرام التي يزاد بعضها على بعض، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

ومنها: العدول من مفعل إلى فعيل؛ لإفادة المبالغة في قوله: و ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما في فعيل من المبالغة

ومنها: الحذف في مواضع إلى غير ذلك(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا انتهى المجلد الرابع من الشرح على الجزء الثالث من القرآن الكريم في تاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٤٠٧ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس